مراثي الدمى
رواية
ميسرة الهادي
فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

مراثي الدُمى

رواية..

الكاتبة: ميسرة الهادي.

عن الرواية..

هذه الرواية من الخيال؛

وأي تشابه بين شخصياتها وبين شخصيات أخرى واقعية

سواء حية أو ميتة،

فهو بمحض الصدفة.

ميسرة الهادي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء خاص..

إلى الأشياء المُفتعلة..

و الأكليشيهات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القسم الأول الخوف

"ليس في المحبةِ أي خوف. بل المحبة الكاملة تطرد الخوف خارجًا. فإن الخوفَ يأتي من العقاب. والخائفُ لا تكون محبة الله قد اكتملتْ فيه." (1 يوحنا 4 : 18)

"فلا تخافوا إذًا! أنتم أعز من عصافير كثيرة." (متى 10 : 31)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا تغادر قبل شروق الشمس

"هاي! هل أنتِ مرتبطة؟" "أنتَ يا هذا! ابتعد عن هنا! هذه الجميلة ملكي" "أنتِ لستِ جميلة! أنا أحلى منكِ!" "عجبا لهؤلاء الرجال، انظري لأنفها المعوجة؟" "هي هي، إنها حتى لا تحسن وضع طلاء الشفاه! لقد عكّ خدها!" "يا للنساء! وأنتَ يا ذا الشيبة عيبٌ عليك! اتق الله" "انتبه لحالك يا شيخ! لا تشغل بالك بي!" "طنط.. طنط.. كيف أكون جميلة مثلك؟" "انظر إلى نهديها؟ إنها صاروخ حقيقي!" "وانظر إلى رجليها المضمومتين أسفل التايير!" "هاي! أنا أعشق السيدات اللاتي يرتدين الفورمال! يبدو عليكِ شيك جدًّا! ينقصك فقط نظارة شمس سوداء وستغار منكِ أنجلينا جولي" "أنتَ يا ابن الـزواني ألم أقل لكَ هذه الجميلة ملكي؟" "الجميلة تختار يا ابن العاهرة!" "طيب! أنا أملك الكثير من الأوراق الخضراء! تعرفينها أليس كذلك؟ تلك المرسوم عليها جورج بوش!" "أوف! حمار! إنه كلينتون!" "ماما.. أريد ركوب الحمار!" "حين يأتي بابا يا حبيبي!" "لا! بابا تأخر! وأنا أريد ركوب الحمار!" "انظر! إنها قطة! العب معها" "مياو.. مياو.. مياو" "ماما ماما هناك حمار أيضًا" "حاء حاء حاء" "ها! ماذا قلتِ يا آنسة؟ أم أقول يا مدام؟" "آنسة بالتأكيد يا بأف!" " شوفي يا أختي! نحن أمامهم ليل نهار ثم يذهبون للحم الرخيص المكشوف على الذباب!" " هؤلاء هم الرجال! كائنات لزجة تجري خلف شهوتها! انظرن كيف يسيل لعابهم على هذه المذيعة؟" "على فكرة: عيب! ارفعي (الكب)! صدرك كله باين!" "مذيعات آخر زمن! ولو أمسكناه لوجدناه حمالة push up!" "هذا إن لم يكن أصلًا سيلكون!" "هل عيناكِ هاتان حقيقيتان؟ أم عدسات رخيصة؟" "بابا.. أريد أن أكون جميلة مثل طنط!" "عيب يا بنت.. إنها تكشف جسمها على الناس! لا أعرف أي حجاب هذا! هل تريدين أن تدخلين النار؟" "مياو.. مياو.. مياو" "حاء حاء حاء" "لو زوجي رآكِ لن يتأثر! زوجي عينه ملآنة وأنا واثقة من ذلك! ثم إنكِ سمينة ولستِ النوع الذي يفضله!" "ماما.. متى يأتي بابا؟" "ماذا جرى للناس؟ لم يعد هناك دين!" "يا آنسة! أنا لستُ مثلهم! أنا فقط أريدكِ أن تخبريني بما حدث؟" "مياو.. مياو.. مياو" "اسمعي! سواء كان عليها الشيطان نفسه، سأمنحك عشرة آلاف ورقة خضراء مقابل أن نتزوج أسبوعا!" "ماذا تحسب الآنسة؟ إنها ليست عاهرة يا متخلف! إنها.. إنها.. ملاك!" "هي هي أنتَ أخرق جدًّا!" "أنتم لا تزالون صغارًا لا تتدخلوا في أمور الكبار" "صغار! هل تحب أن ترى؟ هل تحبين أنتِ يا صاروخ؟" "عيب يا بني! عيال ناقصة تربية!" "انتبه لحالك يا شيخ!" "ماما.. القطة عملت كاكا والحمار عمل بيبي!" "أرجوكِ.. أنا لا أفهم شيئًا.. ماذا حدث؟" "يا أخي! يسألها كأنها أميرة الديوان!" "رجال ناقصون!" "آه والله يا أختي.. كنتُ أتزين لزوجي كل يوم، وابن الكلب يأتي فينام كخشب السرير، ويغيظني بشخيره العالي!" "يا ماماااااا.. القطة عملت كاكا والحمار عمل بيبي!" "ثم يأتون في النهاية ويشكوننا لأمهاتهم ويقولون مقصرات وكل يوم عندهن ظروف ورائحتهن بصلا!" "لا! الحمد لله زوجي مختلف! عمره ما كسفني!" "مسم! ربنا يهنئ سعيد بسعيدة!" "أنا زوجي مهما تزينت له كان يأتيني من خلفٍ، حسبي الله ونعم الوكيل" "أنتِ المخطئة! أنتِ التي تركتيه يفعل ذلك من البداية"

"والله قال لي نجرب ولو ضايقك خلاص!" "وابن الكلب استحلاها!" "بس متقوليش ابن كلب!" "وأنتِ يا ست المذيعة إياكِ تكوني تتسمعين كلامنا لتتقليه على الناس!" "تأملي كيف تنظر! كيف تغمض عينيها بسهوكة كي تغوي الرجال!" "ستات متخلفة!" "يا طنط.. أنا أريد أن أكون مذيعة!" "بابا لم يأتِ بعد يا ماما، والقطة لا تتوقف عن عمل الكاكا والحمار لا يتوقف عن عمل البيبي!" "ها يا آنسة ما رأيك أن نتناول العشاء في جروبي؟" "جروبي؟ أنتَ قديم موت!" "ولا! قلت لكَ هذه الفرس تخصني! نفض لنفسك!" " يا إخوانا هدوء لو سمحتم! دعونا نفهم ماذا جرى!"

- ها جاهزة يا أستاذة؟ ستاند باي! ثري.. تو..

مساء الخير أعزائي المشاهدين معكم (ندى أحمد علي) أنقل لكم نشرة السادسة.. ونبدأها بأهم العناوين:

عبوة ناسفة تنفجر في أحد الأسواق بالعاصمة وسقوط نحو ثلاثين قتيلا.

وفي مؤتمر صحفي يؤكد رئيس الوزراء: سنتصدى للإرهاب بكل حسم.

ومجلس الأمن يدعو لعقد قمة عاجلة في الأمم المتحدة لدراسة الأزمة في بغداد.

وإليكم التفاصيل:

انفجرت صبيحة اليوم قنبلة مجهولة المصدر في سوق وسط المدينة العمومي، وهو الانفجار الأول من نوعه الذي تشهده عاصمة نَهَرْ، وقد أصاب الانفجار عدة محلات، وراح ضحيته ثلاثين شهيدا على الأقل بينهم نساء وأطفال، بحسب تقديرات وزارة الصحة. ولم يتبنَ أحد الانفجار حتى الآن، إلا أن الشكوك – حسب التصريحات الرسمية – تدور كلها حول تنظيمات إرهابية مشبوهة تتبع تنظيم القاعدة، وقد قال المتحدث باسم.....

... ...

لملمت ندى أوراقها وانعقاد حاجبيها لم ينفك. قامت وانقباض شفتيها الورديتين لم ينبسط. ألقت التحية على الواقفين مغادرة الأستوديو بهز رأسها دون صوت، لم تجد صوتا تحيي به زملائها، نفس الشعور الذي يصيبها بالقيء، كأنها تبحث عن صوتها داخل هوةٍ عميقة لا تدري مداها. تمشي في الممر المؤدي إلى مكتبها الأنيق، تخشى أن تقابل أحدًا، تخشى أن تقابل نادر بالتحديد. أو لعلها تتمنى أن تلقاه. أخيرا المكتب.. أغلقت المزلاق، ثم ألقت نفسها على الكرسي وخلعت حذاءها ناقمة على هذا الكعب العالي الذي مزق كاحليها، رأسها يرزح تحت ثقلٍ هائل، ومطارق مساجين لا يكلون محكومٍ عليهم بالأبدية يطرقون فوقه. فكت حجابها وتركت شعرها ينساب خلفها شلالًا هادرًا يتشح بسوادٍ كعيون حصانٍ عربي. عقدت كفيها خلف رأسها وأمالت جذعها ليميل معه ظهر الكرسي الجلد قليلًا ثم يستكين.

"ماما ماما.. سئمت القطط والحمير وأريد أسدًا" "اسكت ألم تسمع كلام طنط؟" "هل هذه المرأة الملونة قالت فعلًا إننا شهداء؟" "شهداء؟ يا لهوي سأتأخر عن

الطهي! سيقتلني زوجي!" "أنا زوجي مختلف! عمره ما زعق فيّ لأجل تأخري في إعداد الطعام!" " هل يا آنسة سيغير موضوع الشهادة هذا شيئًا؟ لا زال عرضي قائمًا في جروبي!" "شهادة! عندي مثلها أعلقها في الصالون! إن كنتِ تحبين الشهادات فأنا يمكنني أن أمنحكِ شهادة من جامعة ساكسونيا ذات نفسها!" "بابا.. هل طنط جميلة لأنها مثلنا شهيدة؟" "انظر! لقد بان صدرها أكثر لما عادت بظهرها إلى الوراء!" "وهل لاحظت الـ....."

اعتدلت ندى سريعا! عدلت من هندامها...

- كفى! كفى أرجوكم! قالت.

احتضن كفاها رأسها، لكنها كانت في ثقل نجمٍ يملأ السديم فرفعت كوعيها سندا على المكتب.

- أرجوكم.. أنا تعبت! رأسي سينفجر!

مستمرٌ حديثهم لا يتوقف. وهي تتشبث برأسها كأنها لا تصدق أنها فوق كتفيها البضين. يرن جرس هاتفها فتفزع، تشير بيدها لما حولها كأنها تأمر الأصوات أن تهدأ.

كان نادر.

... ...

غمازتان صغيرتان أنيقتان تحت يمناهما حسنة سوداء بارعة الحسن، يضفون على ابتسامتها عذوبة وإثارة. لم تكن تتكبد عناءً كي تكون جميلة. هي جميلة فعلًا، يجلس أمامها نادر ثابتا كتمثال رمسيس، ربما في وضع الانتباه العسكري أيضًا. هذا الجمال الطبيعي جدًّا. ملامحها ليست دقيقة، أنفها يأخذ انحناءة صغيرة، وأسنانها ليست منتظمة كما يجب، لكن ابتسامتها آسرة. هذه الابتسامة التي جلس نادر طوال الجلسة يبحث عنها، فظل يلقي نكتة تلو النكتة، وغزلا بعد غزل، حتى بدأت الأسنان تظهر، ساعتها صنع بيديه كاميرا، وقال بصوتٍ عالي: انظري هنا! ومثل أنه يأخذ لها صورة..

- ماذا تفعل يا مجنون أنت؟ ماذا يقول الناس؟

- أردتُ أن أسجل اللحظة التاريخية! يا ليت نضال هنا كان التقط الصورة كما يجب!

- ما أخباره؟

- بخير الحمد لله..

- غريب جدًّا نضال.

- لكنه صديق حقيقي.

- نعم يبدو ابن حلال فعلًا.

- آه.. هي تبدأ كذلك! ابن حلال وأمه طيبة ويكون زوجا مثاليا! لا يا هانم لن أسمح لكِ أن تضيعي اللحظة التاريخية في الحديث عن نضال أو غيره.

- لا تكن سخيفا، أنتَ تعرف أنه مثل أخي بالضبط. قالت ندى وابتسامتها تتسع كضوء النهار.

- وماذا عني؟

- ماذا تقصد؟ قالت وهي تتدلل.

- أقصد متى ستقولينها؟

- وما هي؟

- الكلمة إياها!

- أي كلمة؟

- كلمة بحبكَ!

- وهل تحبني أنتَ؟

- ألا زلتِ تسألين؟ مطعم على النهر، وشموع، وقميص كلاسيك، وباقة ورد، وتسألين؟

- لا زال عندي شك!

- أحبكِ كحب النحل للرحيق، والخبز للدقيق، والطريق للرفيق!

- هل نقلك لقسم الأخبار جعلك شاعر عامية؟ قالتها وهي تضحك.

- اللهم صلِ على النبي! ضحك القمر يا أولاد. ندى أرجوكِ هذه الضحكة هي التي تجعل الدنيا محتملة بالنسبة لي، فلا تحرميني منها أبدًا.. اتفقنا؟

أمسكت كفه وقالت بعينين مستكينتين: شكرًا يا نادر.

قبض على كفها، وأخذ يغمغم بكلمات كثيرة، لكنها مع لمسة يده الدافئة، استكانت، ودتْ لو قامت وتجاهلت كل هؤلاء الناس وألقت نفسها في حضنه، تبكي، تتحامى فيه من كل هذه الأصوات المستمرة التي لا تنقطع في أذنيها، ودت لو يكون زوجها هو الذي لم يعرض عليها ذلك قط. ربما لأنه ينتظر منكِ أن تخبريه بحقيقة مشاعركِ يا غبية. أم أنكِ ستضيعينه كما ضيعتِ أحمد! توبخ نفسها. لكن مشاعري واضحة! ثم من أدراني أنه لا يلعب بي؟ تفكر. لكنها فعلًا في حاجة إلى هذا الحضن الذي يمكنها أن تختبئ فيه من كل هذا الدم، حتى لو لم يكن حضن أحمد. ترى شفتيه تتحركان لكنها لا تسمع شيئًا، ثم ترى شفتيه تسكنان، وتدرك أن نوبة كآبة قد حلت به. هؤلاء الشعراء مجانين! يتلفت حوله كأنه يبحث عن شيءٍ ما أو كأنه مراقب، يبدو على وشك المغادرة، تتشبث فقط بكفه القابضة على كفها، وتود لو صرخت فيه: لا تغادر حتى يمر هذا الليل المخيف، لا تغادر حتى تشرق الشمس!

سأتعشى!

بالكاد استطاع محمد جمعة الانتظار حتى وصل إلى البيت. ساهما ترجل من سيارته، لم يقل أي كلمة لسائقه، فكر أن يتمشى قليلًا في الليل، لكنه قدر أنه قد يلاقي أحد المعجبين الذين لا ينتهون، فتراجع. ربما الهدوء في البيت سيكون أنسب للمكالمة! قال لنفسه. لم ينتبه للخادمة مديحة وتحيتها، وصعد السلم الداخلي للفيلا بأقصى سرعة سمح بها الشحم الذي يحيط سرته من كل النواحي. دخل غرفته الفسيحة، أحكم إغلاق الباب، جلس على طرف السرير، رفع هاتفه وقلبه يدق بعنف، التوتر يغزوه. اتصل. جاء صوت السكرتيرة معلنا عن مكتب المارشال، عرَّف محمد جمعة نفسه، طلبت منه السكرتيرة الانتظار. جرس. جرس. جرس. جرس. عرق. جرس. اهتزاز السرير بسبب اهتزاز القدم اليسرى. جرس. ثم لا إجابة. لم يضايقه التجاهل قدر ما وتره. هل يتصل ثانية؟ سأل نفسه. حسنا! سيتصل مرة أخرى وحيدة إن لم يجد إجابة لن يتصل بعدها. نعم نعم هذا تفكير سليم. جرس.. جاء الرد أسرع من المتوقع، فأجفل.

- آلو.. مساء الخير. خرج صوته مرتبكا قليلًا.

على الناحية الأخرى كان هناك صوت غناء خشن لم يهتم بالتحية أو لم يسمعها، كان المغني منتشيا رغم خشونة صوته، ولم يجرؤ محمد جمعة أن يقاطعه، ولا حتى أن يفكر كيف يكون غناءً بهذه الحنجرة.

- من؟ سأل الصوت بصرامة وقد قطع غناءه.

- أنا.. أنا.. محمد جمعة.

- محمد جمعة من؟ بنفس الصرامة.

- محمد جمعة.. الإعلامي.. خادمكم.. الذي.. حضرتك.. أنا..

- ماذا تريد؟

- فقط وددت أن أعرف رأي سعادتك في حلقة اليوم؟ هل.. (ولا يجد الكلمة المناسبة).. هل.. أرضتكم؟ (نعم! هذه هي!)

- والهوى.. آه منه الهوى.. سهران الهوى.. يسقينا الهوى.. ويقول بالهنا.. هاهاها أليس صوتي رائعا؟

- طبعا طبعا!

- أفكر في إنتاج شريط، أنت تعرف لم يعد هناك طرب هذه الأيام، كل شيء تغير، لكن الرك على الأصل أليس كذلك؟

- طبعا طبعا!

- هل تحب ألف ليلة وليلة؟

- طبعا طبعا!

- أنا لا أحبها!

- وأنا أكرهها سعادتك!

- تحبها أم تكرهها؟ بصرامة.

- آ.. ما تراه سيادتك!

- أنا أحبها لكن أكرهها، أشعر معها أن الليلة تطول حتى تصير ألفا فعلًا. هل تحب الليل؟

- آ.. أ...

- إزاي.. إزاي.. إزاي.. أوصفلك يا حبيبي إزاي.. قبل ما أحبك كنت إزاي.. هاهاها عظمة على عظمة يا فنان!

- فنان حقيقي!

- من؟ بصرامة.

- أقصد.. أنا.. صوت حضرتك جميل فعلًا.

- ومن أنت؟ هل أنت ملحن مثلا؟

- .... آ..

- لا بأس.. لا بأس.. لماذا أنتَ خائف؟ اهدأ. ماذا تريد؟

- كنتُ فقط أود أن أعرف رأي سعادتك في حلقة اليوم.

- وماذا تعتقد أنت؟

- آ.. أتمنى أن أنال رضا سيادتكم دائمًا.

- هذا لمصلحتك! الآن اذهب.

انغلق الخط.

... ...

أشعل محمد جمعة سيجارة ونفث الدخان بعصبية. خلع الجاكت وربطة العنق. ألقاهما بلا اكتراث على السرير جواره، خلع حذاءه. طرقت مديحة على الباب، دخلت تتمايل في ميوعة، يكاد ثدياها ينبثقان من فستانها الملتصق بجسدها كجلدها، نهرها وأمرها أن تخرج، معلنا أنه لن يتناول العشاء الليلة. خرجت دون ضيق أو تأثر واضح على وجهها. كأنما كانت تؤدي مهمة محددة غير عابئة بالنتائج. قام إلى الباب، لصق أذنه به يتسمع، بعدت الخطوات ثم ساد الهدوء. انتظر هكذا ربما دقيقة أو أكثر قليلًا، ثم في حماس وقلبه يخفق بعنفٍ شديد، فتح حاسوبه الشخصي، ودخل موقع القناة الرسمية على شبكة الإنترنت، ثم ضغط على نشرة السادسة.

ظهرت أمامه ندى وهي تلقي العناوين، فتسارعت دقات قلبه، واستلقى على السرير واضعا الحاسوب أمامه، وهو يخلع بنطلونه وسرواله الداخلي بسرعة ولهفة، ثم جاءت الصورة على موقع التفجير وصور الدم والأشلاء، الأذرع المبتورة، والأدمغة المفرتكة، والصدور المشقوقة، وتأتي الصورة على ندى فيغوص في تأمل عينيها العابثتين وشفتيها الورديتين وخديها الحمراوين كما الدم على الشاشة ونهديها الممتلئين، ويتخيلها معه، تنقبض عضلاته من شدة الانفعال، وتختفي ندى وصور الجثث والعربات المحروقة تتابع على الشاشة، ثم تعود ندى، فينفعل أكثر، ويشتد انقباضه، الكثير من صراخ الثكلى والأمهات على الشاشة، يتخيله صراخها هي تحته، فيكاد يصل لنشوته، تأتي صورتها سريعة، ثم تتلاشى لتأتي صورة رئيس الوزراء. أغرق منيه الشاشة. التصق بصلعة رئيس الوزراء.

ظل راقدا يلهث. تملأ ندى الشاشة المتسخة بمنيه، فيشعر بنشوة أكبر، وتتقد الرغبة داخله من جديد، يقوم كما هو نصف عارٍ ورغبته مفضوحة تسبقه بسنتيمترات قليلة جدًّا. ينزل السلم هرولا إلى غرفة تجاور المطبخ، يقتحم خلوة الخادمة مديحة، تنتفض، يحتضنها بعنف شهواني، ويقول: غيرت رأيي؛ سأتعشى!

الحب في زمن المذابح

المدن بداخلنا أكثر منها أمام أعيننا. وحين نغترب تكون غربتنا من دواخلنا، فنغترب في أوطاننا، داخل مدننا، داخل بيوتنا، لأننا نغترب في الأساس داخل أنفسنا. ويبقى ذلك الجزء المحب، تبقى داخلنا المدينة، ومعكَ يطغى عليّ هذا المحب، وتملؤني المدينة، وتتفتت جدران الغربة..

نجول ليلًا وحدنا، أنا وأنتَ، في عتمة الليل المخيف. تملؤنا المدينة، ونملؤها. نجتاز شوارعها كأننا نمشي داخلنا. تحتوي كفي بكفك، ورأسي بكتفك، وروحي بروحك. نتمشى جوار النهر، نرمق القمر الفضي منعكسا على صفحة الماء، وتقول لي: ها قد نزلتِ من عليائك القمرية إليّ! أسألك: كم انتظرتني؟ فتجيب: عمرًا طويلًا.. طويلًا جدًّا كأنه الأبد. تسعدني كلماتك، وأتذكر كونكَ شاعرًا فأسألك بشك: وكم مرة تقول هذا الكلام يا حضرة الشاعر؟ فتجيب: ولو قلته ألف مرة فلم أعنِه سوى الآن!

أضحك وتضحك، ونتبختر على الكوبري الكبير عابر النهر، تحملني على ظهرك كطفلة، أخجل من التصاق صدري بظهرك، لكن تتعلق أقدامي بفخذيكِ وتتشبث يديّ برقبتك، وتمسك أنتَ رسغيّ بقوة، تحميني من السقوط. تضحك وأضحك. وأضحك وتضحك. تقطف لي وردة من حديقة جانبية يكاد شذاها يضيء الليل. تعلقها خلف أذني وتعدل لي وضع خصلات شعري كي تظهر وردتك. تقول إني أجمل من كل الورود، فتحمر خدودي كوردتك. تحاول أن تقبلني على خدي فأتمنع، وأبتعد، أركض، وتركض خلفي، الجو بارد، وأنفاسنا اللاهثة تخرج الكثير من البخار، ينجذب لبعضه ويتعانق حتى يتبدد.

لا أحد سوانا في هذا العالم!

لكن هذه الهمهمة، ودبيب الأرجل الرتيب كوقع أقدام جيش، يأتيان من بعيد، بعيد جدًّا. جليان في هذا الليل البارد.

أقول لكَ، فتقول: وما الذي يمكن أن يحدث؟ لا أحد يستطيع أن يمنعنا!

أخاف!

أخاف أكثر من اللازم، ربما أخاف أن أفقد كل هذا، أو لأنه في هذا العالم الكئيب البائس؛ الطبيعي هو أن أفقد كل هذا، بل الطبيعي ألا أكتسبه من الأساس!

تقبل خدي فأضحك، وتحمر خدودي أكثر،

يعلو الدبيب..

خطوة عسكرية منتظمة جدًّا، صلفة الوجوه، صارمة الرتابة، وكأنها تتحدى الزمن، أو تصنعه.

والهمهمة..

كأسلوب (كريشندوف) الموسيقي، تعلو بطيئا، بطيئا، حادة، ورغم البعد مفهومة..

وأتأمل القمر في عينيك!

والدبيب يعلو، وخشخشة السلاح في الأيدي، و"كتفا سلاح" العالية التي صارت تصدح في الأفق، فترج الليل رجا..

والهمهمة تتكتل فتصير أناسا كُثر، يبدون كآلاف من رهبان التبت، يترنمون ترنيمة أبدية موحدة يحفظونها جميعًا بلحنٍ قدسي سحري حر. ترتفع قبضاتهم منقبضة على الغضب، وتنبسط على الحب..

أبحث عن الحديقة التي ناولتني منها الوردة بعيني، ولا أراها!

والقمر يصير برتقاليا، وأنت تقبل أنفي..

والدبيب يأتي من يميننا، ونحن واقفان في المنتصف، يتجمع عند أول الكوبري، ويتوقف تمامًا. صفوف هائلة من جنود يرتدون أزياء ميرية مختلفة الألوان، الكاكي والأزرق والأحمر والأخضر والأصفر والأسود، لكنهم يتشابهون في سلاحهم، في عتادهم، قسوة ملامحهم، انقباضهم العنيف، وفي قلوبهم السوداء.

والقمر صار أحمر، لون شفاهنا وألسنتنا الذائبة في بعضها، كأنفاسنا التي صارت واحدة..

والمهمهمون يصيرون جسدا واحدا، عند الضفة الأخرى، يأتون من يسارنا، يتجمعون فأخجل من نظراتهم الثائرة الثابتة الصامدة المتحدية وترانيمهم المقدسة..

ولم أعد أرى القمر وأنتَ تقبل رقبتي..

رفيف الأعلام على اليسار يبدأ بطيئا، والهتاف أيضًا، ويتشكل الجنود على اليمين صفوفا، كفريق إعدام، ويرفعون أسلحتهم في وضع التنشين، يتمركز صفٌ على

ركبته، وصفّ واقف.

يشدو الهتاف، ويشد الجنود أجزاء أسلحتهم في صوتٍ رنان..

وأغيب أنا عنهم بك، ولم أعد أحتمل، فتخرج من صدري تنهيدة خافتة، وآهة نشوة..

وكأنها كانت إشارة البدء، جموع المهمهمين تحاول عبور الكوبري، والجنود يطلقون الرصاص، طلقة ثم شد للأجزاء، وكل طلقة تضرب صدر راهب - فيندفع في الهواء إلى خلفٍ ويسقط على ظهره - تُحمِّسُ الهتافَ أكثر. صفٌ كاملٌ من الرهبان يموت، وصفٌ جديدٌ من الجنود يرتكز، بتناغم شديد وبوحدوية شديدة التناسق، كأنما هو فيلم والأبطال جميعًا يمتثلون لإشارة المخرج.. والجمعان يتقدمان بخطوات رتيبة وكأن من يسيطر على الكوبري قد سيطر على العالم! أليس الكوبري عالمنا نحن؟ أنا وأنتَ؟ وهم يتوغلون بصفوفٍ من القتلى، وصفوفٍ من القاتلين، يحصراننا بينهم، يعبر من فوقنا الرصاص ورذاذ الدم والأشلاء والهتاف والأعلام، وأجذبك نحوي، ألتهم شفتيك بعنف، ونسقط على الأرض، وطائرات تضرب صواريخ ويشتعل الليل نارا ويصير نهارا، ويضطرب النهر، والأعلام ترفرف. يرتج الكوبري تحتنا، ويرتج جسدي تحتك، وأصرخ بكل صرخات النشوى، أناديك بأقصى ما فيّ من طاقة، كي يعلو صوتي فوق الرصاص والنيران والدم والألم.. وتهمس في أذني أحبك، ونغيب سويا، رغم الرصاص، ورغم الدمار، رغم النيران التي اشتعلت في الناس، ورغم أنهم الآن حولنا، يحاصروننا وقد اتحدوا علينا، وانتبهوا أن آهة حبي ونشوتي هي سبب حربهم هذه كلها!

سيقتلوننا يا أحمد، سيقتلوننا يا أحمد، تهمس في أذني: لن يفرقنا أحد! لكني أرى في عيونهم قسوة، وأراهم جميعًا يقتربون، يقتربون، يحيطوننا وتمتد أيديهم مفرودة الأصابع، نحو رقبتينا يريدون خنقنا... سيقتلوننا يا نادر.. سيقتلوننا يا أحمد.. أصرخ.. سيقتلوننا...

وأفيق من أحلامي، ألهث وقد أغرقني عرق شديد، أبحث عن الهواء في غرفتي وأقوم فأفتح ضوءً خافتا، كأني لا أستطيع أن أرى الهواء في العتمة!

أهز رأسي في بؤس: وكأن الحبَّ جائزٌ في زمن المذابح!

لكني بعدها لا أستطيع النوم.

الحلم والأوباش*

وهو لا يزال بعد غلاما في السابعة، حاول نادر الالتحاق بالإذاعة المدرسية. كان الغلمان الأكبر منه يسيطرون على الإذاعة، خاصة فتيان الصف الخامس الابتدائي، الذين يتفاخرون بأعوامهم العشرة.

ذهب إلى التلميذ المسئول عن تسجيل الأسماء..

- أريد.. أن.. أسجل.. اسمي.. (نبض قلبه يتسارع دائمًا حين يهم بقولها، أو حتى بمجرد التفكير فيها، فتعلو أنفاسه كشخير) في الإذاعة.

- تقصد: أريد أن أتهته في الإذاعة! أريد أن أشخر في الإذاعة!

ضحكوا..

- لا.. أريد أن أقرأ نشرة الأخبار!

- يختي حلوة!

- العب بعيد يا شاطر! الإذاعة للكبار فقط!

- أنتَ تريد أن تدخل الإذاعة؟ ونحن نصير ماذا؟ الشرطة المدرسية؟

جاء الأستاذ..

سألهم: ماذا هنا؟

- هذا ال... الطفل! يريد أن يذيع نشرة الأخبار!

- أنتَ؟

- وهل تعرف الحروف لنهايتها؟

- نعم.. ألف باء تاء ثا....

ضجوا بالضحك والأستاذ معهم، ثم لما احمر وجهه أسكتهم الأستاذ، قال له: أنتَ لا تزال صغيرًا على نشرة الأخبار، ما رأيك هل تقول حكمة اليوم؟

لم يرد وقد احتقن وجهه، واحمرت شعيرات عينه، فترفق به الأستاذ قائلا: الرجال لا يبكون!

... ...

في البيت؛ ذهب إلى التلميذ المسئول عن تسجيل الأسماء..

- أريد أن أسجل اسمي (نبضُ قلبه هادئٌ، واثقٌ من نفسه جدًّا، لا يلهث ولا يشخر) في الإذاعة.

لم يمنحه فرصة للرد وأكمل: - أريد أن أقرأ نشرة الأخبار!

- يختي حلوة!

- أختك الحلوة في بيتي! أنا أقرأ الأخبار كل يوم لجدي!

- أخته!! العب بعيد يا شاطر! نحن لا نريد أن نؤذيك، الإذاعة للكبار فقط!

- وما دخلك أنتَ يا أبا طويلة يا أهبل؟ أنت حتى لا تستطيع قراءة حكمة اليوم بشكل صحيح!

ضحكوا..

- أنتَ تريد أن تدخل الإذاعة؟ ونحن نصير ماذا؟ الشرطة المدرسية؟

- هذا مكان الأوباش أمثالكم!

بدأت سخريته توجعهم، وهموا بضربه، لكن جاء الأستاذ..

سألهم: ماذا هنا؟

- هذا ال... الطفل! يريد أن يذيع نشرة الأخبار!

- أنتَ؟

- نعم أنا ولستُ طفلا!

- وهل تعرف الحروف لنهايتها؟

- هل تسمعني أتحدث بالأرقام؟

ضجوا بالضحك والأستاذ معهم، ثم لما خافوا من نظرته الصارمة أسكتهم الأستاذ، قال له: أنتَ لا تزال صغيرًا على نشرة الأخبار، ما رأيك هل تقول حكمة اليوم؟

لم يرد ولم يحتقن وجهه، ولم تحمر شعيرات عينه، قال في لا مبالاة: لا! أنا سأصير مذيعا مشهورا وأظهر في التلفزيون!

جف دمعه ونام سعيدا، وهو يتخيل نفسه يعطيهم ظهره في خيلاء وقد ألجمتهم كلماته الأخيرة!

... ...

وهو ذاهبٌ للقاء ندى، قال له صاحب السيارة التي أصابت سيارته من الخلف، فهشمت الفانوس: أنا لن أدفع مليما!

- كيف؟ أنتَ ضربتني من الخلف وأنا كنت أعطيك إشارة!

أخرج الرجل سلاحًا أبيض، وقال: - سمعت؟ أنا لن أدفع شيئًا!

- يا أخي نحن نتفاهم! هذا لا يصح، هذه ليست أخلاق أولاد البلد!

- هيا اذهب من هنا! غور! بدلا من أن أشوه وجهك الوسيم هذا كوجه أمك القحبة!

فتح نادر باب سيارته، وركب.

وصل لندى، عابس الوجه، غاضبا كثور.

- ماذا حدث يا نادر؟

- أبدًا.. حادثة بسيطة!

- يا إلهي! خير؟

- حمار صدمني من الخلف..

- وماذا جرى؟

- الفانوس تهشم.. نزلت له، فوجدته يقل أدبه، ورفع سلاحًا في وجهي.. فقلت له: الرجال لا يحتمون بالأسلحة.. فسخر مني وسبني بأمي، فغضبت غضبًا شديدًا وضربت يده الممسكة بالسلاح فسقط، وهشمت وجهه بضرباتي لولا أن حاشني الناس عنه.. الحمار كان يتنطع ويقول لن أدفع مليمًا، لكنه بعد العلقة الساخنة قال سأدفع كل ما تريد.. قلت في إباء أنا لا أقبل العوض.. ثم صفعته مرة أخرى قائلًا: هذه لأجل أمي.

مسرحية

يصطحبني ليريني المسرحية. تُفتَّح لنا كل الأبواب، وندخل من مدخل كبار الزوار. المسرح الكبير ذو الكراسي الحمراء القطيفة الفخمة معتمٌ، عدا ضوءٍ واضح يرتكز على ظهر شخصٍ متوسط الطول، كتفاه مهزومتان ويداه جواره مفرودتان ويبدو ظهره محنيا قليلًا، وعلى خشبة المسرح أناسٌ كثيرون يقفون بثباتٍ كدمى، والديكور يبدو شارعا عريضا على جانبيه بيوت ودكاكين فقيرة ومدقعة الفقر.

أسأله: من هؤلاء؟

- من هؤلاء؟ من هؤلاء!! أتريد أن نلعب تلك اللعبة السخيفة تسأل أنت وأجيب أنا؟

أهز كتفيّ وأقول مبتسما: أعتقد أن القراء سيفضلون ذلك!

- تقليدي جدًّا!

يقوم ويتمشى ليقف أسفل خشبة المسرح على الأرض، فيصير حذاء الواقف أعلى من قرعته قليلًا. أجلس على كرسي في منتصف القاعة، وهو يواجهني بنظارته الشمسية وقرعته ووجهه الخالي تمامًا من الشعر باستثناء شاربه الكث وحاجبيه الكثيفين البرتقاليين الظاهرين من فوق النظارة رغم كبر حجمها. يقول وهو يشير بصولجانه العسكري الذي يتأبطه دائمًا كماريشالات النازية:

- هذا الذي يرتدي نظارة طبية كلاسية وقميصا سمنيا خفيفا، وبنطلون بني محروق، وأصلع، ونحيف جدًّا، هذا الذي كما ترى يتسلط عليه بؤرة الضوء من الخلف، هو....

والتفت لي.

- نور! اسمه نور!

يهز رأسه في ضيق: - تقليدي جدًّا!

أشير ليمين المسرح، فيلتفت ويقول:

- هؤلاء هم الجماهير العريضة، كما ترى فهم مقسمون لعدة مجموعات، المجموعة الواحدة ثلاثة رجال وفتاتان، يرتدون منامات بيت، ويختلفون في لون ملابسهم فقط، هل لاحظت حتى أنهم تقريبا نفس الطول والملامح بل وحتى نفس طول الشعر؟

أشير ليسار المسرح، فيلتفت ناحية إشارتي ويبتسم بحب فتظهر أخاديد في قرعته:

- هؤلاء رجالي البواسل، يرتدون بذاتهم العسكرية الحمراء، وخوذهم السوداء، ويحملون سلاحهم تحية لي!

ثم باستمتاع يقول: هل نبدأ العرض؟

أومئ برأسي بتؤدة، فيقول بصوتٍ عسكري جهوري: استعد! فينتبه كل من على خشبة المسرح، يتراجع هو خطوة للخلف، ويعطيني ظهره، ثم يشير بصولجانه إلى جزء معتم في جانب المسرح، وأرتدي سماعات الأذن، فتشتعل موسيقى E.S. Posthumus - Arise لتعمل في الخلفية كتأثير..

يقف المارشال أسفل خشبة المسرح، يشير بعصاه كمايسترو، ناحية الجماهير العريضة، على اليمين، فيدورون في دائرة، أصحاب المنامة الزرقاء يتلوهم أصحاب المنامة البرتقالية، ثم أصحاب المنامة الصفراء، ثم أصحاب المنامة الخضراء، ونور يترنح في منتصف خشبة المسرح، لا يزال ظهره للجمهور، وبؤرة الضوء تتابعه، كتفاه مهزومتان ويداه جواره مفرودتان ويبدو ظهره محنيا قليلًا، الجماهير العريضة تجول على المسرح، بخطوات آلية، كلهم يبدون شخصا واحدا، يتصرفون نفس التصرفات، يرفعون أياديهم بتحية للعساكر، ثم يخفضونها، بنفس الروتين، بنفس الخطوات..

يدورون إلى اليسار، في البداية تكون المنامات الزرقاء، بجانب وجهها الأيمن في مواجهة الجمهور، توازيها المنامات الخضراء، في عمق المسرح، تواجه الجمهور بجانب وجهها الأيسر، وعلى الجانبين: تتقدم المنامات البرتقالية مواجهة الجمهور، والصفراء تتقدم نحو عمق المسرح ظهرها لهم. خطوتين، ثم يلتفون إلى اليسار مواجهين الجمهور بجانبهم الأيسر، ثم خطوتين إلى اليسار ثم يلتفون إلى اليسار، وجوههم للجمهور الآن، ثم خطوتين ثم إلى اليسار، خطوتين، إلى الأمام، ثم اليمين، ثم اليسار، والدائرة تدور بنفس الخطوة العسكرية والرتابة، وبؤرة الإضاءة تشتد على ظهر نور، كأنها تتبع منه، يحاول التقدم خطوة، وهو يترنح.

تتوقف الجماهير العريضة، مع صمت الموسيقى في الدقيقة 1:18 ثم تلتفت الوجوه التفاتة واحدة بإشارة حادة من المارشال.

تتسمر الدائرة، على يمين نور، وتلتف أجساد الجماهير العريضة كلها نحوه، مرةً واحدة، كجسد واحد. يشتعل المارشال ويبدو كقطعة نار ببذته العسكرية شديدة الحمرة المزينة بنياشين كثيرة، يشتعل مع اشتعال الموسيقى ويشير للعساكر فتدب فيهم الحياة، ويدبون بخطوات منتظمة في أماكنهم، ثم يحاول نور التقدم مرةً أخرى، فترتفع يد المارشال فينقسم العسكر لثلاث مجموعات في دائرة مهيبة يحيطون نور بصرامة، ويقفون ساكنين..

يحاول نور اختراق الدائرة، وهو لا يزال ظهره للجمهور، عبر من هم على يمينه، فتدفعه الأيدي، وتصرخ المجموعة: لا..

يركض نحو مجموعة العساكر الثانية، يدفعونه بأيديهم، يحاول بجذعه يمنة ويسرة، لكنهم يدفعونه بقوة نحو المجموعة الثالثة، صارخين: لا..

يدفعونه هم أيضًا دفعة قوية يسقط إثرها على الأرض مع صمت الموسيقى في الدقيقة 2:10 فيخفض المارشال يده ثم يرفعها لأقصى امتداد فيصرخ الجند جميعًا: لا!

تشتعل الموسيقى من جديد، وتبدأ العساكر في الركض، في أماكنها، ركضًا عسكريا منتظما، بإيقاع مرتفع، مع زومة هائلة تختلط بالموسيقى،

ها،

ها،

ها،

ها،

حدة صوت خشخشة السلاح مع خشونة الحبال الرجولية، يمتزجان بالموسيقى،

ها،

ها،

ها،

ها،

كهتاف الصاعقة،

الجماهير العريضة لا تزال تشاهد ساكنة، ومجموعات الجند تنطلق، عدوا سريعا، وتبدأ في الالتفاف حول نور، يقتربون من بعضهم بعضا، يلتصقون كتفا بكتف، يحيطون ويضيقون الخناق حول نور، الذي قام من سقطته يلف حول نفسه، وسطهم، وهو يحاول تثبيت نظارته بيده، وهم يقتربون منه ثم يعودون للخلف قليلًا مرةً أخرى لثلاث مجموعات في دوائر صغيرة، وقد انفصلت كل مجموعة في دائرة بتشكيل تدور فيه كل مجموعة حول بعضها..

والمجموعات كلها تدور حول نور عدوا ويدور هو حول نفسه، والمارشال يهيج كمايسترو في حفله الأخير ويشير بعصاه يمينا ويسارًا منفعلًا..

دوران،

دوران،

دوران،

دوران...

سقط..

يحيطون به من كل جانب، يصوبون نحوه السلاح بعنف، حتى تكاد فوهات البنادق تلامس جسده..

إظلام..

يلتفت لي المارشال بأنفاس لاهثة، يتأبط عصاه، يعدل من بزته، ثم ينحني لي محييا كمايسترو انتهت جوقته من العزف توا، وأقوم انفعالا مصفقا، ويعلو تصفيقي حتى يشمل المسرح كله، كأني لستُ وحدي!

- اجلس ستفضحنا!

- متأسف انفعلت!

هز رأسه الأقرع، وهو يذوي ما بين حاجبيه كمدا، متلفتا حوله يخشى أن يكون أحدٌ رآني.

قلتُ: لا تقلق أنا حين أكتب، أحب أن أختلي بنفسي، لا أكتب أمام أحد!

تجاهل كلماتي وقال: أنت غير مسئول يا سيد ميسرة!

ابتسمتُ له، وقلت: لماذا؟

- لأنكَ تضيع وقتكَ في أشياء لا معنى لها!

- تقصد الكتابة؟

- نعم!

- الكتابة؟

- نعم!

- لماذا؟

- لماذا الكتابة أم لماذا تضيع وقتك؟

- لا لماذا لا معنى لها؟

- هناك الكثير من لماذا ها هنا!

- أنتَ الذي بدأت!

- أصلًا ما معنى لماذا هل تعرف؟

- لا.. لا أعرف!

- ولماذا لا تعرف؟

- ولماذا أعرف؟

- ألستَ كاتبا؟

- وهل على الكاتب أن يعرف معنى لماذا؟ عليه أن يسأل بها فقط!

- ها ها ها.. تقليدي جدًّا!

- لم تجاوبني!

- على ماذا؟

- ها! لقد قلتَ أنت لماذا فهل تعرف معناها؟

- أنا قلت ماذا ولم أقل لماذا!

- وما الفرق بينهما؟

- لا أعرف!

- ولماذا لا تعرف؟

- ولماذا أعرف؟

- ألست المارشال؟

- نعم! لهذا لا أسأل أنا آمر فقط!

- لماذا هذه العظمة الزائفة؟

- ها! لقد سألتَ بلماذا! فهل تعرف معناها؟

- لماذا لماذا لماذا لماذا... ماذا تريد؟

- أريدكَ أن تتوقف لأني فعلًا أشفق عليكَ!

- يا لقلبك الطيب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طيف إصبع قوي

كيف أنتَ الآن يا أبي؟ لم تعد تأتيني في أحلامي كما اعتدت أن تفعل. هل أنتَ غاضبٌ مني؟ لكني لم أفعل شيئًا خاطئًا، أنا أحبه يا أبي، هذا كل ما الأمر، ألا زلتَ تحبني هذا الحب وتغار عليّ؟ رحماكَ يا أبي! رحماكَ بابنتك المسكينة. لا أعرف في الحقيقة إن كان هو هو، أم أنه يشبهه، لكني لا أنسى، لم أنسَ ولن أنسى..

ذلك اليوم حين كنتُ مع أمي ورشا، في النادي الذي لم يكن فخما كما هو الآن، وجاء هذا الصبي الصغير، يلعب بأصابع متسخة على قيثارة صغيرة، ويصنع منها ألحانا رائعة، كان رث الثياب، والطين والتراب يجولان في وجهه، كان يبيع هذه القيثارات، أمي كانت تحضر لنا طعاما من البوفيه، وأنا كنت مجذوبة نحو اللحن كأن ملاكا يعزفه، قمت إليه، بكم هذه؟ قال في تردد: جنيهان، أخرجت حافظتي الصغيرة، وأخذت أعد الأنصاف والأرباع فيها، هي كل ما تبقى من مصروفي، كانوا جنيهين بالتمام، فرحت جدًّا، أعطيتهم إياه وناولني واحدة، عدت لمقعدي فرحانة، جاءت أمي، لمحته يعد النقود، قالت: بكم هذه؟ قلت: بجنيهين.. أنتِ مجنونة؟ لمَ يا أمي؟ هاتي البتاعة دي.. وقامت ثائرة للصبي، هات الفلوس، خاف الولد أعطاها النقود، فأعطته القيثارة، وهي تسب وتلعن في أمن النادي الذي سمح لهؤلاء المتشردين أن يضحكوا على بنات الناس، احمرت وجنتاي وطفقت أتأمل خشاش الأرض خجلا، عادت إلينا توبخني، أليس عيبا على شحطة مثلك أن يضحك عليها صبي صغير متشرد؟ وأنا لا أعرف كيف أرد، وأختي تقرأ في مجلة الأزياء ولا تعيرنا أدنى اهتمام، قلت لها بصوت خفيض: فقط أعجبني اللحن! لكنها لم تكن تسمع، هي لم تسمع أصلًا يومًا ما، أليس كذلك يا أبي؟ أتعرف ساعتها كنت أتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعني كي أختفي من هنا، من أمامها ومن كل العالم، ثم وجدته.. كم كان عمري وقتها؟ كنت صغيرة بما يكفي ليربت على رأسي، ويناولني القيثارة مبتسما، ويمسح دمعتي بإصبعه القوي، وكبيرة بما يكفي لتبتسم أمي ابتسامة خبيثة، ليس له لزوم هذا التعب والله يا ... العفو يا طنط، لا تعب على الإطلاق.. لم يقل اسمه، ولم يقل من هو، وكادت أمي تموت وتستبقيه، أجفلت من ملمس إصبعه ولم أمد يدي لآخذ الهدية، كنت أريد أن يظل إصبعه هناك إلى الأبد.. قالت لي: خذيها من عمو.. أخذتها دون أن أنظر إليه، فمسح على شعري مرةً أخرى بحنو، وغادر..

كيف كان شكله؟ وهل كان حقيقيا؟ وكلمات أمي أنها لا تفرق معها الفلوس لكنها أرادت أن أتعلم ألا يضحك عليّ أحد، وكل شيء كان أجمل من أن يكون حقيقيا، هذه المسحة على رأسي، والإصبع القوي الذي أزاح دمعتي من على خدي، هذه الأشياء التي كأن أحدهم حفرها بمطرقةٍ وأزميل في تلافيف ذاكرتي..

هل كان هو أحمد؟ كان يمسح دمعاتي كلما بكيت، يضحكني، ويسب أمي، يقول لي: لا تهتمي بأحد، يكفيكِ أنا.. ألستُ؟ وكنت أومئ برأسي أقول: تكفيني. تكفيني. تكفيني يا أحمد..

هل تذكر أحمد يا أبي؟ ظلمته وظلمتني، لكني أسامحك! بعد هذا الميراث الثقيل أسامحك! وفي كل ليلةِ سبتٍ أستيقظ فزعةً أصرخ مناديةً عليك، وميراثك يثقل كاهلي، يسري في رأسي كحمم بركانية، تتكوم جزرا بائسة في وسط المحيط الدماغي الذي لا يهدأ أبدًا! لم تأتِني في الحلم منذ زمن، هل أنتَ غاضبٌ مني؟ حتى بعد أن سامحتك؟ حتى بعد حملي الأمانة؟

أتعرف ما يحدث لي كلما أردت أن أغتسل؟ أغلق نور الحمام تمامًا، وأستحم في الظلام، لا أريدهم أن يروني عارية! أخجل من ذلك جدًّا، وأنا أسمع مغازلتهم وبذاءاتهم وكلامهم الواعظ أيضًا، ثم أمام مرآة الحمام، أشعل كشافًا صغيرًا أعدل على بؤرته خصلات شعري الأسود، وألمح هذا الوجه الجميل المنمق الملامح، دقيق الأنف وواسع العينين، وهذا الأسى بين الجفنين، ألمح وجها مثل وجهك، وحزنا مثل حزنك، وأرى أيضًا.. دائمًا.. طيف إصبعٍ قوي، يزيح دمعتي التي تسقط كلما نظرت في المرآة.

هل كنت تخجل منهم مثلي؟ أعتقد ذلك! أتذكر تلك الليلة البعيدة جدًّا، النتنة الرائحة كحمارٍ ميت في جانب الطريق...

- أنتَ لست رجلا أصلًا!

- لا تقولي ذلك أمام البنات.

- دعهما يعرفان حقيقة أبيهما!

- اخرسي يا مجنونة!

- مجنونة؟ أنا؟ أنا مجنونة؟ وماذا تكون أنتَ إذًا؟

- لا داعي لهذا الكلام أمام البنات..

- البنات البنات البنات.. البنات التي تحملت لأجلهما خمسة عشر عامًا مع شبيه رجل مثلك؟ أنا فعلًا مجنونة!

- ندى.. رشا.. اذهبا من هنا..

- لا لن تذهبا.. بنت أنتِ وهي ابقيا.. هل سمعتما؟

تنظر لي بعينين يملؤهما الأسى، ودمعةٌ بائسة تسقط من عيني على الأرض ويبدو وقعها على أذني ثقيلا جدًّا..

- بناتك كبرن، أبوكن يا حلوات، ليس مكتمل الرجولة، لا يستطيع أن يرضي أمكما، لأنه يخجل أن يرضيها وهناك موتى يراقبونه!

- خمسة عشر عامًا وأنا أحتمل جنونكَ، وقضاءك الليل بطوله خلف القضايا، أحتمل بُعدكَ وأحتمل انشغالك الدائم...

- أنا أغير العالم!

- ها ها ها.. اسمعن يا بنات، أبوكن يغير العالم! أبوكن الفاشل يغير العالم! وماذا تغير في العالم على يدك؟

- سيتغير يومًا ما، أنا أفعل ذلك لأجلهما، كي تعيشا في عالمٍ أفضل!

وعيناك مغرورقتان بالدموع ترمقني، وأنا قلبي يخفق، يصدقك، يشفق عليكَ، ورشا ترمق الأرض، مضطربة جواري، فأمد يدي لأمسك بيدها، فتجفل وتبتعد عني وجلة..

- ارحمنا يا أخي! غيرك يعيشون في قصور! لو كنت فعلت مثل أصدقائك ما كان ذلك حالنا الآن!

- تعرفين أني لو كنت أريد القصور لما حاشني عنها شيء!

- فالح! وحالنا هذا يعجبك؟ لحسن حظك أن بنتيكَ جميلتان! هذا يجعلني مطمئنة قليلًا!

- أحمد... إن كنتَ رجلا فطلقني!

تهز رأسك، طوال عمري لم أرَ مثل هذا البؤس في عينيك!

- لكن يا منار.. ما بيننا...

- تقصد ما كان بيننا! ما كان لا يعود..

- لكني أحبك!

- والحب لم يعد يبلل عانتي ولا يشتري لي الفساتين!

- لكن...

- طلقني!

- البنات....

- طلقني!

- نتناقش لنحل الأزمة..

- طلقني!

- طيب نبحث عن حل..

- طلقني!

"ندى.. ندى.. أنتِ يا بنتي"

- آه نعم.. ماذا هناك؟

- أبدًا هل لا زلتِ تستحمين في الظلام؟

- هل يضايقك ذلك في شيء يا رشا؟

- مالي أنا؟ المهم أنا أريد منكِ خدمة، أمام القناة هناك مكتبة أريدكِ أن تشتري لي منها مجلة الموضة، أريد أن أشتريها قبل نانا هذا الشهر، لن أدعها تنتصر عليّ كل مرة.

هدف

لم تكن المباراة مذاعة إلا عبر الراديو. كانت مباراة مهمة في تصفيات كأس العالم. وكان معلقا رياضيا لا يعرفه أحد يعلق عليها. صوته يصدح في جميع أنحاء نَهَر، وهو يخبر بتمريرة سريعة مرت من الجناح الأيمن للجناح الأيسر، أو بهجمةٍ مرتدة وتألق لحارس مرمانا، ثم هذا الحكم المرتشي، الذي أتى من دولة عربية شقيقة لا نحبها ولا تحبنا على مستوى كرة القدم، يهمه ألا نصعد لكأس العالم، وهو لا يفهم لماذا، رغم أن العرب إخوة، وأننا لو مكانهم لما حاولنا تعطيل صعودهم..

المباراة مشتعلة والنتيجة تعادل إيجابي، وهذا التعادل بالنسبة لنَهَر نتيجة سلبية تعني الهزيمة والخروج من التصفيات مبكرا. كان يتحدث عن تاريخ الرياضة في نَهَر، ثم بدأ يتحدث عن المارشال، عن عظمته، وعن رعايته للشباب والرياضة، وعن اهتمامه الشديد بالمنتخب وباللاعبين، وبالشباب بوجه عام، وحرصه على أن ينال اللاعبون مستحقاتهم ولو من جيبه الخاص، في سبيل أن يحققوا هذا النصر العظيم لنَهَر.. قال أيضًا إن المارشال بذل جهودا حثيثة كي يتم نقل المباراة عبر الراديو، لأن القمر الصناعي فشل في التغطية، لكنه كي يسعد أبناء هذا الشعب الذين هم جميعًا أبناؤه، أعطى أوامره الصارمة أن يتم إذاعة المباراة بأي وسيلة ولو عبر الراديو، وهذه عادته دائمًا فالمارشال..... هدف! هدف! هدف لنَهَر.. كم أنتَ رائع يا مارشال! كم هو جميل وجهك! إن نَهَر كلها تهدي الفوز لسعادة المارشال المفدى!

كانت الجماهير العريضة تهلل فرحة، يحتضنون بعضهم البعض، ثم خرجت مسيراتهم في الشوارع، يرفعون علم نَهَر، وصور المارشال، ووسط ضجيج أبواق السيارات، وصخب الفرحة، تعالى صوتهم يغنون أغنيات في حب المارشال!

عرف المارشال بما حدث، كتبت عنه الصحف في الصباح: المارشال وجه الخير، سبب فوزنا في المباراة المهمة! المارشال المبارك تحل بركاته على المنتخب! رجل الله العادل الهمام الذي يسهر لأجل راحتنا جعلنا كلنا سعداء ليلة أمس..

سأل المارشال عما يحدث، أخبره مساعده الخاص فقال: إنه ولد رائع بحق، الهدف جاء قبل كلامه بأربع دقائق، لكنه تجاهله وأخذ يتحدث عن عظمتكم، ثم أعلن الهدف بعدها! ضحك المارشال راضيا جدًّا، قال: ائتوني به!

في الأيام التالية، صدر أمر رسمي من المارشال نفسه، أن جميع مباريات المنتخب القادمة لن يعلق عليها سوى هذا المعلق!

- أنتَ تصورني بصورةٍ سيئة فعلًا، مرعي مثلًا هذا المعلق الرياضي، هو مجتهد لذا يستحق النجاح، ما الذي يضايقك؟

- أنا لستَ متضايقا على الإطلاق!

- فعلاً؟

- فعلًا!

- لماذا تكتب إذًا؟

- كي أخبر الناس بالحقيقة!

- وهل تعرف أنتَ الحقيقة؟

- وهل تعرفها أنتَ؟

- أنا الذي سألت!

- وأنا الذي أكتب!

- ستغير كلامي إذًا!

- لا! والله بصدق سأكتبه كما تقوله بالضبط!

- عظيم.. اكتب إذًا أني – أنا المارشال المُفدى – أقول لكَ يا كاتب، إنك أحمق وفاشل أيضًا!

- سامحك الله!

- هل كتبت؟

- نعم!

- عظيم جدًّا!

- ممكن أن تصمت قليلًا أريد أن أكتب شيئًا غير كلامك!

- أتحفنا!

رسائل

" عزيزي الله..

بعد خصامك؛ أؤمن بكَ لأني لا أجد شيئًا آخر أفضل أفعله، لتتحقق العدالة في هذا الكون، ولكي لا تفقد الأشياء معناها! يقول كاتب إسباني لا أذكر اسمه: أؤمن بالله لا من أجله ولا من أجلي، بل من أجل من يؤمنون به. لكنني أختلف معه، أنا أؤمن بكَ لأجل الذين يعانون، ألا تراهم؟ تراهم حتما، ولا أفهم فعلًا كيف لا يثير ذلك غضبك إلى حد أن تخسف الأرض بظالميهم، ثم أوليس أنتَ – أنتَ وحدكَ – من خلق هذا البؤس؟ لماذا خلقته؟ هذا هو السؤال الحقيقي، لماذا خلقت إنسانا يعذب إنسانا آخر؟ ولماذا خلقت وسائل تعذيب وشيطان؟ ما الهدف من ذلك كله؟

أؤمن بكَ غير إيمانهم، تعرف طبعا هاته الفتيات السخيفات اللاتي يتغنين بحبكَ، لأنهن يفيض لديهن مشاعرَ وعاطفة لا يعرفن كيف يصرفنها فيتشبثن بحبكَ حتى يجدن الفتى الذي ينسينهن إياكَ.. لا أحبكَ مثل حبهن. ولا مثل حب الدرويش لاحس

القبور المدعي ولا حتى مثل حبِ الصوفي الزاهد المعتزل في صحراء قرب واحةٍ هادئة، ظمآن لرؤياك.. أنا أراكَ دائمًا، أعرفك، لا أحتاج لعزلةٍ كي أصل إليكَ، أجدكَ دائمًا معي في كل لحظة، تحوطني، أجول في الشوارع محاطًا بكَ فكأني أسير فيكَ، لا أعرف ربما ليست العلاقة بيننا ربا وعبدًا، نحن أصدقاء بشكلٍ ما، تفهمني دون أن أتكلم، وتحميني من أشياءٍ شتى لا أعرف من أين أتتني، هل خلقتَ هذه الأشياء كي تجعلني أدرك حمايتكَ لي؟ ربما من قوة علاقتنا، لم يعد هناك داعٍ للصلاة أو الصيام أو هذه العبادات كلها، هذه العبادات أصلًا لا علاقة لها بالرحمةً على الناسِ والبر بهم، صحيح؟ لكني أحبكَ جدًّا، أتذكر ليالٍ طويلة أناجيكَ فيها، لا أثني عليكَ ثناءَ الصوفيين ولا أنزهك كشيخ مقطب الحاجبين فوق منبر، ولا أتكلف عناءً كهاته الفتيات السخيفات، كنت أتكلم معكَ بهدوء وأقول كل شيء بوضوح، لم أخجل من شيء، ولماذا أخجل من أي شيء وأنتَ معي دائمًا وتعرف كل شيء!

عندي سؤال؛ أنتَ تراقب الناس دائمًا، فلماذا خلقت لنا مَلكين فوق أكتافنا؟ كي يكتبا ما نفعل؟ وما الذي سيفرقه؟ إن كنا نعلم أنك تراقبنا ونؤمن به، فما الذي يضيفه ملكان على الكتفين؟ هل ليكونا حجةً علينا؟ لا أفهم! ألا يكفي أن تعترف علينا أطرافنا وأجسادنا؟ ألا تكفي مراقبتك الدائمة؟ أم أنكَ تخشى النسيان؟ وهذه المراقبة الدائمة التي لا تغفل ألا تمل منها؟ ثم أو لست أصلًا أنتَ من كتب أقدارنا؟ فعلامَ تحاسبنا؟ سامحني إن تجاوزت، لكنا اتفقنا أن نتحدث كأصدقاء! أن ترى الناس هكذا دائمًا ولا تغفل عن أحد، يعذبون بعضهم بعضا، ويقتلون بعضهم بعضا، ويسرقون بعضهم بعضا، ويعانون، يذبحونَ المتحابين بخناجر الكراهية، ويصلبون الشعراء.. آه على سيرة الشعر، هل شكرتكَ يومًا على هذه الهدية؟ لا أتذكر، لكني أعرف أنكَ لا تنتظر شكري، لا شكر بين الأصدقاء.. أليس كذلك؟ لكني أريد منكَ شيئًا آخر.. أنا أكاد أجن وأنا أرى كلماتي تذوب كقطرات في بحر ولا تملك له شيئًا، هل لكلماتي أي تأثير؟ لماذا منحتني هذه الهدية إن كانت لن تؤثر في أي أحد؟ أهكذا يُحمِّل الصديقُ صديقه؟ هذه الأعباء المضنية والمرهقة جدًّا وكل هذه الحروف الثقيلة في الرأس وداخل القلب.. إن كان هناك شخصٌ واحد تغيره كلماتي فدلني عليه، ساعتها سأشعر أكثر بقيمة هديتكَ، ولن أردها إليكَ شاكرًا..

لم أطلب منكَ أن تقاطعني! طلبتُ منكَ طلبا آخر وقلتُ لك: هذه المراقبة المستمرة ترهقني! أجري في الشارع هربا منها وأنثني وأنحني وألف يمينا ثم يسارا وأدور يمينا وأقفز يسارا، ولا فائدة، هل تتوقف عنها لحظةً من أجلي؟ لقد أتعبني ذلك جدًّا، أينما ذهبت كان الملكان فوق كتفيّ، يكتبان ضحكاتي وهمساتي وزفراتي، في أي جنب؟ حتى رمشة عيني يكتبانها! كل الحركات محسوبة، هل الضحك لي أم عليّ؟ أم عليّ أن أظل عابس الوجه كارها الدنيا؟ أتعبني ذلك جدًّا، وكلما هربت من هنا لهناك وجدتكَ هنا وهناك، هذا مرهق جدًّا، أحيانًا نحن نريد أن نعتزل حتى عن أصدقائنا، أنتَ تعرف ذلك خيرا مني! لكن هذا لا ينفي أبدًا أنّا نحبهم، وأنا أحبك، أحبك جدًّا، ولا أعرف كيف لا يرى الناس وجهك الجميل المنير كما أراه أنا! أسمعهم يلهجون بالدعاء أن يروا وجهكَ الكريم، وأحبكَ أكثر أن قربتني منكَ لهذه

الدرجة، لا أقول لهم خشية أن يحسدوني، ربما حاول أحدهم أيضًا أن يفسد ما بيني وبينك! أولاد الحرام كثير كما تعلم! لماذا خلقتهم؟

آه.. ندى.. هل غضبتَ منا؟ أنا كنت أحبها، لا أنكر أني ربما فقط كنت أستعيض بها عن ليلى، لكن الزواج طبقا للمعايير البشرية التقليدية، المتمثلة في مهر وشقة وشيخ بعمة وورقة وأختام وبصمتين؟ حاولت الزواج من ليلى ومنعني الناس.. حاولت أن أرضي الناس، كي لا يقولوا أن علاقتي بكَ هي من جعلتكَ تتجاوز عني، لم أشأ أن أضع نفسي وأضع صداقتنا في هذا الموقف السخيف، لكن هؤلاء الناس الملعونين أصروا.. أصروا حتى الثمالة.. يبعدون بيني وبينها بكل الطرق يا صديقي، وأنا أحببت هذه الفتاة، ليلى أم ندى؟ تسألني وأنتَ خير من يعرف الحب، لأنكَ وحدكَ من يعرف الروح! وأنت خلقت فيّ شيئًا وفيها شيئًا يتجاذبان حتى قبل وبعد الموت! فلماذا سمحت لهؤلاء الملعونين أن يبعدوننا عن بعضنا؟ لماذا علينا أن نتعذب وأن نبتئس في هذه الدنيا؟ ألا راحة أبدًا هنا؟ فلماذا جئنا أصلًا؟ لماذا علينا أن نعاني! أيرضيك هذا؟

هل لأجل ندى تخاصمني؟ صدقني سأحزن فعلًا إن كان هذا هو السبب! لم أعد أجدكَ حولي، ولا أعرف سببا لذلك، أنا فقط أحبها وتحبني وفعلنا ما هو طبيعي وخلقتنا لنفعله، لكن كل ما هنالك أنه دون ورق أو أختام.. هل يهمك الورق والأختام أنتَ أيضًا؟ هل أنتَ مثل الناس تريد أختاما وأوراقا كي تجيز الحب؟ وحين أطلب ذلك ترفض وتبعدني عنها؟ لم أكن أعرف صدقني! ثم أو لم أهرب منها في النهاية؟ ألم يرضكَ ذلك؟

أم تخاصمني لأجل نضال؟ وماذا كان عليّ أن أفعل له؟ أنتَ تعرفني خيرا مني! ثم أنا الذي يجب أن أخاصمك في هذا الموضوع، لأنكَ أصلًا خلقت كل هذا وسمحت بوجوده، لماذا تركتهم يذبحون في هؤلاء المساكين ويهتكون أعراضهم (هل جعلوا الرجل المسكين ينكح ابنه فعلًا؟) ويعرونهم هذا العري البائس، ويحطمون كل شيء جميل خلقته داخل أرواحنا؟ لماذا خلقت أرواحا بهذا الفساد وهذه العربدة وكل هذا المرض. لا أعرف ما الذي فعلوه مع نضال، لكنه بالتأكيد سيكون صيدًا لطيفا لهم بجسده السمين، سيقطعونه حيا، وسيهزل، وأنتَ تشاهده، لا أعرف كيف تحتمل أن يحدث ذلك لأصدقائك! أحاول أن أتناسى كل يوم وأفشل. أرأيتَ بعد كل هذه الأيام؟ حقي أنا أن أخاصمك! لكني لن أفعل، لأني أحبكَ، لكن لا تخاصمني أنتَ أيضًا، فلم يكن ذلك طلبي! الآن أجول في الشوارع وحيدًا دونك، هنا في البلد الغريب، في عزلةٍ اخترتها أو فرضت عليّ هربا من كل شيء، عزلةٌ معرضٌ فيها للموت كل يوم ألف مرة، أو ليس هذا دليلا على أني أشتاق للقائك؟ لا أحتاج للموت كي ألقاكَ، لكن ربما الموت سيجعل لقيانا في مكانٍ أفضل.. أنتَ هنا ضيفٌ عندي، وهناك سأكون ضيفا عندكَ، أعرف أنك صاحب الهنا والهناك، لكن بشكلٍ ما هنا عندي وهناك عندكَ.. تفهمني صحيح؟ ومن يفهمني غيرك أصلًا؟ لا تخاصمني، أرجوك.. عد حولي وفي معيتي كما كنتَ دائمًا لي، إن ما بيننا لا يزول بهذه السرعة.. ولو كان حبي لليلى هو ما أغضبك مني، فليلى بعيدة مثلك، ولو أن حبي لندى وسباحتنا في ملكوت العشق الذي خلقته للإنسانية، هو ما يغضبك مني، فها أنا هنا وحيدٌ دونها

فلا تردني خائبا.. وإن كان غير ذلك فأنا أنتظرك في حلمي، الذي لم تعد تأتيني فيه، أنتظركَ في حلمي كالأيام الخوالي كي تخبرني بما يغضبك.. ولو على المراقبة فأنا فقط قلت لكَ أحتاج للحظةِ راحةٍ تكف فيها، أنتَ وملكاكَ، عن مراقبتي، لكن إن كان ذلك أغضبك، فلتعتبر أني لم أقله، وامنحني الراحة كما تراها.. أكثيرٌ هذا على صديق؟

المخلص دائمًا/

نادر

5 - 2 - 2005

الثانية صباحا "

هكذا كنتُ أتخيل

بالليل مرّ نادر على بيتهم القديم، إن تزوجتها سأعتبر ابني قد مات! كان الرجل الذي يدفع له قسط السيارة جارًا قديما له، سأتزوجها يا أمي! في تلك الحارة الصغيرة، اشترى منه سيارته مستعملة بقسط مريح، بعد الترقية إلى قسم الأخبار أخيرًا من القسم الثقافي. كانت خطوة جميلة جدًّا طالما حلم بها هو وليلى.. ليلى.. كان بيتها هنا.. في آخر الشارع.. البيت التي فيها صاحب "الأجانص" الصغير.. كان "الأجانص" وقتها محل بقالة، طالما اشترى لها منه بارات الشوكلاته التي تحبها، وهو ينتظرها تحت البيت، الشارع كله، العالم كله، كان يعرف أن نادر يحب ليلى، وليلى تحب نادر..

بيتها كان صغيرًا، ثلاثة أدوار فوق بعضها ملكا لأبيها، ونادر وأسرته يسكنون في أولى العمارات في الشارع في الدور الخامس في شقة بالإيجار.. إذا ابني مات.. كل الذكريات تعود ببطء شديد، شديد جدًّا، لا تنهمر كشلال كما كان يتخيل أنها ستفعل، كل شهر حين يأتي لدفع قسط السيارة، ويمر على بيته وبيتها اذهب ولا تعود تزوجتها أم لم تفعل! تنتابه ذكرى واحدة أو أكثر، لكنها تختلف عن الشهر الذي سبقها.. لماذا هذا الأجانص بالتحديد يا نادر؟ لأنه جارٌ قديم! أحقا؟ تسألني وأنت أعلم بحالي؟ آه.. يخرج من بيتها صوت الكمان، كأنها هنا تعزف لا تزال، وكأن أعواما وأعوام لم تنقضِ وأناسا لم يموتوا وحبٌ جديد لم يولد.. وهل هو حبٌ فعلًا يا نادر؟ تسألني وأنتَ أعلم بحالي؟ ليلى.. اسمها الجميل المتناسق النغم مثل عزفها على الكمان، تشبه الأسبان، بلونها القمحي القريب من الذهب، وملامحها الغجرية وعينيها المليئتين بجنونٍ لا حد له.. وجنتاها تحمران لأقل سبب، وكان يسعده جدًّا هذا التورد فيهما كلما جاءها بقطعة من الحلوى، كم قصيدةٍ كتبها في وصفها؟ كثير جدًّا.. وكأن القصائد تكفي كل هذا الحب الذي كان بينهما! ينتظرها أسفل البيت، وتنزل له ركضا على السلم، تكاد ترتمي في حضنه حين تصل إليه، تتشبث بذراعه، ويتعانق كفاهما بعمق وتهمس في أذنه: وحشتني.. يا الله! لمَ حرمتني من كل هذا؟ أيرضيكَ أن تتشبث هي الآن بذراعٍ أخرى؟ وهل تفعل ذلك هي فعلًا؟ ذراعٌ أخرى يا ليلى؟ ذراعٌ أخرى؟ هان عليكِ ذراعي؟ قد مات بعدك، مات تمامًا..

هل تذكرين؟ في تلك الأيام البعيدة، حين خرجنا سويا والسماء تنبئ بأمطار ثقيلة، قلتُ لكِ سنسافر لرأس البر.. أنتَ مجنون! أجبتِ. التفتُ لكِ بوجهي، وأنا لا أعرف إن كان معنى ذلك رفضا للفكرة أم قبولا، فوجدتُ ذات البريق المجنون الذي عشقته في عينيكِ، وأنتِ تكملين: وأنا أحب جنونك! خرجنا إلى الموقف، لا أحد تقريبا يفكر بالذهاب إلى هناك في هذا البرد، فما بالك بليلةٍ مطيرة مثل هذه؟ هيا هيا.. سنأخذ السيارة كلها يا أسطى! نادر.. هذا تبذير.. هل تتخيلين كم سنحتاج من الوقت كي ينتهي من تحميل الميكروباص؟ ضحكتِ: أعرف أنه لا مجانين غيرنا سيذهبون أبدًا الليلة! لم يكن في السيارة غير خمسة غيرنا، ضحكتُ وقلت للسائق: توكل على الله! وما كاد السائق ينطلق، حتى صرختِ توقف توقف.. ثم نظرتِ لي بوداعة: أريد الكمان معي! قلت حسنا هل يمكنك يا أسطى أن تأخذنا إلى شارع ... سنحضر شيئًا فقط.. حدد أجرة إضافية ولم يمانع الناس، ولم تقولي هذا تبذير يا نادر كالمعتاد.. أحضرتِ الكمان وانطلقنا.. كنتِ ترتدين سترة وردية اللون بدون أكمام، فوق بول أوفر رصاصي اللون، وكنت أنا أرتدي بول أوفر وردي اللون تحت سترة رصاصية دون أكمام، كنتِ اشتريتها لي هدية يومًا ما.. لا أزال أذكر يومها، كنا نجول في المحلات، وقلت لكِ إني أحب هذا النوع من الجواكت، وأتمنى أن أشتري واحدا، لكني لا أملك المال الكافي لأنها غالية قليلًا.. دخلنا محلا وأعجبني واحدًا بعينه، وحين خرجنا قلتِ لي فجأة إنكِ تريدين أن تشتري الكريم كراميل وتعودين للبيت، شعرت بشيء غريب، لم تفلحي في الكذب عليّ يومًا، عيناكِ تفضحانكِ دائمًا، أو هكذا كنتُ أتخيل! قلتُ لكِ وقد توقفنا في منتصف الطريق: هل تريدين الذهاب للبيت لإحضار ثمن الجاكت؟ احمّر وجهك خجلًا، لأني حرقت المفاجأة ولأنك تحبينني، أهكذا كنتُ أتخيل أيضًا؟ قلتِ لي: أنتَ رخم! ضحكتُ: أحبك يا مجنونة! وأنا أموتُ فيكَ! ثم اتفقنا أن تشتريه لي وأنا سأتصنع أني لم أكن أعرف شيئًا، ضربتِني على كتفي تتدللين وقلتِ: رخم! أمسكتُ يدكِ وقبلتها، واختفى العالم ساعتها، أهكذا كنتُ أتخيل؟ وانطلقنا لرأس البر، هذه الجزيرة التي يلتقي عندها بحرٌ ونهر كما يلتقي حبيبين، في حضن دائم أبدي، لا يفرقهما شيء، لكنّا كنا بحرين لجيين مليئين بالأفكار المرجانية المجنونة البراقة والمخيفة في آن.. بدأ المطر في الطريق، وأبرقت السماء وأرعدت، بدأت أفكار متشائمة تنتابني، هل سنجد مواصلات للعودة؟ وإن لم نجد هل سنستطيع البيات هناك؟ ثم بدأت أستلذ الفكرة! ياه لو نبيت هناك، لو نختفي عن العالم تمامًا ليلة واحدة! ليلة فقط! والفندق؟ سيطلبون قسيمة زواج، وسين وجيم ومن هي وماذا تفعلان هنا في هذا التوقيت، ربما سيمد أحدهم يده من تحت الطاولة ليأخذ خمسين جنيها، متخيلا أني أحضرت فتاة من بيت رخيص وأريد من يهيئ لي ليلة.. طبعا لو فعل أحدهم ذلك سأحطم أنفه، وأصرخ هذه زوجتي يا ابن الكلب، لكن خشيتُ أن يجرحها ذلك، مجرد تفكيره فيها بسوء، ودون انتباه مني، قبضت على يدها برفق، كانت باردة، فمنحتها بعضا من دفء يدي، التفتت لي وقد كانت تتأمل البرق في النافذة، ابتسمت، قلت: لا تخافي، فاتسعت ابتسامتها ومالت برأسها على كتفي، كنا نتهامس حين توقفت السيارة على جانب الطريق، نزل السائق اللعين ومثّل أنه يتفقد العجلات، ثم جاء جوار نافذتها ونظر سريعا ثم عاد لكرسيه، ونظر لنا في المرآة الخلفية، قائلا إنها سيارة محترمة

وليست لوكاندة! لم أفهم لمن يوجه حديثه، وهي أيضًا، فحدد كلامه أكثر، وقال: الأخ والأخت اللي عايزين بطانية اتظبطوا في القعدة، أنا مش فاتحها لوكاندة! لم يكن هناك أخت غيركِ! احمّر وجهك، واحمّر وجهي، كأنه صفعني ابن العاهرة! قلت له: وأنتَ شايفنا بنعمل ايه يعني؟ قال: أنا مقلتش بتعملوا حاجة، أنا بقول اقعدوا عدل! قلت: واحدة ونايمة على كتف خطيبها فيها ايه أنا مش فاهم! كان الناس ينظرون نحونا صامتين، كأنهم في سيارةٍ أخرى، عالم آخر، وكنت لا أعرف ماذا أقول، وعدلت هي من وضع رأسها، انطلقت السيارةً بعد كلام يحمل مائة معنى مهين، لكن شيئًا ما قد نما بيننا جاثما كوغد صغير يشد شعَر يدي ويلسعني، ويقرصها في رسغها. بهدوء تسللت يدها من يدي، وبدا صوت قطرات المطر غليظا كدوي الرصاص. تخيلت ألف رد كان من الممكن أن أرد بها على هذا الوسخ، وكنتُ أشعر بضيقٍ هائل أني لم أفلح في الرد عليه والدفاع عنا، كنت مهزوما، وحتى خيالاتي لم يكن لها معنى وقد كانت هزيمتي أمامها! لما وصلنا ونزلنا، رمقني ورمقته بنظرة طويلة، متحدية ربما، لكنها باردة جدًّا، أمسكتِ بيدي كأنكِ تعرفين علامَ أنتوي، وقلتِ هيا، سيفوتنا المطر عند البحر، قلتِها بصوتٍ فاتر، فعرفت أن ليلتنا الجميلة قد هلكت دون بعث، قلت لكِ هو يحتاج أن يتأدب، قلتِ إنه يفكر مثل كل الناس، لا أفهم لو كنت مع مصطفى أخي، كنت سأضع رأسي على كتفه أيضًا! ألستَ تفعل ذلك مع مروة أختك؟ قلت نعم! لكنه سائق حيوان يفكر مثل الحيوانات أمثاله! قلتِ دون اقتناع: دعنا لا نفسد ليلتنا الجميلة، فأكدت على كلماتك وقلت: سأجعلها لكِ ليلةً لا تنسى، بدا شبح ابتسامة على شفتيك فتشجعتُ، تمشينا قليلًا والمطر كان قد توقف، كان هناك ورود مزروعة في أحواض على جوانب الممشى، فقطفت لكِ وردةً بيضاء، ووصلنا لمقهى أحبه يطل مباشرةً على البحر، كان الليل حالكا، والهواء شديد البرودة، لحسن حظنا كان المقهى مفتوحا، وطبعا كان خاليا تمامًا.. هل تذكرين كراسيه الصفراء؟ هاها.. لقد وضعناها قرب البحر تمامًا، وخلعنا أحذيتنا، وتركنا الماء يلاعب أطراف أصابعنا، كان فتى المقهى ينظر لي بابتسامة يبدو الخبث فيها ضعيفا، شعرتُ أنها ابتسامة حقدٍ أكثر منها خبثٍ، لم يكن خياله حتما يصور له أننا جئنا من سفر لنشرب كوبين من الكركديه الساخن ونتأمل المطر عند البحر! ربما حسبنا عرسان جدد أو من سكان المدينة القليلين.. جاء الكركديه بعد قليل، وكان البرق يتشكل شجيراتٍ وأسهم وأقواس ووجوه في السماء وفي البحر. ينير ألف برق، فتحترق النجوم، ويدوي صراخها رعدًا واحدًا موجعًا. كنا نرتجف من النشوة، ونحن نرمق سفنا بعيدة دلنا عليها لمباتٍ صفراء منيرة فبدت كنجوم بعيدة، لا يطولها البرق. وقلنا يا الله ماذا يفعلون الآن؟ هل تذكرين موسيقى Yanni كان اسم المقطوعة November Sky لن أنسى أبدًا! كنت أحمل معي راديو صغيرًا وضبطناه على موجة الأغاني الأجنبية، وبعدها عرضوا مقطوعة أخرى له اسمها Until the last moment وكانت جميلة جدًّا، تذكرين؟ في منتصفها سقط الراديو على الرمل وكاد البحر يبتلعه بسبب المد والجذر! لا أعرف كيف ظل يعمل بعدها، وظلت الموسيقى هكذا ترن في آذاننا! هل تذكرين المد والجذر؟ حين غرق كرسيانا في الماء وصرنا تقريبا جالسين في البحر، وكادت أحذيتنا تغرق لولا أن لحقناها بعصا؟ أخرجت الكمان وعزفتِ وأنت تتأملين وقلتُ

لكِ إنهم في إيطاليا يلوحون لك ويصفقون لعزفك هل ترينهم؟ وضحكتِ ضحكة صافية، وأنت تتمسكين بكوب الكركديه بكلتي يديكِ الجميلتين، وتقربينه من وجهك ليدفئك البخار الخارج منه، أمسكتُ الزهرة البيضاء ووضعتها خلف أذنك من أسفل حجابك، نظرتُ حولنا، ولم يكن هناك غير البرق والبحر والعتمة، فملت على وجهك وقبلت وجنتك، ضحكتِ وقلتِ والله مجنون، أكان كل هذا خيالا يا ليلى؟ هل تفعلينه الآن مع رجلٍ غيري؟ بهذه البساطة؟ وصلتُ لجارنا القديم، أعطيته قسط السيارة، وتركت الشارع دون أن أمر جوار بيتي القديم ملتحفا بظلام الليل وأبواق السيارات، علها تخفي صوت الكمان الذي لا زال يرن في أذني وصوت ضحكتكِ الصافية.

- كذب!

- ماذا؟

- لم يكن هناك كمان، هي لا تعرف العزف!

- من هي؟

- التي تكتب عنها!

- ..... ألا تستطيع أن تخرس؟

- ثم هذه الأغنيات لم تكن قد صدرت بعد!

- أنا لستُ مؤرخا!

- لكن يجب أن تتحرى الدقة فيما تكتب!

- لا شأن لكَ!

- هيء هيء.. فاشل!

أثقل من أن يُقال

- مرحبًا..

- مرحبًا..

- مرحبًا..

- من أين أنتم؟

- نحن من غزة.. وأنتم؟

- نحن من نيويورك.. وأنتم؟

- نحن من برلين..

- أهلا..

- أهلا..

- أهلا..

- كيف جئتم هنا؟

- هم أحضرونا!

- نحن لم نفعل شيئًا!

- بل أحضرتمونا!

- وأنتم أحضرتموهم!

- نعم أنتم أحضرتمونا!

- لا نحن لم نفعل شيئًا!

- بل أحضرتمونا!

- وأنتم أحضرتموهم!

- نعم نعم أحضرتمونا!

- لا نحن لم نفعل شيئًا!

- بل أحضرتمونا!

- وأنتم أحضرتموهم وهم أحضرونا.. خالصين!

- هاي.. أنتِ.. كيف تجمعيننا مع هؤلاء المغضوب عليهم والضالين؟

- نعم باسم الصليب كيف تجمعينا مع هؤلاء الملاعين!

- هل تعادين السامية يا حلوة؟ هتلر مات من زمن ولا أحد يستطيع أن يؤذينا الآن!

- سامية؟ يقولون سامية؟ هيء هيء.. سامية جمال! يا صهاينة يا ملاعين!

- يا أبناء البدو والرعاع!

- إن بلادنا ستنشر الحرية في العالم وتقضي على المتطرفين أمثالكم!

- هيء هيء..

- هيء هيء..

- علامَ تضحكون يا أبناء الزنوج!

- هيء هيء.. حرية فعلًا! ومالهم الزنوج يا أمريكي؟

- قد يدخل زنجي الجنة أما أنتم فمكانكم النار وبئس المصير!

- هيء هيء.. باسم المسيح سندخلها طبعا!

- إن كان المسيح لا يملك لنفسه أن يدخلها فهل تملكون أنتم؟

- يا أبناء العاهرات لا يدخل الجنة غير يهودي!

- تأدبوا وإلا جئناكم بهتلر!

- تستحقون ما فعله فيكم المسلمون!

- وماذا تفعلون أنتم بنا غير ما فعله هتلر بكم؟

- نعم أنتم تستحقون ما فعله فيكم هتلر!

- وأنتم تستحقون ما فعلناه فيكم!

- ها لقد اعترفتم!

- اعترفنا بماذا؟

- بما فعلتموه فينا!

- نحن لم نفعل شيئًا!

- بل فعلتم أنتم تستحقون السلخ أحياء!

- لماذا لا تتركوننا نعيش في سلام؟

- نعم لماذا لا تتركوننا نعيش في سلام؟

- لا سلام حتى ترجع الأرض!

- هذه أرضنا المقدسة! ملكنا نحن شعب الله المختار!

- هيء هيء

- هيء هيء

- أهلا.. فلتضحكونا معكم!

- من أنتم؟

- نحن من نَهَرْ!

- لا أهلًا ولا سهلًا بالخونة أصحاب المعاهدة مع الصهاينة!

- لا معاهدة ولا يحزنون! نحن لم نفعل شيئًا!

- نعم أنتم لا تفعلون شيئًا وتغلقون المعابر وتتركوننا للموت!

- هيء هيء.. هكذا العرب دائمًا!

- اخرسوا يا يهود!

- نعم اخرسوا يا يهود!

- يهود؟ أين هؤلاء اليهود؟

- ومن أنتم؟
- نحن من أفغانستان!
- لا أهلًا ولا سهلًا أنتم من فجرتم بنا البرج يا إرهابيين!
- أي برج؟ أنتم من قتلتم أبناءنا ودمرتم بلادنا!
- هذا ليس الإسلام يا أخ أنت وهو!
- ومن أنتم لتتكلموا عن الإسلام؟
- نحن من نَهَرْ بلد الأزهر!
- هيء هيء تقصد بلد شيوخ السلاطين!
- هيء هيء معكم حق! هم كذلك فعلًا!
- اخرسوا يا من بعتم فلسطين!
- أهلا.. فلتضحكونا معكم!
- من أنتم؟
- نحن من البوسنة!
- أهلا يا إخوة الإسلام.
- من أين أنتم؟
- نحن من غزة!
- أوه لا زلتم حديثي العهد بالموت!
- نعم! ضربنا في قصف المدينة أيام الانتفاضة.
- لا أحد أحدث منا بالموت فيكم.. نحن قُتلنا في 11 سبتمبر الماضي!
- لا! بل لا أحد أحدث منا بالموت فيكم.. نحن قتلنا في السوق أمس!
- أما نحن فمتنا من زمن بعيد نحن أقدم الناس هنا.. منذ أيام الحرب العالمية!
- الأولى أم الثانية؟
- نحن ألمان!
- إذًا فلتختبئوا لقد جئنا!
- من أنتم؟
- نحن روس! أهلا بالمهزومين!
- أهلا أهلا.. أنتم من هزم هتلر!

- لا أهلَا و لا سهلَا أنتم من ذبحتم المسلمين في الشيشان!
- نعم لا أهلًا و لا سهلًا أنتم من ساعدتم الصرب!
- لا نحن لم نفعل شيئًا! لقد تعفنا في معتقلات سيبريا!
- بل أنتم الشيوعيون أنجاس العالم تريدون دمار حضارتنا!
- يا أمريكان يا ملعونين نحن أسيادكم!
- أنتِ لماذا جمعتنا مع هؤلاء الأوساخ؟
- نعم.. لماذا جمعتنا مع هؤلاء الأوساخ؟

سألوا جميعًا: لماذا جمعتنا مع هؤلاء الأوساخ؟!

- ملاعين!
- كفرة!
- يهود!
- عرب!
- إرهابيون!
- شيوعيون!
- رأسماليون!
- أنجاس!
- ملاعين!
- كفرة!
- يهود!
- عرب!
- إرهابيون!
- شيوعيون!
- رأسماليون!
- أنجاس!
- ملاعين!
- كفرة!
- يهود!

- عرب!

- إرهابيون!

- شيوعيون!

- رأسماليون!

- ملاعين!

- كفرة!

- يهود!

- كفى كفى كفاااااااااااا

- ما بها هذه المجنونة؟

- فعلًا.. ما بها هذه المجنونة؟

- حقًّا.. ما بها هذه المجنونة؟

- نعم.. ما بها هذه المجنونة؟

- هاي.. يا مجنونة!

- يا مجنونة!

- مجنونة!

- مجنونة!

- مجنونة!

- مجنونة!

- مجنونة!

- مجنونة!

- مجنونة!

- مجنونة!

- مجنونة!

- مجنونة!

يغنونها جميعًا: مجنونة.. مجنونة.. مجنونة.. مجنونة.. ويصفقون بأيديهم!

- يا أغبياء أنتم موتى! موتاااااااا! ألا تستطيعون العيش في سلام حتى كموتى؟

- هيء هيء.. تقول سلام!

- هيء هيء ليس سلام هو المضحك لكن أن نعيش!

- وإن لم نتعارك كيف سنعيش؟

- نعم سيكون شيئًا مملًّا جدًّا!

- نحن هكذا نعيش يا حمقاء!

- نعم! ما الذي يفرقه موتى أم أحياء؟ المهم أن نتعارك! صحيح؟

أجابوا جميعًا في صوتٍ واحد مدوٍّ: صحيح!

- إذًا فلأموت أنا!

كانت تقف على سور الكوبري المطل على النهر العظيم، تتأمل صفحة الماء، رفعت قدميها تتسلق السور القصير، وقفت فوقه، رفعت ذراعيها كسباحة محترفة، ترددت، كادت تتراجع إلى الوراء، لكن نادر دفعها فسقطت من فوق الكوبري، والماء يقترب ببطء، وتشعر أنها في هبوطها هذا تدور حول نفسها والماء يقترب، والأصوات لا تهدأ، يغنون، ويصفقون بأيديهم: مجنونة.. مجنونة.. مجنونة.. مجنونة.. مجنونة..

تصرخ باسم أحمد، هل تقصد أباها أم فارسها الوهمي؟ تصرخ تصرخ، والماء يقترب، وهم يغنون، ثم يصطدم رأسها بالماء، فتنتابها رجفة شديدة، وتزول كل الأصوات، تصطك أسنانها بشدة، ويكاد قلبها يتوقف، لكن لا شيء مثل دش بارد قادر على القضاء على أصواتهم!

تستحم سريعا.. اعتادت هذا الدش البارد، كلما أصابتها أصواتهم بالخبل، تركض من مكانها، نحو الحمام، تدخل البانيو، وتوارب الباب لأنها أبدًا لا تفتح النور، تفتح الماء البارد على أقصاه وهي لا تزال بملابسها، آه.. لو أن إلقاء نفسي من فوق الكوبري سيجدي!

تتنهد: آه.. يا أبي المسكين!

تخرج من الحمام، ترتدي فستانا أسود أنيقا، ثم تذهب إلى محل الورد الذي تذهب إليه كل جمعة، وتشتري ثلاثين زهرة بيضاء كالمعتاد، لكن أمها توقفت عن سؤالها المعتاد: إلى أين؟ فهي لم تكن تجيب، لأن الإجابة كانت أثقل من أن تقال!

مسرحية

يصطحبني ليريني المسرحية. أقول له: لكنا لن نبدأ من ذلك. يسألني: من أين سنبدأ إذًا؟ أفكر قليلًا، أقول: سنبدأ من البداية. يضحك ساخرًا: لا يا رجل لا تقل ذلك، سنبدأ من البداية؟ أقول متجاهلًا: سنبدأ بنور ومحبوبته، سنبدأ بالحب. يقول: يا دي الحب! ألا تمل؟ أقول: أنتَ لا تفهم، الحب جزء من المسرحية الهزلية هذه! يقول: معقد! أتناول الأوراق والقلم، وأقول له: رجاءً خذ مكانك هيا. يهز رأسه غير راضٍ ويقوم، يذهب إلى المسرح، ثم يدخل خلف الكواليس، ويسود الصمت وضوءٌ باهت يأتي لينير الصالة والستارة مغلقة عن المسرح، أمسك القلم وأبدأ:

تَفتح الستارة عن نفس المنطقة إياها الفقيرة والدكاكين والبيوت المتلاصقة، وعن الناس الثابتين كأصنام. الديكور صخري قليلًا كصخور القلاع القديمة البيضاء الجيرية، وعلى اليمين تمامًا شرفة صغيرة، بسورٍ حديدي متوسط الطول، وتقف فيها فتاة ترتدي فستانا أبيض بحمالتي كتف، ذا وردٍ حمراء، ويصل حتى ركبتيها، ولا تترك شعرها منسدلا وتربطه كذيل حصان. ونور ببنطلونه البني وقميصه السكري يقف أمام دكان أمامه كتب ومرتب في رفوفه المزيد من الكتب، ويقف أمامه قلة من الناس منحنيين يمسكون كتبًا وآخرون واقفون يتفحصون كتبا من على الأرفف. وثلة من الناس على بقية الخشبة يشترون ويبيعون كأنهم في سوق، ثابتون أيضًا. يرتدون بناطيل وقمصان بألوان مختلفة. والسيدات بفساتين أنيقة مختلفة الألوان.

أرفع رأسي وألبس السماعات، ثم أشير له أن يبدأ بقلمي، فأسمعه يصرخ من خلف الكواليس: استعد، فأشعل موسيقى Mark Petrie – Meet cute كي تكون خلفية المشهد:

يقف نور يبيع كتبًا وهو يجري بين المشترين الواقفين أمام دكانه، تلمحه حبيبته في الشرفة فتلوح له بمنديلٍ في يدها، يلوح لها نور بكامل ذراعه اليمنى، وهو يقفز فرحا، ثم يربت على كتف المشترين والواقفين حوله ويشير إليها. يضحكون ويلوحون لها، ثم يتقدم أحدهم ويناوله وردة حمراء، ويتقدم آخر ويعدل له من قميصه، في حركاتٍ راقصة استعراضية. يتركهم ويذهب راقصا أسفل شرفة محبوبته، يتمايل لها، ويقفز ويضرب كعبي قدميه ببعض، وهو يمد يده إليها بالوردة الحمراء، وهي تمد يدها إليه من الشرفة تحاول التقاطها، ييأس محاولا الوصول، لكن بلا جدوى، والناس في السوق يبيعون ويشترون ويغمغمون بأصواتٍ عبثية، يجلس حزينا على الأرض، فيتوقف الناس عن البيع والشراء ويتقدمون نحوه، ويشيرون مستفهمين؟ يشم الوردة بعمق ويحتضنها ثم يشير بها إلى حبيبته ويهز رأسه في أسى، وحبيبته تضع يدها أسفل خدها وتستند إلى السور حزينة، يبدو على الناس أمارات التفكير، ثم يشير أحدهم إلى رأسه أن جاءته فكرة، ويشير إليهم فينطلقون ركضًا إلى كواليس المسرح، ويعودون حاملين كرسيًّا خشبيًّا صغيرًا، يشيرون لنور بالوقوف عليه، ثم يتعاونون جميعًا ليرفعوا الكرسي، ونور يمد يده بالوردة، وحبيبته تحاول التقاطها، حتى يرفعوه تمامًا ويصير موازيًا لها، فيعطيها الوردة فتأخذها وتشمها بعمق، ويأخذ يدها فيقبلها، ثم ينزلونه، ويضحكون جميعًا، ونور يحتضنهم وهم يربتون على رأسه...

إظلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رسائل

" حبيبتي ليلى؛

أربعة شهور مرت وأنتِ بين يدي رجل غريب عنكِ وعني، نهارٌ أتبع ليلًا وليلٌ هزم نهارا، كأن عمري كله قد فني في تلك الأيام الطوال. قولي أربعون عاما مرت، أربعون ألف عام، وضحكاتك لا تفارق أذني، وابتسامتك، وجنونك، وبكاؤك، حتى الكتاب الذي أهديتني إياه لا زال هنا في حقيبتي الصغيرة التي أحملها دائمًا..

كل يوم مرّ أراكِ فيه تبكين على وسادتك، وهو ذلك الرجل، ذلك الرجل، ذلك الرجل الذي..... تحبينه؟ هل سيضايقك أن أسبه؟ نعم بالتأكيد سيضايقك، فهو أبو أولادك في النهاية، وأنا مجرد ذكرى لا أعرف إن كانت لا تزال تطوف برأسك، أم أنساكها ليالي العشق المحموم بينكما؟ أربعة أشهر وأكاد أجن كل ليلة وطيفكما يملأ غرفتي، وأراكِ تتأوهين تحته وتضحكين لدعاباته وتهتمين لغضبه، هل أحضر لكِ خادمة كما حلمتِ؟ لا أعرف كيف أنسى كل هذه الليالي التي تحدثنا فيها معًا، وحتى تلك التي كنا نصمت فيها، هل تذكرين؟ أنا لم أنسَ شيئًا قط! رسائلك بخط اليد لا تزال في محفظتي الجلدية التي أهديتني إياها يومًا، والجاكت عديم الأكمام لا يزال معلقا في خزانتي أخشى أن أرتديه فتقتلني الذكرى، وعطرك المفضل لا أزال أشتريه وأكومه في أدراجِ عندي، أفرغه في الهواء أينما كان مجلسي، وأرى طيفكِ هنا وهناك، يصنع ليَ قهوةً بالحليب، وكريم كراميل، وطبقا من الفول، أراكِ تمسكين بالسكين وتقطعين الليمونة، هل تذكرين هذه الأيام الثلاثة في الإسكندرية؟ الأول والثاني والثالث من مايو.. كان ذلك منذ أربعة أشهر أخرى من الجمعة الثلاثين من أغسطس، ما يعني أنه منذ ثمانية أشهر من الآن بالتمام.. آه.. كل عام وأنتِ بخير، لا أعرف إن كنتُ أريدكِ بخير تام، أم أريده أن يضربك ويهينك ويصفعك حتى تبصقين دما من فمكِ وأنفك، لكنه إن فعل ذلك سأقتله! أتذكر تلك الخيالات القديمة ولا أعرف أأضحك أم أبكي.. يوم أن تخيلتكِ عجوزًا بشعر أبيض، وتخيلتَني شيخا أصلع بذقنٍ بيضاء، وأخذت أرسم كيف سأكون أحبكِ حين ستمرضين، وكيف سأدللك، وأحب شعرك الأبيض، كتبت في ذلك قصيدة، آه.. لقد توقفت تمامًا عن كتابة القصائد، هل أهوى تعذيب نفسي يا ليلى؟ وهل تستحقين هذا الوفاء وأنتِ هناك الآن بين يدي رجل غريب يداعب شعرك ويمسح بيده على وجهك؟ هل يمر على نفس الخطوط التي مرت عليها يدي؟ وهل لا زلتِ حين تشعرين بالحب تمسكين بكف اليد وتضعينه على خدك؟ هل تفعلين ذلك معه؟ هل يده في حنو يدي؟ وجنونك؛ هل تحمله؟ آه.. آسف.. لقد اكتشفنا الحقيقة سويا! أنتِ لستِ مجنونة على الإطلاق، أنا وحدي المجنون، أنتِ عاقلة جدًّا، رغم اتصالك بي في ليلتكما الأولى! ما كان غرضك من هذا كله؟ تحبينني؟ وأنتِ عارية في أحضان رجل عاري؟! لا أريد هذا الحب! أبحث عن المقطوعات التي كنتِ تحبينها دائمًا، هل تذكرين بداية العام الجديد في السنةِ الماضية؟ أحضرت لك طاقية بابا نويل واحتفلنا معًا بعام جديد، وقلنا لن يفرقنا شيء، مقطوعاتك التي تحبينها أبحث عنها دائمًا، ولكني حينً أسمعها أجدها مشروخة، كأنها فقدت روحها، وأنتِ مثلها الآن، تبحثين عن روح

بابا نويل كي تمنحك معجزة أن تعودي للحياة! ومن قال إن الذكرى ستبقى؟ لا أحد! أربعة شهور أحاول النسيان، وكلما نسيت، ذكرت نفسي! لا أنا لست خائنا مثلك! لن أنسى، لن أنسى وسأظل هكذا شبحا جاثما بينك وبينه مهما اعتقدتِ أنكِ نسيتِ، وسأظل هكذا دائمًا، هذه الذكرى التي كلما أردتِ أن تعودي إنسانة ذكرتكِ بحقيقتك الممسوخة، وبأنكِ في النهاية، مجرد خائنة!

ورسالتك التي أرسلتها في بداية العام ما قبل الماضي، هل تذكرين؟ بخط يدك وبخطوط مليئة بالحب والشغف، هل تذكرين؟ عندما أهديتك ديواني في مكتبة الجامعة، يومًا ما بعدها كنت تتلين على أذني الإهداء وقد حفظته كاسمك، لا تتخيلين كم أسعدني ذلك! ولا زالت حتى ذكراه تسعدني! إن لم يكن ذلك كله حبًّا فما الذي كانه؟ وإن لم يكن حبا فما الحب إذًا؟

لا أزال أنتظر هذه اللحظة التي سأسمع فيها صوتك يشدو، كي تقولي لي وأنتِ تبكين إنك الآن طالق وإنك تحبيني ولم تحبي أبدًا أحدًا غيري.. وأنا سأسمع ويخفق قلبي بعنف، وقد اشتقت لصوتك كما اشتاق آدم للجنة، سأسمع بحبٍ هائل خذلتِه، سأسمع لأني لا أقدر أن أحب غيرك، ولا أتخيل أن ألمس امرأة غيرك، ولا أتخيل أن أستكين في حضنٍ غير حضنك، سأسمع لأني أحبك، ولأني كما وعدتكِ سأظل أحبكِ دائمًا.. ثم كرامتي هذه التي ستمنعني من الرد على كلماتكِ، كرامتي هذه التي تبعث بصورٍ وخيالات لكِ وأنتِ معه، وأكاد أقيء! كم هذا مقزز! هذا مقرف يا ليلى! مقرف. مقرف. مقرف! أكاد أقيء وأنا أتخيل أنه قد ولجكِ وأنكِ صرختِ نشوةً، وأتذكر كيف تخيلنا سويا كيف ستكون هذه الليلة الليلاء! وهل الآن يمكنكِ أن تعيدي لي هذه الليلة التي هي من حقي وحدي؟ وهل أصلًا بعدها لا تزالين ليلى التي أحببتها يومًا ما وخذلتني؟ أشعر بقرف هائل كلما تخيلتك منتشية بين ذراعيه، رغم أني لا أعرف شكله، لكني أعرف شكلك، ولا أنسى نظرة عينيكِ أبدًا في لحظة النشوى، أكاد أقيء يا ليلى! أأنا الرجل لا أستطيع أن أمس أنثى بعدك، وأنتِ هكذا تمارسين ليالٍ عاشقة كعروس وترتدين أشياءٍ حلمنا بها سويا، وتمارسين فنونا وحدي أنا من علمكِ إياها؟

وهل تذكرين قبلتنا الأولى، في مكتبة الجامعة؟ هذه اللحظة المختلسة من الزمن والدنيا، هذه اللحظة التي لا أحد يدركها غيرنا؟ أتذكرها وأضحك، وأتذكر لما كنا نهرب من الناس ونركب مصعدا في عماراتٍ شاهقة بيضاء اللون، ونختفي داخله في أحضان بعضنا وشفاهنا تسابق الزمن كي تروي ظمأها قبل أن يصل المصعد لدوره الأخير، هل تذكرين ضحكاتنا التي لا تتوقف أبدًا واستنادك بيدك على كتفي ونحن نشتري أي شيء؟ هل تستندين الآن على كتفه؟ أكاد أجن يا ليلى.. أكاد أجن!

أتخيل هذا اليوم، وأتمناه، يوم أن أجلس في حفل توقيعي لديواني الهام الذي سيحقق ما لم يحققه أي ديوان صدر لأي شاعر في الدنيا، وأتخيل أني بعد النقاش والندوة، حين أجلس لأوقع للقراء ديواني، أشم رائحتك، وأرفع عيني لأجدك أمامي عيناكِ مغرورقتان بالدمع وتحملين ديواني في يدٍ وطفلكِ منه في اليد الأخرى، أعرف أن ساعتها سيتجمد الزمن، سأتجاهل يدكِ الممدودة بالديوان، وسأقول لكِ، هل يمكنكِ أن تنتظري قليلًا؟ ستبتسمين وتبقين والدمع في عينيكِ لا يزال، ثم أوقع لآخرين

بكلماتٍ لا أعيها، وأنا عيني لا تفارق وجهك وجسدك كله أبحث عن نفسي فيه، نفسي التي ضاعت مني بضياعك، ولا أجدني، وأجدكِ تقومين وتقولين إنه عليكِ الذهاب الآن.. لمَ؟ لأن.. لأن.. لأن زوجي ينتظرني في الخارج!

وأصطلي بالشوق أبدًا وأنا أتخيلك هكذا فجأة، عند البنك، حيث أقف كل يوم منتظرا إياكِ في نفس موعدنا ونفس مكان لقيانا، وحين أهم بالمغادرة أسمع نداكِ فألتفت فأراكِ تأتين نحوي من بعيد، ويثبت الناس في الشارع كالتماثيل، وتتوقف الأرض عن الدوران، ويتجمد كل شيء، وأنتِ تركضين مناديةً باسمي وأنا واقفٌ وعيناي تدمعان حتى تأتيني فنلتحم في عناق أبدي، لا يفصلنا شيء، وأحملك وأدور بكِ، ورأسي في رقبتك أشتم عطرك الحبيب، وينهمر منا سيل القبل هكذا في منتصف الطريق!

أدعو الله كل ليلة أن نموت وتقوم القيامة؛ أدعوه حين يبعثني أن يبعثني قبلك، ويوقفني جوار قبرك، فأراكِ وأنتِ تخرجين!

كل عامٍ وأنتِ بخير حتى وإن كنتِ لا تستحقين التهنئة!

نادر

منتصف ليل الأول من العام الجديد 1994"

ميراث سيزيف

لكن السيارة صغيرة جدًّا لا تسع كل هؤلاء.

يتدافعون عليها فيتعلقون براكبيها الذين برزت أطرافهم من الشبابيك، مكومين فوق بعضهم، يتأملهم في مرآة السيارة ويشعر أنه ينقذ أصلًا جثث موتى! أشلاء أناس كانوا يومًا حقيقيين وكانوا يتنفسون ويُخرجون ويأكلون ويتكاثرون، كانوا يومًا حياة!

تبرز رؤوسٌ من النوافذ الأربعة، وأذرع وأرجل وأعضاء تناسلية، بالكاد يستطيع أن يرى الطريق، وهم كثيرون بالخارج، يتعلقون بالسيارة في فزع، يتشبثون بها، بإطاراتها التي تئن تحت وطأة الثقل، وبالأطراف البارزة التي لا تحتملهم فتتمزق من أصولها، رائحة الدم تفوح، وتتغلب على الدخان والضباب والعويل وهزيم الرعد والنار.

ارتبكت حواسه تمامًا..

كان أحدهم عاري الجذع أصلع لكن شعره المتبقي أشيب ولحيته كذلك، كان يلتصق بالقطعة الباقية من الزجاج أمامه بملء وجهه، والتقت العيون، لكن السيارة صغيرة جدًّا لا تسع كل هؤلاء، يدير المفتاح، بعصبية بالغة، يهز جسده قليلًا كي تطول قدمه دواسة البنزين، ببطء تحبو السيارة، فيسقط الجسد الذي كان يتأمله، يحاول ألا يصدمه، لكن الرجل يستكين أسفل العجلات، يصرخ لنفسه: لكن السيارة صغيرة جدًّا لا تسع كل هؤلاء!

ربما تدافع الناس خلفها هو ما يدفعها للأمام..

الخراب في كل ناحية، خرابٌ هنا وخرابٌ هناك، ويتردد صدى الكلمة في أذنه طويلًا، يتذوقها عقله فزعًا..

الخراب..

ال.. خ.. ر.. ا.. ب...

على الجانبين سوادٌ وأطياف وأشياء تظهر لعينه متماهية غير واضحة المعالم بسبب ضيق مساحة النظر، وبسبب الأطراف التي تملأ الزجاج الأمامي، حاول تشغيل المساحات، ليزيح بعض هذه الأشلاء وبعض بقع الدم، لكن الأمر ازداد سوءً واستشرى الاتساخ فوق الزجاج، والأنين المتصل كاد يمزق الكون كله،

ما أشد خوفه!

الطريق أمام عينيه مليءٌ بالضباب، لكنه يمضي فيه قدما كمحارب، وتلك النظرة البائسة الذابلة التي التقت بعينيه قبل أن تستكين أسفل العجلات، تملأ عالمه،

ينتهي الطريق عند قصر موحش على الدغل، يوقف السيارة التي بالفعل فقدت إطاراتها، وصارت تطلق شرارات احتكاك آثمة مع الأسفلت، يترجلون منها جميعًا، كل الأجساد التي صارت عارية فجأة، أو لعلها كانت عاريةً من البداية، لا يتذكر، لا يتذكر غير النظرة البائسة الذابلة التي التقت بعينيه قبل أن تستكين أسفل العجلات!

حوطوه ودخلوا القصر الموحش، كان محكمة، وكان يعرف طريقه خلف القفص، وهم كانوا يعرفون طريقهم في مقاعد الشهود، وهو ارتدى روبه الأسود الملكي، ربما لعله يكون ذا جدوى ولو لمرةٍ واحدة! ثم قيد يديه بنفسه أمامه، وجلس خلف القفص مستكينًا ينتظر..

جاء صاحب النظرة البائسة الذابلة التي ألقاها في عينيه قبل أن يستكين أسفل العجلات عاريا، وجلس على مقعد القاضي، صرخ أحد العراة: محكمة!

فوقف وحده..

- أحمد علي الطاهر!

- لستُ طاهرًا!

- نعم لستَ طاهرًا! أنتَ متهم بالقتل! أقوال الشهود؟

أجاب كل العراة في القاعة بصوتٍ جلله الصدى: نعم! قاتل!

- لا أنا لم أقتلهم، حاولت إنقاذ الجميع، لكن السيارة صغيرة جدًّا لم تسعهم!

- أحمد علي الطاهر لقد رآني الشهود وأنا أسقط أسفل العجلات، ورأوك وأنت تدهسني ببطء! ما قولك؟

- لا! أنا كنت.. كنت.. لقد كان يريد.. أقصد.. كنتَ تريد الموت.. والسيارة الوحيدة التي تعرف طريق الحياة كانت صغيرة جدًّا لا تسع كل هؤلاء!

- أحمد علي الطاهر أنت تركت كل هؤلاء ليموتوا...

وأشار بيده فانفتح باب لا يُعرف موضعه، ودخل منه أناس عراة يشبهون الزومبي، ممزقي الأوصال والصدور، ومشوهي الوجوه، دخل مسوخ..

- أنا حاولت.. حاولت تغيير العالم.. لكن السيارة صغيرة جدًّا...

- أحمد علي الطاهر أنتَ قاتل!

أجاب الجميع في القاعة بصوتٍ جلله الصدى: نعم! قاتل!

- ... لا تسع كل هؤلاء!

السيارة صغيرة جدًّا لا تسع كل هؤلاء!

السيارة صغيرة جدًّا لا تسع كل هؤلاء!

السيارة صغيرة جدًّا لا تسع كل هؤلاء!

السيارة.. صغيرة.. جدًّا... لا.. تسع....

... ...

وقف ينادي عليهم، لكنهم رفضوا السماع، كانوا يتعاركون فيما بينهم، كان يرى المنحدر الذي تتجه نحوه الصخرة، ينادي محذرا، علهم يفيقوا قبل أن تصل الصخرة البيضاوية وتقع، وهم كانوا يتعاركون فيما بينهم..

انبثق من بينهم، قفز، علّه طار، ووقف في الناحية الأخرى للصخرة البيضاوية، كجلمود، يدفعون نحوه لكنه صمد أمامهم في البداية، ثم بدأت خطواته تزحزح تحت ثقل دفعهم ناحيته، وهو يحاول دفع الصخرة البيضاوية من الناحية الأخرى، حائلا بينها وبين المنحدر..

كانوا أقوى منه، تشحنهم بغضاء وكراهية ومعارك محتدمة بينهم بطاقةٍ هائلة، فظلت خطواته ترزح تحت ثقلهم، يتزحزح ويتقهقر وأقدامه تصنع علامةً في التراب وهو يحاول دفعها بكل قوته، كأنما يدفع سيارته في ليلةٍ متجمدة، يصل كعب قدمه للهاوية ويتشبث على أصابع قدميه اليمنى واليسرى مثنية للأمام، وعروق رقبته تنفر من الدم المتدفق فيها، وخدوده تحمر...

يزيحونه سنتيمترات أخرى، ويتأملونه وهو يفقد اتزانه ويحاول التشبث بأي شيء قبل أن...

يهوي..

هكذا...

يضحكون.. يسمع ضحكة امرأته من بينهم، لعلها أعلى من ضحكاتهم جميعًا! ثم يستمرون في دفع الصخرة البيضاوية الزرقاء البائسة حتى سقطت هي الأخرى، وسقطوا معها جميعًا...

في الأسفل، وجدوه، كان مثخنا بالجراح وقلبه ممزق، لكنه تحامل على نفسه، قالوا كنت على حق، لم يهتم،

قام،

حمل الصخرة البيضاوية الزرقاء البائسة، فوق ظهره وكتفيه كسيزيف، وقرر أن يصعد الجبل بها،

ضحكوا حتى دمعت عيونهم! هذه الصخرة أثقل من كتفيك!

ارتفع خطوة فقالوا: نعم نعم ونِعمَ العمل! وزادوا في الاستحسان حين ارتفع خطوة أخرى!

قالت منار: لكن أنا امرأتك حبيبتك، لأجل الحب الذي تؤمن به خذني معك! وتعلقت بقدمه.

ارتفع خطوة أبطأ..

وقال الدكتور جلال: وأنا عندي أولاد، لأجل الرحمة التي تؤمن بها خذني معك! وتعلق بقدمه.

ارتفع نصف خطوة..

وقال الشيخ ياسين: لأجل الله الذي تؤمن به خذني معك! وتعلق بقدمه.

ارتفع ربع خطوة..

وقالوا جميعًا: أنتَ لن تتركنا هنا! لأجل العدل الذي تؤمن به خذنا معك! وتعلقوا بقدميه!

فسقط على ظهره، ورأى الصخرة تهوى عليه من علٍ....

... ...

أفاق!

متى كانت هذه الكوابيس؟ قبل الحادثة أم بعدها؟ لا يعرف بالتحديد، لكنه يتذكر أحلامه القديمة الباهتة، أن يستيقظ فزعا في الليل فيجد امرأة بجواره تمسح عرقه، وتحتويه في حضنها وتربت عليه وتقبل رأسه، وتقول له وهي مبتسمة إنها قد سجلت كل ما قاله كالمعتاد، هو يتكلم أثناء النوم، وقال هذه الليلة: سأغير العالم! كما يقولها كل ليلة!

لكنه الآن هنا..

وحيدًا..

يرتجف..

دون امرأةٍ يبكي في أحضانها، ودون روبه الأسود الملكي، ودون حتى.. أحلامه القديمة الباهتة!

ووحيدًا كان يتساءل

: وحين تصير ندى ابنتي مذيعة كيف ستقرأ الحادثة؟

ربما بكل حيادية: " طالب يهاجم أستاذا جامعيا، والأمن يتدخل لإنقاذ الأستاذ"

أهكذا يا ندى ستقولين الحقيقة؟

أهكذا؟

- هيييييح.. مؤثر جدًّا!

- .....

- يا عيني هل تبكي؟ كم هذا لطيف!

- .....

- لكن تبقى في النهاية كوابيس! في النهاية هو فاشل يعلق أخطاءه على الآخرين! فاشل.. مثلك!

- اخرس!

- تغيير العالم؟ هل تعرف كم واحدًا يقبعون في السجون ومستشفيات المجاذيب كانوا يحلمون بتغيير العالم؟

- ولوْ!

- العالم لا يتغير بالضعاف!

- قلتُ لك اخرس!

- هذه شخصية هزيلة، لن يصدقك أحد!

- اخرس.. اخرس.. اخرس!

- وكأنك تملك أن تخرسني!

في مثل عمركِ تقريبا!

في شقة المكتب القديم الذي أغلقه، منذ زمن بعيد ليتفرغ للدفاع عن القضايا الحقوقية، هو لم يغلقه بالمعنى الكامل للإغلاق ففي النهاية كان يقضي فيه وقتا كثيرا، يطالع القضايا ويبحث في الثغرات ويفتش في القانون، وهم كانوا معه دائمًا.

في شقة المكتب القديم التي تحولت لشقة سكنية، حيث وضع في الغرفة الكبيرة سريرا بدلا من المكتب ونقل المكتب إلى الصالة وأزاح الكراسي وكومها فوق

بعضها، وغرفة المكتبة لم يمسها.

وقفتْ ندى تتأمل الصور المعلقة على الحوائط، بدت لها الصور تضحك من فرط صدق ابتسامات أصحابها، كانت تسمع صوت اصطدام بعض الأواني في المطبخ، لكنها ظلت أمام الصور، بعد قليل خرج أبوها حاملا كوبين من الشاي، وقال بلهجة معتذرة: لا أعرف أين وضعت النسكافيه. همهمت بكلماتٍ لا معنى لها، وتناولت كوب الشاي فقط لتمسكه بيدها، وهي لا تزال غارقة في كل تلك الابتسامات التي ملأت الجدار..

قال لها: كلهم في مثل عمرك تقريبا!

التفتت إليه فأكمل: أقصد وقتما التقطتُ لهم هذه الصور!

قالت باستغراب شديد: من هؤلاء أصلًا يا أبي؟ هل هم من عائلتنا؟

ابتسم وقال: هؤلاء الذين كانوا يغضبون أمك!

- من هم يا أبي؟ ولماذا صورتهم؟

- صورتهم لأني أخاف أن أنسى، ستبقى صورهم هنا تذكرني دائمًا! هؤلاء ستقابلينهم كل يوم في الجامعة، وبعضهم قد يتمادى ويعطيكِ أوراقا عن ضرورة النقاب، وبعضهم قد يغالي أكثر فلا يكاد ينظر إليكِ لأنكِ أنثى من الأساس!

ثم تنهد: كلهم مثلك يا ندى! مثلك! بنفس براءتك التي دفعتك إلى هذا الزي الذي ترتدين رغم اعتراضي أنا وأمك! وبنفس محاولتك القدسية أن تصيري ملاكا! هذه أطهر مرحلة في حياتنا يا صغيرتي، لا بأس! لا بأس أبدًا! المهم ألا تنجرفي معها! هل تفهمين ما أقصد؟ أحيانًا تبلغ أفكار البعض مدىً سيء فعلًا! بعضهم يكفر بالحياة!

قالت: لكن.. لم أفهم؟ هل هؤلاء طلبة جامعيين؟ ولماذا يضايقون أمي؟

ارتشف رشفة طويلة من الشاي، ثم سعل، وسأل: هل يهمك فعلًا أن تعرفي؟

قالت بتصميم: بالتأكيد!

- ولن تقولي إني أضغط عليكِ لتغيري مظهرا ما أو فكرةً ما تؤمنين بها؟

أومأتْ في صمت.

- حسنا...

سكت قليلًا يخشى أن تغير رأيها، لكنها ظلت صامتة..

- هل ترين هذا في الصورة على أقصى اليمين؟ لا.. ليس هذا.. حركي إصبعك لأعلى قليلًا.. نعم هذا.. اسمه هيثم محمد الألفي عمره وقت التقاط الصورة: ثمانية عشر عاما، طالب في كلية الهندسة قسم الهندسة النووية، عبقري، له ثلاث أخوات، وأخ واحد وقت التقاط الصورة عمره لا يتجاوز الخمس سنوات، وأبوه شيخ أزهري يلقي خطبة الجمعة في مسجد كبير، وأمه مدرسة لغة عربية للمرحلة الابتدائية، هذه

الصورة التقطتها له في سجن الشبردق، ربما عمره الآن قد تجاوز الربع قرن، تم اعتقاله دون أية أسباب، دون حتى أن يحاول أن يشارك في أي نشاط جامعي اللهم إلا مسابقة الشطرنج! وهذا على اليسار قليلًا، نعم ذو العبسة، اسمه حسن لكني لا أذكر اسم أبيه، ربما الشهاوي، ذاكرتي ضعفت كثيرا، لكني كلما نسيت ذكروني! حسن كان في السنة النهائية لكلية الطب، وتم اعتقاله ليلة الامتحان من المدينة الجامعية، السبب كان مضحكا، حيازة هيكل عظمي! يصرخ يا ناس أنا أدرس الطب، لكنهم في هذه الحالة لا يدعون الصمم فقط، ولكنهم يخلعون آذانهم ويضعونها في صناديق من الرصاص، ويخفونها تحت الأرض في سراديب عميقة لا قرار لها.. وهذا مجدي عبد الرحمن، وهذا محمد سيد عبد الرحيم، وهذا فريد عادل، وهذا ذو الشعر المجعد، هذا فادي، وهو اشتراكي مجنون بالاشتراكية!

- ولماذا أخذوه يا أبي وهو ليس ملتزما؟

- يا حبيبتي العصا حين ترتفع، لا تهتم على من ستنزل! الكل يبقى في النهاية مرتعا للعصا!

- وهذا يا أبي؟

- ماجد؟

- ابتسامته صادقة!

- ليست ابتسامته وحدها، هل تعرفين؟ هذه الصورة التقطتها له قبل أن يذهب للمحكمة لسماع الحكم.

- وماذا كان الحكم؟

- المؤبد.. حكموا عليه بالمؤبد..

- لماذا؟ ماذا فعل؟

- كان يريد أن يعيش كما هو، لا كما يريدونه!

شعر بنفسه ينتهك براءة ابنته، وهو يرى هذه المسحة الحزينة تسيطر عليها، فقال متوترا: لم أرحب بكِ كما ينبغي اليوم!

اغتصبت له ابتسامة وقالت: لا يا أبي يكفي ما فعلت.

قال: لكن (شايي) لم يعجبك!

انتبهت لكوب الشاي الذي برد في يدها، وقالت: لا سأشربه حالا..

جلسا على كرسيين، بجوار المكتبة الكبيرة، قالت له: أعرف أن هذه السنة فارقة في حياتي.. أليس كذلك؟

- بالتأكيد، لهذا علينا أن نتحدث بشأنها.

- نعم.. أتعرف يا أبي؟ قبل أن أرى هذه الصور كلها، كنت أعتقد أني أميل لكلية الدراسات الإسلامية، لكني الآن أعتقد أني أفضل كلية الإعلام.

- ولماذا؟

- كي أساعدك! كي يعرف الناس أكثر عن هؤلاء الذين في الصور وفي السجون!

- لكن هذه طريق عثرة يا صغيرتي.

- لكنك خضتها يا أبي، وأنا قوية مثلك!

ابتسم.. لطالما كان يحبها أكثر بكثير من أي أحد في العالم، حتى من أختها رشا. من بعد مغادرته البيت، في محاولة لتهدئة منار، وهي الوحيدة التي تطرق عليه باب المكتب الذي صار مسكنه.

- لا أريد لكِ هذا التعب يا ابنتي.. هذا الطريق مرهق، ومليء بالصخور المدببة.

ابتسمتْ..

- وأنا ابنة أحمد علي الطاهر الأستاذ الكبير..

انغلق وجهه.. فتمتمت: آسفة..

قال لها: لا عليكِ!

وفاء الكلاب

أشعل محمد جمعة سيجارا فخما، وهو يتأمل جسده المترهل، من خلال مياه البانيو الممتلئ على آخره، أنزل يده، هرش جزءً يهتم بنظافته كثيرا، ثم أغمض عينيه، خرجت بطة سوداء من رأس الدش، خرجت برأسها وجزءٍ صغير من رقبتها، ثم انفجرت بصوتٍ مكتوم، وتناثر الدم بدلا من الماء، وشعر بالرذاذ وبحفيف الريش المتطاير، فتح عينيه فزعا.. كان الماء يسيل باردًا كما هو، وكانت البطة السوداء على جانب البانيو، تقف مستكينة بهدوءٍ قاتل... تراقبه!

... ...

كان دوي الرصاصة يزعج محمد جمعة ويخيفه في آن. ينتفض كلما سمعها تنطلق، لأنه كان يُفاجأ بكل طلقةٍ جديدة. كان يخفض عينيه في الأرض وهو يقف جوار المارشال ببزته العسكرية الحمراء القانية لون الدم، المليئة بالنياشين، ونظارته الشمسية ماركة police بذراعين ذهبيين، (التي صُنعت خصيصا لأجله، ولم يُصنع مثلها، وكتب اسمه بحروفٍ ذهبية على ذراعها الأيسر)، وصلعه وحاجبيه الكثيفين البرتقاليين، وشاربه الكث المليء بالشعيرات البنية والبرتقالية.. كان المارشال يصطاد شيئًا ما، لا يعرف محمد جمعة إن كان له أجنحة أم أربعة أرجل، لأنه لم يجرؤ على رفع بصره ليرى أين تتجه فوهة البندقية. وقف صنما، يحاول أن يبدأ لكنه كان واثقا من أن المارشال أصلًا يعرف ما يريد هو أن يقوله، يقينه الدائم أن في كل مكان في بيته جهاز تصنت، سيطر عليه دائمًا، تذكر حين جاء برجل خبير

في هذه الأمور، كان أمريكي، ورغم ما في هذه المغامرة من مصائب قد تحدث إن علم بأمرها المارشال، إلا أن جمعة لم يستطع المقاومة أبدًا، أن يتحرر من هذه المراقبة التي تقض مضجعه ولا تجعله يستمتع حتى بمشاهدته لندى.

استضاف الأمريكي على أنه صديق إعلامي من قناة أمريكية مهمة، وجاء الرجل بأجهزته العديدة، مخفيا إياها في كاميرات تصلح أن تكون بحوزة إعلامي، وما طمأن محمد جمعة قليلًا وقتها، أنه طلب إذنا شخصيا من المارشال بالسماح بعبور هذه الكاميرات دون مراقبة المطار الأمنية حتى يشعر الضيف بأهمية جمعة وبالتالي يستنبط منه الاتجاهات الإعلامية الجديدة في التعامل مع الجمهور وكيفية إقناعهم بأشياء من قبيل الحرب على الإرهاب والتنظيمات الدولية والحروب النووية والدمار الشامل والحرب لأجل الصليب لا لأجل النفط، حين سمع كلمة النفط ابتسم المارشال وقال: لا بأس!

وصل الأمريكي بيت جمعة دون مشاكل، وبدأ العمل من فوره، وجال بخاطره هاجس أن يكون المارشال يراقبه بالصورة أيضًا وليس صوتا فقط، وبدأ عرق مالح يتصبب على شحوم رقبته الغليظة، وأنفاسه تخور كخنزير مقرف، وقد انتابه التوتر بهذا الاضطراب، تفقد الأمريكي كل شيء بدقة بالغة، خلف كوابس الكهرباء وبين البلاطة والبلاطة وفي مفصلات الأبواب والنوافذ، وقواعد التلفزيون، وأسلاك الستريو الضخم الموجود في صالة الفيلا، وفي المطبخ في أيدي الملاعق وقاع الأواني، وفي عين المرحاض، والسيفون، وحتى ملابس مديحة الخادمة، والربطات الصغيرة (التوك) التي تربط بها شعرها، أو حتى (البنسة) التي تثبت بها (الكحكة).. ولف على ملابس السائق وغرفة الطباخين وبقية الخدم... باختصار فتش كل إبرة في الفيلا.. لكن أكثر ما أسعد جمعة هو تفتيش حاجيات مديحة، كان يدرك بشكل ما أنها يسهل أن تُجند ضده، أو حتى تُستغل دون علمها، وكم أسعده أنها (نظيفة) كما قال الأمريكي.

أقام احتفالًا صغيرًا على شرف الأمريكي، منها كي يقنع أي أحد أرسله المارشال ليراقب، ولكي يحتفل فعلًا بأن بيته نظيف من أي مراقبة، وتعجب كيف يأمن المارشال جانبه لهذا الحد؟ ثم فكر، أن هذا دليل على الثقة فعلًا، وجعله هذا يشعر بتيه عظيم، ويربت على بطنه الضخم باستمتاع وهو يشعر بفحولته تزداد وبأنه فعلًا ذو حظوة عظيمة، وبان ذلك في حديثه مع الأمريكي، عن أحدث التكتيكات الإعلامية.. ليلتها كانت مديحة متأنقة كما تفعل دائمًا، وكان هو لا يحتاج إلى تأنقها كي يُستثار، بل حتى إن الأمريكي ضحك وهو يشير إلى ما بين رجلي جمعة ويقول غامزا: she’s hot لكن انتظر ريثما أغادر حتى! لم يشعر بالخجل، وحاول أن ينظر لفحولته المتأججة لكن بطنه المتدلية منعته عن ذلك، وقال للأمريكي... دوى صوت الطلقة فانتفض، وهُيئ إليه أن المارشال يقول: يبدو أني أحادث نفسي!

ارتجف وهو يتخيل المارشال كان يتكلم وهو لا يصغي، وشعر أنه بهذا سيفقد الثقة وفي نفس الوقت لن يحقق له المارشال الطلب الذي جاء لأجله، فتمتم ودوي طلقة أخرى يدوي، فقال المارشال كأنه لم يسمع: أوه! أفلت ثانيةً! بدأ المارشال يعمر بندقيته بطلقات جديدة، وسأل: هل كنتَ تريد شيئًا؟

- آه.. آ.. أجل.. أنا فقط أطمع في كرم معاليكم في خدمة صغيرة ستفيد الحزب وتقدم لبلادنا ربما شيئًا جديدا من أجل الترفيه على رعاياكم ومن أجل أن نمنح الشعب بعضا من كرمكم ولندلل على أنكم - تعاليتم - تقدرون الناس وتسعون لرفاهيتهم وأنكم تشعرون بمعاناة الناس وبحاجتهم لهذا وأن العمل ليس كل شيء وأن الدولة تقوم بدورها في توفير الترفيه لكل مواطن في كنفها تحقيقا لمبادئ المواطنة وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية!

ابتسم المارشال ابتسامة واسعة وقال: لهذا نثق في أمثالك من رجال الحزب المخلصين يا سيد محمد، أنت تعرف أن ثقتنا فيك كبيرة، أليس كذلك؟

توتر محمد جمعة، هل يقصد المارشال حادثة الأمريكي؟ لكنها مرت بسلام ولم يشك أحد في شيء!

- هذا شرف لي معاليكم!

- جيد! إذًا ماذا تريد كي تمنح الشعب بعضا من كرمنا؟

- مديحة.. خادمتي!

- ماذا؟ هل نستنسخها ونعطيها لكل فرد في الشعب؟ هيء هيء.. ثم قل لي: هذه اللعوب كيف وقعت عليها؟

ابتسم محمد جمعة لهذا الحديث الودي مع المارشال وشعر بأوداجه تنتفخ خيلاء وهو يقول:

- إنها من قرية أبي، تركت أهلها وهربت وجاءت إليّ، لكنها لا تغلو على سعادتك.

قالها متزلفا حانيا رأسه في انكسار، فضحك المارشال وقال:

- لا اتركها للشعب! أرأيت؟ لا أعتقد أن هناك مارشال آخر في المنطقة كلها بهذه التضحية!

- بل في العالم يا سيادة المارشال .. بالتأكيد..

وجه سلاحه وصمت وهو يدقق كي يصيب هدفه، ثم انتفض جمعة لصوت الطلقة وأخرج المارشال صياحا ظافرا ثم قال في جذل وهو يتابع كلبه يجري كي يجلب الصيد:

- نحن أيضًا نحتاج للترفيه! أتعرف إن أعجبني ما ستفعله مديحة هذه، ربما سأعمم التجربة، ربما أرسلنا سفراءنا بها حول العالم...

ثم مدد بصره في الأفق متابعا الكلب وهو يقول منتشيا: التجربة النَهَرية! سنبهر العالم!

جاء الكلب أخيرا وهو يحمل في فمه الصيد، ربت على رأسه المارشال بهدوء، وهمَّ الخادم أن يلحق بالكلب كي يأخذ منه الصيد، لكن المارشال أشار بيده فأوقفه وظل يربت على الكلب هنيهة وهو يقول:

- الكلاب مخلوقات وفية حقًا، لكنها أحيانًا تجول برأسها أفكار سيئة، وتهاجم أسيادها! هل تعرف الكلب الذي تجول في رأسه أفكار سيئة ماذا يصير له؟ لكَ أن تتخيل! أحيانًا تجول برأسنا كلنا أفكار سيئة، فعلينا أن ننتبه!

ثم انتزع بنفسه الصيد من فم الكلب، ورفعه أمام محمد جمعة الذي انتبه بناظره، ثم امتقع وجهه وهو يسمع المارشال يقول في تؤدة:

- انتبه لنفسك!

كان يمسك في يده بطة سوداء، يدليها من مخلبها وقد أصابتها الطلقة في رأسها، فانفجرت**!

هكذا يفعلون في العاصمة!

أمسكته جدته توبخه بعنف، قالت له: لماذا لستَ مثل أخيكَ؟ وكانت تدرك أنه لا إجابة لديه، فدمدمت غاضبة: تربية خراء!

... ...

في القرية، كان الكل يهاب جمعة عبد الودود، من ناحية ما يسمعونه عن كونه محاميًا لا يُشق له غبار وله صلات عديدة بأناس مهمين، ومن ناحية أخرى أنه كان ابن عمدة بلدهم عبد الودود، ومرشحا بقوة ليخلف أباه في هذا الكرسي الفخم.. عُرف جمعة بتوليه قضايا عديدة ناجحة، ومكتبه في العاصمة يبدو كحلم لشباب القرية، الذين يرغبون في حياة المدينة ويرون فيه مثلًا أعلى، هو الذي لم يستنكر لقريته بل أحضر زوجته الثانية التي تزوجها في العاصمة لتعيش معه فيها. كان يعيش في فيلا تجاور دار العمدة التي يعيش فيها أبوه، ولم يكن لحياة القرية أي صورة بداخلها..

من طابقين تتكون الفيلا، يربط بينهما سلم أفعواني على الطراز اليوناني، وتطل على حديقة واسعة مزروعة بمختلف الورود، وبها تكعيبة عنب، وتعريشة يمكن التظلل تحتها في الصيف والجلوس في مجلس عرب مكون من قطع تشبه المراتب لكنها أصغر، وهناك أيضًا إسطبل به حصان أو اثنين لكنها ليست عربية أصيلة، وهناك حمام سباحة، (بسين) كما يحلو لجمعة أن يسميه أمام الضيوف، حيث يحب أن يجري صفقاته هناك، يقول إنه يتفاءل به خاصة لو كانت لؤلؤة زوجته تسبح هناك بالمايوه المثير..

شاع في القرية أن الأمر ليس بمجرد أن محصول الفدادين الشاسعة العظيمة التي تملكها عائلة عبد الودود جدًّا عن جد يُباع بمبالغ ضخمة، وبات يقينا أن في الأمر إنَّ. وكعادة الناس في القرى تناثر الكلام بينهم كذرات رمل تحملها ريح عاصفة، حتى وصل الكلام إلى مسامع عبد الودود، فخطب في الناس خطبة الجمعة، وكان يملك لسانا فصيحا يستطيع به أن يقنع الصديق بالعداوة والعدو بالصداقة، ويفرق بين الرجل وامرأته أو يجمع بينهما، وطلب من الناس أن يستغفروا لذنوبهم لأنهم أخطئوا في حق أناس شرفاء، كل ما هنالك أن الله رزقهم في التجارة وأن مكتب

الأستاذ جمعة المحامي ولده في العاصمة ما شاء الله قد صار مكتبا يتحاكى به المحامون في كل مكان..

تكاثر الهمز واللمز فيما بعد عن أن مكتب جمعة لا يأخذ سوى قضايا كبيرة ومكسبها مضمون، وقال البعض إنه يعمل في قضايا المخدرات والدعارة، وهم يرون القصر الذي يشيده جوار دار المعمودية، وغالى البعض فقالوا إنه يرشي القضاة كي ينتصر لقضاياه ويجلب البراءة لموكليه، ومن علاقته الوطيدة بعضو مجلس الشعب الذي يمثل القرية، بدأ الناس يميلون للثانية والثالثة معًا..

وكان الناس في القرية يهابون جمعة لأنه سليط اللسان جدًّا، لكنهم كانوا يحبون أمه وزوجته الأولى اللتين كانتا مصدرًا لخيرٍ كثير في القرية، فكان مطبخهما يصدر الطعام كل يوم لكل أهل القرية، واشتهرتا بأنهما أهل جودٍ وكرم.. كانوا يتأملون وجه قرنفلة الملائكي ويتساءلون كيف تزوجت هذا الشيطان المدعو جمعة!

كن نساء القرية يتغامزن حزانى: الغراب يا وقعة سوده.. جوزوه أحلى يمامة!

... ...

لم تقل لجمعة أمه يومًا تزوج كي تنجب، لكن أبوه يقولها بوضوح، وأمام قرنفلة أيضًا، فتقوم المسكينة وتركض إلى غرفتها وتغمر في بكاءٍ شديد، فتركض خلفها أم جمعة وهي تكاد تقتل زوجها عبد الودود بنظرتها. لكن تلك المرة البعيدة بعد ركض قرنفلة دار حديث صامت بين جمعة وأبيه، انتهى بأن صعد جمعة إليها في غرفتها، وقبلها، فخرجت أمه، مسح دموعها المتألقة على وجنتيها الملائكيتين الشاحبتين وفتح فمه ليتكلم لكنها قاطعته في حزم: تزوج يا جمعة، تزوج لترضي أباك وأمك، أعرف أن أمك تحبني لكنها أيضًا تحبك، أنت في النهاية ابنهما الوحيد، ويستحقان أن يريا منك حفيدا يرث المعمودية، تزوج يا جمعة وإن شئت اخترت لكَ بنفسي.. وصدقني سأحب أولادك كأنهم من بطني بالضبط! اتسعت ابتسامة جمعة وقال لها: لقد وفرتِ عليّ كلامًا كثيرا يا قرنفلة! ثم قام ليحضر للعرس!

... ...

كانت لؤلؤة تشبه راقصة اشتهرت جدًّا في تلك الأيام، حتى حسبها الناس هي، وغالى بعضهم فأكد على ذلك، وقال بعض الكائدين إنهم رأوها ترقص في أحد الكازينوهات التي دخلوها في العاصمة! كانت تشبه اسمها، جميلة جدًّا، متألقة، بياضها وضاء، جسدها منحوت من النور، وأميل للسمنة، وكانت تعيش كسكان العاصمة، التايير فوق الركبة، وأزرار القميص بالكاد تكبت الصدر كي لا يقفز خارج الصدرية، وتترك الخط الفاصل بين ثدييها المضمومين، كخطٍ يفصل بين العقل والجنون، بارزا مثيرا كل الاشتهاء لدى من يراه. ولما كانت ترتدي فستانها السماوي كانت تشبه الفتنة. كان جسدها جميلا حد أنه أعجب أم جمعة نفسها، بل وأعجب قرنفلة أيضًا ولم تجرؤ على القول أو حتى التفكير بينها وبين نفسها أنها أجمل من لؤلؤة، كانت تدرك أن لؤلؤة أجمل، ولم يحزنها أنها أجمل قدر ما أحزنها أن زوجها الذي تحبه لم يختر أي واحدة كي ينجب منها والسلام، لكنه اختار من هي

أجمل منها وكأنه تعمد أن يخبرها أن دورها في حياته قد انتهى! وصلتها الرسالة دون الحاجة لكل هذه التبريرات التي كان يتلوها جمعة على مسامعها كي لا يذهب لسريرها، ودون الحاجة لكل هذه التلميحات أن وجودها في دار المعمودية أفضل لها ولضرتها كي لا تحدث مشاكل، وضحكت حين قال: مراعاةً لمشاعرك يا قرنفلة ألا تعرفين أني أخاف عليها؟ تساءلت في نفسها: هل يقصد بعليها مشاعري أم هي؟ هي بكل سلطانها الأنثوي بكل فتنتها وإغوائها، هي بكل صرعها لعيون الرجال ورجولتهم، هي بكل جبروتها الآسر الشبق المشجع على الاقتراب. كانت تشبه القطة، في استكانتها وفي خربشتها! هذه العلامات التي كانت تتركها على جسد جمعة ورسغيه، لم تكن قرنفلة تفهمها، ولم تحاول أن تسأله، لكن دوي الضحكات الماجنة التي كانت تسمعها عبر الفيلا كان يغنيها عن السؤال، أحيانًا تسمع صوت سوط في الهواء، فتتساءل هل يضربها جمعة تأديبا كما ضربني؟ وتتذكر كل تلك المرات التي ضربها فيها جمعة بسوطه وحزامه، ثم تستنكر لنفسها حين تسمع الضحكات الماجنة تدوي مع ضربات السياط..

أمه ظلت تحب قرنفلة رغم كل شيء، فالفتاة لم ترتكب جريمة، بل هي تشعر بمأساتها بشكلٍ ما، فهي أنجبت قبل جمعة ثلاثةً ماتوا جميعًا في بطنها ولفظتهم جثثًا، وكان شعورًا مثيرًا للغثيان وهي ترى جثة تخرج منها زرقاء حتى لو كانت جثة ابنها، وجاء جمعة في ليلة جمعة فقرروا أن يسموه جمعة تيمنا باليوم المبارك، وذبح أبوه مائة خروف. ليس ذنبك يا قرنفلة أنكِ لا تنجبين، ليس ذنبك أبدًا.. لكن أمه لا يعجبها الحال المائل، تجاوزت عن شهر العسل في بيروت، وعن الحشيش والبيرة في الفرح الضخم وعن الغوازي اللاتي أحضرهن جمعة وعبد الودود، وتجاوزت عن فستان الفرح الذي كان يفضح أكثر مما يستر، وتجاوزت عن فكرة إقامة فرح من أساسه، كان يكفيها الأربعون ليلة تطعم فيهن المساكين والشحاذين والدراويش، قالت إن كله لأجل سواد عيون أم الحفيد المنتظر القادمة من العاصمة، لكنها لم تستطع أبدًا أن تتجاوز عن ملابس النوم الفاضحة التي تتبغدد بها لؤلؤة في الفيلا طوال اليوم أمام الخدم وأمام عبد الودود وأمام الجميع، حتى أنها حين تقابل ضيفا كانت فقط ترتدي (الروب دي شامبر) الوردي الزاهي الذي يفتن بمجرد رؤية لونه، وصعقت حين استيقظت من قيلولتها لتصلي العصر، فوجدت لؤلؤة تخرج من (البسيم) شبه عارية بالمايوه القطعتين المربوط بخيوط رفيعة كخيوط الشرف! كان الرد الذي لا يتزحزح على لسان جمعة: يا مّا هكذا يفعلون في العاصمة! ولما ثارت في وجهه، كرر بكل برود: هكذا يفعلون في العاصمة! صرخت فيه: إذًا هم ليسوا رجالا في العاصمة! وذهبت تشتكي لزوجها عبد الودود الذي كان يدرك أن القرية كلها تتحدث عن زوجة ابنه، لكنه في الوقت نفسه لم يكن يريدها ألا ترتدي هذا المايوه لأنه كان يعجبه كثيرًا ويذكره بالغازية التي قضى معها أجمل ليالي العمر!

... ...

لم يأتِ الحفيد طوال سنة من الانتظار المميت. وبدأ السؤال يهيم في الأفق وإن لم يسأله أحد، ألم يكن العيب في قرنفلة؟ هم لم يستعينوا بطبيب، فلم يكن في مخيلتهم أن يكون ابنهم عقيما أبدًا، لا بالتأكيد العيب في قرنفلة! حتى الشيوخ الرفاعية قالوا إن

عليها جن وقالوا إنهم أخرجوه، كانوا يضربونها بالشباشب حتى تفقد وعيها والدم يشر من جوانبها يكاد يغرقهم، ثم يشيرون لجمعة أن يضاجعها وهي في هذه الحالة ويخرجون، لكن ذلك أيضًا لم يجدِ! كانت تتحمل كصخرة، ولم تشتكِ أبدًا وكانت هي نفسها تعتقد أن العيب فيها لا في زوجها زينة الرجال. لكن السؤال لم يرحم أحدًا، وظل ينعب كغراب شؤم في رؤوسهم جميعًا، حتى أن قرنفلة كذبت نفسها مئات المرات وقد بدأ الشك يراودها أن العيب ربما ليس فيها، وبدأت أم جمعة تحوم حول لؤلؤة بالبخور، وكان هذا يغضب الأخيرة، فتذهب لجمعة تتثنى وتتدلل وهي تقول إن أمه تضايقها برائحة البخور لأنه يضيع رائحة العطر الفرنسي المثير الذي وضعته من أجله؛ فيثور جمعة في وجه أمه.

... ...

أثناء تنظيف الغرفة، وجدت الخادمة شيئًا تعرفه جيدا، ذهبت به إلى أم جمعة، استشرى الخبر في البيت، وصعد جمعة إلى غرفة لؤلؤة كعاصفة وسمع الجميع دوي الصفعة، ثم ساد الهدوء، ومرت ليالٍ طويلة، لم يبدُ فيها أي أثر للصفعة على لؤلؤة بل بدا أنها ازدادت جبروتا، وبدا جمعة تعيسا، كأنه هو من صُفع! كانت تجول بقميص نومها الأبيض الشفاف، دون أي شيءٍ تحته، وتتعمد أن تتهادى أمام جمعة، وكلما جاء لينالها، كانت ترمقه صامتة فكان ذلك يمزقه، فكر أن يؤدبها كما يؤدب قرنفلة، لكنه تراجع، كيف يضرب النعمة! هذا اللحم الرجراج المثير كيف يصيبه بأي أذى! كيف يلوث هذا البياض الحليب الصافي بعكر يده! ركع على ركبتيه وطلب السماح! كان لها شرطا واحدا، قالته وهي ترفع رجلها اليسرى على السرير فبانت من قميص النوم المشقوق من الجانب بكاملها تامة البهاء والبضاضة أمام وجه جمعة الراكع على ركبتيه جوار السرير يلهث..

ودوى في الفيلا صوت صفعةٍ أخرى..

فرقعة سوط..

ضحكة ماجنة كادت تصيب قرنفلة بالصمم!

ألف نعجة مذبوحة!

استمر الشك يطحن جمعة، وكاد الجنون يدمر خلاياه العصبية وهو يرمق لؤلؤة تتلألأ في المسبح وهي تكاد لا تغطي شيئًا من جسدها المثير، كان ينظر لبطنها ويعض أنامله غيظا، ويكاد يمضغ السيجارة. يتأمل خروجها المثير من المسبح، ثم وهي تنفض شعرها البني، فيتناثر الرذاذ الفضي، ثم وهي تجفف شعرها باهتمام في البشكير الأبيض الكبير، قبل أن ترفع رجلها فوق الكرسي لتمسحها برفق من أثر الماء.. يلقي السيجارة بحنق في الحديقة ويجأر مناديا على الخادمة فتهرول إليه فيسألها ووجهه لا زال يطل في النافذة، وظهره إليها: هل لا تزال ستك تبلبع هذا البرشام الزفت؟ فتؤكد الخادمة أنها من يوم وجدت شريط الحبوب في تلك المرة لم تجده مرة أخرى، فيسألها متوترا وهو يشعل سيجارة جديدة كي يغلب توتره: هل أنتِ متأكدة أنكِ تبحثين جيدا يا بهيمة؟ فتؤكد وتقسم أنها تبحث في أكثر الأماكن

السرية والتي لا تخطر على بال ملك الجن الأزرق نفسه. يصرفها، ويعود لتأمل لؤلؤة وهي تمسح رجلها الأخرى.. حبوب منع الحمل يا بنت الكلب! آه لو لم أكن أحبك! لكنتُ قتلتك! تقتل النعمة يا جمعة؟ تقتل جرة العسل؟ فليغضب عليك سيدك المرزوقي يا ابن الكلب! آه مدد يا مرزوقي مدد.. لو يرزقني الله بولد لكنت ذبحت ألف نعجة ووزعتهم على أحبابك يا سيدنا! يا رب بحق حبيبك المصطفى وبركات وليك الصالح المرزوقي!

... ...

جاء عبد الله.. وعم فرح شديد القرية بأكملها، حتى قرنفلة. قالوا نسميه عبد الودود، لكن قرنفلة قالت بل عبد الله، اقرنوا اسمه باسم الجلالة كي يبارك الله فيه.

وذبحت النعاج الألف!

... ...

كانت اهتمامات لؤلؤة تلك الأيام هي أن تستعيد شكلها الطبيعي الذي أفقدها إياه الولادة والحمل، فحاربت ترهل بطنها الخفيف بكل ما أوتيت من قوة، وحين جاءت سيرة الرضاعة، رفعت يديها لتحمي صدرها وقالت: مستحيل! لم يهتم أحد فقد خلب عبد الله لبهم، وأدر الله اللبن في ثدي قرنفلة لا يُعرف من أين!

استعادت لؤلؤة رشاقتها وإغوائها، وطلبت أن يغادر الطفل الفيلا لأنه يزعجها ببكائه، طلبت ذلك من جمعة وهو راكع جوار السرير يلهث، فنادى الخادمة لتأخذ عبد الله لبيت المعمودية!

... ...

ورغم كونه أمرًا مستحيلا أن تحمل لؤلؤة مرة أخرى، وقد اتخذت كافة الاحتياطات، إلا أنها فوجئت بانقطاع الطمث، وصعقت حين قال الطبيب: مبروك يا مدام..

كانت أربع سنين قد مرت على أول بكاءٍ لعبد الله، حين جاء محمد، الذي سمته جدته هذه المرة على اسم أخيها الأصغر الذي استشهد منذ أسبوع مع جنودٍ نَهَريين كثر آخرين وهم يركضون منسحبين على غير هدى في الصحراء، وطائرات العدو تقصفهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ينمو معًا؛ ما ينتمي معًا ***

أمسكته جدته توبخه بعنف، قالت له: لماذا لستَ مثل أخيكَ؟ وكانت تدرك أنه لا إجابة لديه، فدمدمت غاضبة: تربية خراء!

متى كان ذلك؟ ربما في عامه الخامس عشر، جاء به الشيخ عبد المولى إلى القصر، وسأل عن أبيه، لكنه كان يعرف الإجابة، ولما استحى أن يقابل أمه قال لجدته: لقد رأيته اليوم في طريقي إلى المسجد هو والأولاد الآخرين، يضربون ابن فتحية وينكحونه! وقبل أن تقولي شيئًا، الذي أمسكت به ينكحه، كان محمد!

... ...

كان عبد الله مقربا لقرنفلة، اعتاد أن يناديها ماما وينادي لؤلؤة يا خالتي، لم تكن لؤلؤة تهتم، كان ما يشغلها رحلاتها حول العالم، زارت باريس وبرلين الشرقية والغربية قبل أن يتحدا، وتاهت هي وجمعة في ضباب لندن، ثم سبحا في المحيط عند جزر هاواي، وقالت له وهما في الهند: لماذا لا تهديني قصرًا كتاج محل؟ وفكر ساعتها أن يكتب لها القصر باسمها، لكنه كان يخشى نتيجة ذلك..

تربى عبد الله في دار المعمودية، ولم يكن يحب القصر ولا زيارته، فقرنفلة – أمه التي لا يعرف غيرها أما – كانت في دار المعمودية، وهناك في القصر ضحكات ماجنة، وخالته لؤلؤة ترمقه بنظرات تخيفه، لكنه رغم ذلك كان يتسلل بعد صلاة الفجر، فيسبح قليلًا في المسبح ثم يغادر كأنه شبح. أدخلته قرنفلة الأزهر، كي يقترن دائمًا بدين الله فيبارك الله فيه! لم يكن يحب أكرم ولم يكن أكرم يحبه، فأكرم كان شقيا يحب ركوب الخيل والصيد، والخروج في القرية ليضايق الفلاحين، ويعاكس الفتيات، لكن عبد الله كان يفضل البقاء جوار قرنفلة، ليسمع منها حكاية أو ليقص عليها حكاية..

أكرم يصغر عبد الله بشهرين، وهو ابن صديق جمعة، عضو مجلس الشعب، كان يسكن في قصر يبعد عدة أمتار عن دار المعمودية، ويجاوره فيلا المأمور..

أما محمد، فكان يفضل القصر، ويحب البقاء جوار أبيه، وكان يقول للؤلؤة يا ماما ولقرنفلة يا خالتي، لم يقبل أن يرضع من قرنفلة، وجاء الطبيب، وقال لن يرضع من أحد غير أمه، تراجعت لؤلؤة للوراء لكن جمعة همس في أذنها بشيء ما، فومضت عيناها، وقالت: بل ألف، فابتسم وأكد: بل ألف! وقبلت أن ترضعه.

كان كلما بكى، ضحك جمعة وحمله ولاعبه وهو يقول له: ألا تعرف أن كل رضعة تكلف أبوك ألف جنيه يا ابن الكلب؟

... ...

ذهب محمد إلى المدرسة الخاصة اللغات التي يذهب إليها أكرم، كانت المدرسة في المركز الذي تتبعه القرية، وكانت مختلطة. كان يعود للبيت يود أن يحكي للؤلؤة كل

شيء كما يرى عبد الله يحكي لقرنفلة، لكن لؤلؤة لم تكن تمنحه أي وقت، كانت تعتصر خده مداعبة وتقول له اذهب واحكِ لتيتة!

اعتاد رؤيتها بقمصان النوم، تجول في البيت، وبدأ في ذاكرته الصغيرة يعد أشكالها وألوانها، وكان يذهب لقرنفلة ويسألها: يا خالتي لماذا لا ترتدين مثل لبس أمي الجميل؟ فتقول قرنفلة: هذا اللبس يا محمد لا يصح أن ألبسه إلا لزوجي! فينظر لها بعينيه البريئتين ويقول: لكنه جميل! فتهز قرنفلة رأسها وتقول له: حين تكبر ستفهم!

وحين تذهب لؤلؤة للاستحمام في المسبح، كان يراها تخلع ملابسها وتبقى بقطعتين صغيرتين، وكان يرى أبوه وهو ينزل معها مرتديا قطعة واحدة سفلية، فكان يخلع ملابسه ويظل بقطعته السفلية الصغيرة ويقفز معهما، في إحدى المرات سقط في الجانب العميق، ولولا انتباه جدته التي تتابع الأمور من بعيد، لنسيه أبواه وهما يلهوان!

اعتاد أن يرى أبوه يقبل أمه من شفتيها، فتصفعه على مؤخرته، فظن ذلك عقابا على القبلة! وحين ذهب إلى المدرسة وقال لأستاذته: هل إذا قبلتك يا مِسْ من شفتيكِ ستضربيني على مؤخرتي؟ قالت: لا بل على وجهك! فظن أن الكبار فقط يُصفعون على مؤخراتهم!

في تلك الليالي البعيدة التي كان يسمع فيها الضحكات الماجنة، اعتاد أن يتسلل من غرفته الصغيرة في القصر، ويقف عند باب غرفة أبيه وأمه، يشب على أطراف قدميه محاولا النظر من عين الباب عليهما، لكنه لا يصل، فيتسلل إلى المطبخ ويحضر كرسيًّا خشبيًّا صغيرًا ليقف عليه وينظر، وأحيانًا كان يسمع صوت الضحكات لكنه لا يرى شيئًا عبر العين، فيفتح الباب برفق، فيراهما عاريين وأمه تعتلي أباه والأخير مقيد في السرير، وضحكات أمه ترج الجدران، لا يزال يذكر هذه اللحظة التي التفتت فيها أمه نحو الباب، نحوه هو بالذات، نحو عينيه، وابتسمتْ!

... ...

لفت نظره هذا الاختلاف بين جسده وجسد أمه، وحاول التلصص أكثر من مرة بنظره هل لديها ما بين فخذيها مثل ما عنده؟ لكنه فشل، في كل مرة كان يراها مع أبيه لم يستطع أن يلمح شيئًا غير صدرها المتدلي، كانا دائمًا ملتحمين، إما هو فوقها أو هي فوقه، لكنها أغلب الوقت كانت فوقه! هو لديه صدر مثلها، لكنه ليس بحجم صدرها، يعزو ذلك لأنه لا يزال صغيرًا! لكن عبد الله ليس لديه صدر! قرنفلة وتيتة لهما، لكنهما مختلفان عن أمه، أمه أجملهن! في الأيام التالية، خشي أن تغضب أمه وتوبخه كما تفعل جدته، لكنها لم تفعل، وحين سمع الضحكات الماجنة، فكر أنها ربما ستغلق الباب، لكنه حين ذهب ليتلصص وجده مفتوحا كالمعتاد!

... ...

في المدرسة، كان يتأمل جسد الأستاذة، وهي تعطيه ظهرها وهي تنحني وهي تميل وهي تمشي وهي تنظر وهي تتكلم، كان ينظر ناحية صدرها ويقارنه بصدر أمه،

لكن صدر أمه ظل هو الأجمل! في إحدى المرات حين كانت المِسْ تمر من جانبه، ألقى كشكوله على الأرض، وتصنع أنه نزل ليلتقطه، كان يحاول أن يدرك هل لأستاذته مثل ما عنده أم لا!

... ...

في عامه الثامن ربما ذهب مع أكرم للصيد، كان أكرم يمسك ببندقيته الخردل ويطلق على العصافير التي تقف فوق الشجر، وكلما أسقط واحدا وضعه في كيس معه. قال لمحمد: الصيد للرجال، ألا تريد أن تصير رجلا؟ فيقول محمد: وماذا يحدث حين أصير رجلا؟ يضحك أكرم ويقول: تستطيع أن تنام مع البنات اللاتي أراك تتأملهن ذهابا وإيابا! احمّر وجه محمد ولم ينطق، فازداد صخب أكرم وهو يكمل: ما الذي يعجبك فيهن؟ أجاب محمد بلا تردد: الصدور! فانفتح أكرم في نوبة ضحك لم تنته إلا بدموع عينيه ثم قال: المؤخرات أجمل! وهو يطلق بندقيته ليصطاد عصفورة أخرى.

قرب انتهاء يوم الصيد، سأله محمد: ما الذي تعنيه بأن أنام مع البنات؟ برقت عينا أكرم وهو يقول: أن تقبلهن من شفاههن! قال محمد: وهل يمكنني أن أقبل صدورهنِ أيضًا؟ أومأ أكرم ثم كأنه تذكر شيئًا استدرك: لكن عليك أن تتعلم الصيد أولًا! عليكَ أن تكون رجلًا!

... ...

لما استيأس، حاول أن يدرك عن طريق الخادمة. تسلل ليلًا إلى المطبخ، كانت مستلقيةً في نوم عميق بعد تعب اليوم، تلفت حوله، ثم رفع ثيابها بحذر شديد، كان يخشى أن تستيقظ فتضربه على وجهه كما ستفعل معلمته، همهمت الخادمة، وحركت رجلها اليمنى، فتصنم. يضع يده على قلبه محاولا أن يخفض صوت الدقات كي لا يوقظ الجسد المسجي أمامه. لم يستطع أن يزيح فستانها المزركش الأخضر المليء بالورود إلا حتى ركبتيها، أدخل رأسه أسفل الفستان محاولا ألا يلمس جسدها، العتمة شديدة هنا، ورائحة عطنة لم يشمها من قبل، هل وصل؟ كيف يرى في هذا الظلام؟ سيمد يده بخفة ويلمس مرةً واحدة.. سعلت الخادمة فلم تكمل يده طريقها، وخرج من أسفل فستانها مهرولا يتعثر في قدميه الصغيرتين اللتين سبقتاه إلى غرفته الصغيرة.

... ...

لم يخبر أكرم بمغامرته الصغيرة، كان سيضحك منه، سيقف حاملا بندقيته الخردل ويقول ساخرًا: أنتَ لم تتعلم الصيد أصلًا كي تصير رجلا! سيفكر، كان يمكنني أن أقبل شفتيها دون أن تشعر، لكني أردت أن أعرف إن كان لديها مثل ما عندي أم لا! هز رأسه، لا لن أخبر أكرم. بعد أيام، كان يقف في برج الحمام محاولا أن يصيد حمامة بنبلة صغيرة، وجاءت عزيزة بنت الجيران، فتاة في مثل عمره تقريبا، قالت له لماذا يحاول أن يصطاد الحمام؟ لماذا لا يتركه يطير؟ قال لها إنه يريد أن يصير رجلا. وماذا ستفعل حين تصير رجلا؟ سأتزوج. هل تتزوجني؟ لا أعرف. ماذا

يفعل المتزوجون على كل حال؟ إنهم طوال الوقت يصرخون في بعضهم. لا أمي وأبي لا يصرخان، إنهما ينامان عاريان طوال الوقت. فعلًا؟ فعلًا لقد رأيتهما. وماذا رأيت أيضًا؟ لا أعرف لا أعتقد أن أمي لديها مثل ما لدي هنا، وخلع بنطلونه وقال: انظري؟ قالت: هذا غريب، ثم خلعت بنطلونها الصغير وقالت: انظر ليس لدي منه أنا أيضًا!

... ...

بدأ ما بدأ في عامه ربما الحادي عشر أو الثاني عشر، في بداية انتقاله للمرحلة الإعدادية، كان هو وأكرم يكبران سويا، رغم فارق العمر بينهما، وقتها كان أكرم في الصف الثاني الثانوي، يستعد للثانوية العامة، كان يسخر من محمد ومن جهله بأمور النساء، فقال الأخير مفاخرًا إنه رأى فرج عزيزة أكثر من مرة، ورأى فرج مدرسته الخصوصية التي تأتي له البيت. قال مؤكدًا: ليس لديهم مثل ما عندي، سأل أكرم: وهل عندك شيء أصلًا؟ احتد محمد: عندي شيء كبير، ضحك أكرم، فخلع محمد بنطلونه وقال منتصرًا: هل ترى؟ مد أكرم يده، وقال إنه جميل، بدأ خدرٌ ينسرب رويدا في عظام محمد من مداعبة أكرم، طلب الأخير منه أن يرتدي ملابسه، ذهبا إلى حقل قصبٍ مرتفع، خلع محمد ملابسه ثانية، فخلع أكرم بنطلونه هو الآخر، ثم احتضن محمد ووطأه برفق، وهو يسأله: هل أنت مبسوط؟

تكررت لقاءاتهما، كان أكرم يطلبها كثيرا، ولم يكن لدى محمد مانع، فقط كان يقول لأكرم إنه يريد أن يجرب أن يطأه هو، لكن أكرم كان يتحجج ويشتد في مداعبته فتنسيه النشوة. كانا يلجأن لأي مكانٍ مظلم، سلالم العمارات، حمام مركز الشباب، وغيطان القصب والذرة، وفي تلك الليالي اللاتي كانا يقنعان فيها أهليهما بالمبيت معًا. استمرا عامًا، ثم توقفت لقاءاتهما بسبب موت عبد الودود جد محمد، وبيع القصر، وانشغال أكرم في الثانوية، لكنهما كل حين كانا يتحينان زيارة أو عيدًا فيبيتان معًا..

في إحدى الإجازات، كانا يبيتان معًا، في بيت المعمودية، وكان عبد الله في نفس الغرفة، فخرجا، قال أكرم: تعالى أعلمك الصيد، وهو يغمز، صعدا إلى الخن، في وسط الليل، كانا فيما يفعلانه ولم يشعرا بالحفيف الخفيف، ثم قفز ذكر البط الأسود الضخم محدثا جلبة وهو ينفض جناحيه، انفلتا مهرعين واختبآ، كان ذكر البط الأسود الضخم جالس، يبدو بلا رقبة، يرمقهما بعينين ثابتتين صفراوين كعيني جنية. بطبط ذكر البط فضحك أكرم وهشه وهو يداعب ذكورته، محاولا إغواء محمد ثانية، لكن الأخير كان خائفا وهو يتأمل عيني ذكر البط الذي لم يهتز لحركة أكرم، ثم هرب مهرولًا إلى البيت.

بعدها حاول أكرم مرةً أخرى، لكن محمد كان يتلفت حوله وهو يرفض رفضًا باتًا، كان يقول له: البطة ستخبر ستي. في تلك الفترة لم تكن جدته تربي غير البط. كان يحرص على الاستيقاظ مبكرًا كل يوم، فيصعد مع جدته وهو تلقي الحب إلى ذكر البط الأسود وأولاده الخمسة الصغار، اندهشت جدته من حرصه المبالغ فيه، وتابعته وهو يركز بصره في عيني البطة السوداء الصفراوين. قالت إن الدنيا لم يعد

فيها خير، ودمدمت بدعوات ذكرت فيها أسماء الأسياد والأولياء الصالحين. ناولني يا بني الحب، أحضر الماء، نظف هذا الخراء، ثم تجلس وتفتح رجليها، تمسك البطات الصغيرة، وتفتح مناقيرها، واحدةً تلو واحدةً وتلقفها الحب والفول النيّ. وذكر البط الأسود الضخم يقف على مبعدة، وعيناه معلقتان بمحمد الذي كان يرمقه بدوره، ترحمت جدته على أيام لما كان عندهم خادمات يساعدنها، اليوم لم يبقَ سواها هي وقرنفلة، قرنفلة التي توضع على الجرح فيطيب، هذه اليمامة الطيبة التي تجدها في كل البيت وبجوار كل محتاج، كأن جناحان أبيضان لها، وعبد الودود الله يرحمه مطرح ما راح، مات مخمورًا تحت قدمي غازيةٍ في حانةٍ رخيصة، وقد توقف قلبه. جاء العار، وراحت المعمودية. ولولا أن بيت المعمودية ملكهم لكان الشارع مأواهم. وجمعة الله يعينه في هذه القضية التي لا تجعله ينام، وزوجته الملعونة التي تبعزق الورث يمينا ويسارا دون رقيب، ألا تكفي الديون؟ تتنهد، تقول لمحمد: لماذا لستَ مثل أخيك، ما شاء الله عليه! ماله الأزهر؟ لماذا هذه المدارس المعوجة اللسان الباهظة التكاليف؟ أنا عارفة بس! قال يعني فالح! لم يكن محمد معها، كان يريد أن يتأكد أن البطة لن تخبرها بشيء. كان يسمعها كثيرًا تكلم البط، تحكي لهم، ظلم عبد الودود، وأحوال جمعة، وتطلب منهم أن يدعوا لقرنفلة بالولد، وأن يأخذ الله الملعونة لؤلؤة التي تخرب البيوت العامرة، ولما يسألها محمد من تكلمين يا ستي؟ تقول: البط يا بهيم، البط. ده بيفهم أحسن مني ومنك.

في تلك الأيام؛ كره محمد رائحة أجساد البط، وصارت تقلب معدته، وتصيبه بغثيان شديد، لكنه يتحامل على نفسه كي لا يُشاع سره. وتحول ذكر البط الأسود الضخم لكائن شرس لدرجة أنه هاجم جدته كل مرة كانت تحاول فيها (تزغيطه)، ينفض جناحيه بشدة محاولا ضربها، ويمد منقاره وهو يطلق بحات مخيفة محاولا قضم يد جدته بمنقاره الغليظ. لم يكن يهدأ إلا بين يديّ قرنفلة، تربت على عنقه فيصدر أصواتٍ مألوفة، تضرب الجدة صدرها بيدها وتقول: بخت! شوف دكر البط الناقص. فتضحك قرنفلة وتقول: الحَبْ يا خالتي. ناوليني الحَبْ.

صار محمد هزيلا، كلما أكل طعامًا، يقيئه مرةً أخرى، وهو يشعر برائحة البط في فمه، يلقي نفسه في المسبح، بعد كل صباح، ويغرق نفسه بعطور أمه الفرنسية، لكن رائحة البط تزال تزكم أنفه طوال اليوم. مرضت قرنفلة، لم يعرفوا ما أصابها، حمى شديدة وتتقلب في السرير كمن أصابها طلق الولادة، تعض الملاءة بعنف حتى سمعوا صوت احتكاك أسنانها المتعبة ببعضها، كانت تصيبها نوبات تكاد آذانهم تتفجر فيها من أنينها، ثم تهدأ وتعود كما كانت، تتصبب عرقا وتبتسم ابتسامتها الشفافة ووجهها المليء بأمارات الطيبة يزداد نورًا. جاء عبد الله من معهده فورًا، جمعة أبلغوه لكنه مشغول، قال أحضروا طبيبا وأنا سأحضر فور ما أستطيع. في الأيام الأخيرة، ازداد ذكر البط عصبية وشراسة، ولم تعد الجدة قادرة عليه، فيئست منه، وهي تضرب على صدرها كعادتها وتضيف: بخت أسود! ولم يعرف الطبيب دواءً لأنه لم يدرك علة، شعر بنتوءاتٍ حادةٍ في الظهر، فطلب أن يقلبوا قرنفلة على بطنها، وقال سأحضر غدًا. ولم يكن لحضوره داعٍ. نامت قرنفلة، وانبثق من ظهرها جناحا يمامة أبيضان منيران رفرفا بألق. كان عبد الله جالسا يرتل جوارها القرآن،

كبر وهلل وبسمل وحوقل، وجاءت جدته فزغردت، وعلت قرنفلة، كانت منيرة، يحملها جناحاها، رفرفت إلى السماء، أشارت لهم تودعهم، وطارت وسط السحاب الأبيض تصحبها كائنات نورانية مجنحة.

... ...

جاء جمعة بعدها بليلة، خاصمته أمه ولم تقل له كلمة واحدة، بدا شيخا متهدما، جاءت معه لؤلؤة متألقة بفستان أسود يجعلها تبدو أصغر عشرين سنة، لم تلتفت الجدة لكل ذلك، كان يشغلها ماذا ستطعم الناس أربعين ليلة كما أوصت قرنفلة. خرجت إلى الخن، يا للبطات الصغيرة، لا تسمن ولا تغني من جوع، وذكر البط الكبير وحده لا يكفيهم أنفسهم فكيف بكل الآتين؟ سمت الله وقررت أن تذبحه، كان محمد واقفا جوارها، وذكر البط يهرب يمينا ويسارا ويحاول القفز عبر السور، طلبت الجدة من محمد أن يمسكه، لكنه كان بمجرد اقترابه منه يخاف ويتراجع مسرعا مطلقا صريخا مضحكا، فتصرخ فيه الجدة، لماذا لست رجلا كالرجال قبحك الله. وجهه يحمر ولا يعرف ماذا يتصرف وجسده الممتلئ الصغير لا يدري كيف يتوقف عن الارتجاج. تكاد الجدة تمسك ذكر البط بعد مطاردات أمريكية على السطح، لكن ذكر البط يقفز من الدور الثالث، يطلق محمد صياحا ظافرا، وتشهق الجدة، ويكاد الموت يصيب قلبها، وهي تتخيل الفضيحة، لكنها تلمح جناحي يمامة أبيضين منيرين يرفرفان ويدين من نور تحملان ذكر البط الساكن، تهللت الجدة وأخرجت السكين، ذبحت ذكر البط الساكن بين يدي قرنفلة، فوضعته الأخيرة على السطح برفق واختفت. ظلت البطة تركض وتضرب نفسها بالحائط وهي مذبوحة، وكانت تقترب من محمد فيبتعد راكضا وهو يصرخ، والجدة تغلي ماءً. كان محمد يراقب البطة ويبكي، يتمنى لو يكف عن مشاهدتها وهي تركض يمينا ويسارًا، تضرب نفسها بالجدران، والدم يئز من عنقها المجزور، لكنه لا يستطيع، كان حريصا على المشاهدة، كي يطمئن تمامًا لموتها، ولم يتوقف عن البكاء حتى حين انتفضت البطة فجأة وتحشرجت ثم سقطت ساكنة..

طهت الجدة البطة وهي تتمتم بأدعية وأذكار، وحين نصبت المائدة، وجاء بنات القرية ليساعدنها، كانت تقطع من البطة وتضع في كل طبق، وتروح البنات وتجيء، بأطباقٍ ملأى بالبط رواحا وغدوًا، واستمر الطعام أربعين ليلة، وتبقى بعض البط أيضًا، رفض محمد تمامًا أن يأكل، وقرر عبد الله أن يأخذ بعضا منه إلى دراويش الأزهر، فربتت الجدة على ظهره، ولم ينشغل أحد بلؤلؤة التي كانت تستعد للسفر، ولا بجمعة الذي انزوى في ركنٍ بعيد يتمتم بكلماتٍ لا يفهمها أحد.

... ...

موت البطة جعله حرًّا من جديد، بحث عن أكرم، كان الأخير قد أنهى الثانوية، ويستعد للالتحاق بأكاديمية الشرطة، قال له أكرم: ألا تعرف أني سأخطب بنت المأمور؟ سأل: ألا يمكن أن نتبادل الأدوار مرة واحدة قبل أن تغادر؟ هز أكرم رأسه أن لا وقال ضاحكا: اذهب؛ عندك ابن فتحية!

... ...

كان ابن فتحية مستضعفًا في القرية، يمسكه العيال ويضربونه على مؤخرته، ويأمرونه أن يمص. كان يصرخ فيهم باكيا: الحاجات دي وحشة بتغرقني. كانوا هم في نهاية الإعدادية، وشواربهم بدأت تجد لها مكانا فوق شفاههم العليا، ومحمد بدأ يصير مثل أبيه وجدته، طويلًا وعريضًا، ويتدلى منه بطن صغير رجراج وثديان صغيران. أمسكته جدته توبخه بعنف، قالت له: لماذا لستَ مثل أخيكَ؟ وكانت تدرك أنه لا إجابة لديه، فدمدمت غاضبة: تربية خراء! صفعته على وجهه: ستلعن يا ابن البهيمة، هل ينكح الرجل رجلًا؟ ولما سألها من أين عرفتِ؟ قالت له بصوت مبحوح: البط أخبرني.

... ...

هذا البط يجب أن يموت!

... ...

صعد إلى الخن، شمس الخريف تغرب، ودنا الشتاء حتى كان قاب قوسين أو أدنى، كان بيده سكين صغير، وكان مصمما على ذبح البطات الخمس الصغيرة. فتح باب الخن، أمسك بواحدة، كانت تصدر أصواتٍ بطبطةٍ حادة ومضطربة. أوشك على الذبح حتى سمع بلبلة أجنحةٍ تنتفض، ثم قفز ذكر البط الأسود الضخم إلى نفس مكان قفزته الأولى، محدثا جلبة وهو ينفض جناحيه، جلس بلا رقبة، يرمقه بعينين ثابتتين صفراوين باردتين، ويصدر بحاتٍ لا تستطيع جنية الصدى أن تعيدها*****. ارتجف، وبحذر أنزل البطة الصغيرة من يده إلى الخن، وقال وهو يتراجع مذعورًا: إن لم تتوقف عن إخبار جدتي بكل شيء سأذبح أولادك هل تفهم؟

... ...

حل الشتاء ضيفًا ثقيلًا، ينخر العظام، ويحوي في طياته حزنًا ممطوطًا ومصائب تبحث عن الدفء فاجتمعت معًا. كانت لؤلؤة قد سافرت، لا أحد يعرف إلى أين بالضبط، ولا أحد سأل جمعة الذي أخذ يبيع من فدادين الأرض التي ورثها، كي يسدد الديون التي أخذت تتراكم فوقه كالمطر الذي يتجمع في بركة طين. بدا على الجدة العجز والتعب، ومنذ وفاة قرنفلة ولسانها لا يخاطب لسان جمعة. عبد الله رحل للعاصمة ودخل كلية التربية، يريد أن يصبح معلمًا للغة العربية والدين، وكان أهل القرية يحبونه لفصاحة لسانه وحسن خلقه، ويقولون ابن قرنفلة اليمامة راح، ابن قرنفلة اليمامة جاء، مدد يا أسيادنا مدد.. في ذلك الشتاء القارص، ملأ محمد البانيو بالماء الساخن، وأخرج مجلة صفراء فيها صور لفتيات عرايا في أوضاع مثيرة، استلقى في البانيو، يدخن سيجارة وهو يشاهد المجلة مستمتعا، يسمع صفير الهواء بالخارج فيزداد دفئا. بدأ يمارس عادته السرية وكاد أن ينتشي حين سمع خشخشة صغيرة فانقطعت خيالاته، وتلفت حوله في الحمام الواسع، فلمح بطة صغيرة سوداء من البطات الخمس قد تسللت طلبا للدفء. ارتعب محمد وقفز من البيانو ولسعته السيجارة في بطنه قبل أن تسقط في مياه البانيو فتحدث وشوشةً خافتة، التصق بالحائط: أيتها البطات الوسخة اللعينة، ماذا تريدين مني؟ وأخذ يطلق أصوات حمقاء يبعد بها البطة التي كانت تبحث عن الماء الدافئ. وحين قفزت البطة

إلى الماء، صرخ محمد ورفسها بقدمه فطارت واصطدمت رأسها الصغيرة بماسورة الدش فانفجرت وتناثر الدم، واختلط دفء الماء بسخونة الدم، هرول محمد مسعورًا، ارتدى ملابسه، ولم يبالِ بالبرد الشديد في الخارج وخرج إلى الخن، الذي كانت الجدة قد أدخلته للبيت اتقاءً للبرد، أخرج البطات الأربع الباقية، وانتزع رؤوسها بيده مغلولا، وهو يصرخ: لن تراقبيني بعد الآن، لن تراقبيني. أغرقه الدم وانتثر في كل ساحة البيت، وغشته الرائحة، كان يشعر أنه يركض منذ ألف عام، صعد إلى غرفته، سقط نائما كما هو، كبطةٍ سوداء صغيرة نُزعت رأسها!

... ...

في الصباح؛ جمع ملابسه المتسخة بالدم وكومها في كيس بلاستيكي وخبأها، نزل فوجد جدته جالسة وسط الأشلاء تولول: بخت أسود! يا بخت أسود! إن هذا البيت صار ملعونا، الخير راح منه بموتكِ يا قرنفلة، لا خير سيدخل هذا البيت بعد الآن. تصنع الدهشة وقال: ماذا حدث يا ستي؟ قالت جدته وهي تضرب رأسها: الشياطين قتلت البط.

... ...

اعتلت الجدة، وصارت طريحة الفراش، وراح بصرها. ذلك اليوم أخذه جمعة وهو ذاهب لزيارة أبو أكرم، دخلا إلى الفيلا الفسيحة، ورحب بهما أبو أكرم عضو مجلس الشعب، جلسا، سأل محمد عن أكرم، فقال أبوه ضاحكا إنه عند خطيبته.. الشباب مستعجل أوي يا جمعة. ضحك جمعة ضحكة صغيرة، وقال: أخشى أن يفنوا شبابهم كما أفنيناه نحن دون داعي! تحولت ملامح أبو أكرم إلى الجدية: جمعة، إن البشوات لا ينسون رجالهم، لكن أنتَ لا بُد أن تعطيهم كي يعطوك! أنا أعطيتهم كثيرا وأنت تعرف ذلك جيدًا! لسنا مختلفين لكن القضية الأخيرة هذه صنعت شوشرة وبلبلة لم يكن لها أي داعي. ومنذ متى يهتم البشوات بهذا الهراء؟ هذه قضية فساد ضد وزير يا جمعة، أنت رجل قانون وعارف! لو خسرنا هذه القضية أنا وأنت سنكون أول الهالكين. ولو! لا مش ولو، جلال عطية هذا ليس سهلًا، معيد في كلية الحقوق، وأنت تعرف أنه نظيف، ونقابة المحامين والمعارضة كلها واقفة وراءه، وسيفتحون القديم والجديد.. يعني أنا سأباع؟ سأصير أنا كبش الفداء؟ أنا لم أقل ذلك.. أو قلته، ثم قام واقفا: أنا لن أقع وحدي، هل تفهم؟ قال أبو أكرم باردًا: لو كنت محاميا بارعًا لما أوقعت نفسك وأوقعتنا في هذا! أنا طول عمري أخدم الحزب، ولولا خبرتي القانونية لرحتم كلكم وراء القضبان. جمعة على من تكذب؟ عند أول قاضي غير مرتشٍ، وأول محامٍ حقيقي، ها أنتَ تثبت أنك محامي فاشل.

قام جمعة مغادرًا، شادًا ابنه من يده، وعند الباب...

- جمعة...

التفت،

- أنصحك – لأجل العيش والملح – أن تأخذ إجازة، أنتَ والأولاد، في مكانٍ بعيد، بعيد جدًّا.. لا يعرفه أحد..

.....

أثناء عودتهم للبيت، كان جمعة مغموما، ذراعاه تخذلانه وممدودتان جواره كأفاعٍ ميتة. بجانبه يسير محمد، يتأمل بيوت القرية بلا هدف. فجأةً سقط جسمٌ ما على رأسه، وشعر بوخز أظافره في شعره، ونفض جناحيه في أذنه، وخربشات ملأت رقبته وصدره. يصرخ مرعوبا، والدموع تفر من عينيه كمساجين فتح لهم باب السجن فجأة. كان ذكر بط أسود ضخم قد سقط فوقه من سطح أحد البيوت. أمسك جمعة البطة وفك الاشتباك بين أظافرها وبين جسد ابنه، وهو يقول محسورًا: لم يعد لنا مكان في هذا البلد، لم يعد لنا مكان.

رسائل

" عزيزي الله؛

أحتاج أن أتكلم بشدة. أحتاج أن أتكلم دون أن يناقشني أحد أو يستمني في وجهي رأيه في الدنيا ومآسيها، رأيه الذي لن يضيف إليّ غير المزيد من الوحدة. أريد أن أتكلم ولا أعرف غيرك قد يسمعني، لا أعرف غيرك لن يقول لي: تحب امرأة متزوجة؟ يا للقرف! لا أعرف غيرك لن يقول لي: أنا أقدر مشاعرك جيدا لكن عليكَ أن تخطو للأمام، وأن تتجاوز هذا الحب! لا أعرف غيرك أصلًا! في بيتي هنا، وحيدًا كدب في قطبه المتجمد، أو كغراب منبوذ لأنه فقط قد جاع وسرق فرخًا! غراب منبوذ قد عاقبه سربه وقطّعوا له ريشه، هل صار أفضل منهم حين صار وحيدًا أم صاروا هم أفضل منه؟ العزلة قوة، وهي الطريق الذي علينا أن نسلكه كي نصل إليكَ.. أليس كذلك؟ لماذا جعلتَ الأمور بهذه الصعوبة؟ تعرف طبعا هذا الصمت! ألا تخبرني كيف أقضي عليه؟ أحتاج إلى الكلام، إلى ضوضاء الحياة، إلى أبواق التنبيه وإلى الصياح في وجه رجل اصطدم بكتفي دون قصد، وإلى إشعال سيجارة من سيجارة مشتعلة في فم رجل آخر، وإلى الرقص في بار حتى الفجر دون حتى أن أشرب الخمر، فقط أرقص، هل الرقص حرام؟ لا أظن أنكَ بهذه القسوة! لماذا لا أحب الخمر؟ سؤال منطقي! دعكَ من كونك حرمته، لكني شربته مرة وكنتُ أحسبني سأنسى! لكني وجدت الذكريات تصير أوضح، ووجدت الحاضر يختفي حثيثا وتتسع مساحة الماضي أمام عيني، هل لهذا حرمته؟ كنت أعدو في كل مكان أحاول الهرب من شيء يلاحقني، لا أعرف كم شخصٍ اصطدمت به، وتلك الفتاة التي كانت تحوم حولي تود أن تراقصني ماذا جرى لها؟ لا أعرف أي شيء غير أني عدوتُ نحو الحمام، وأخذت أقيء كل ما في بطني، حتى أنهكني التعب.. تأملت حالي لحظة وأنا راقد على أرضية الحمام السيراميك الباردة، أهكذا تصير في النهاية يا نادر؟ شابٌ يرقد سكرانا شريدا جوار مرحاض؟ يومها عرفتُ أن انتصاري الوحيد الذي أملكه لذاتي هو أن أنجح، أن أقفز لها من شاشة التلفزيون، أن تفتح نشرة الأخبار كل يوم فتراني! أن أكون نجما حتى لو لم تعرفني اليوم ستعرفني غدا، المهم أنها ستندم! نعم! ستندم! هل ستندم يا رب؟ الآن قد مرت سنة على زواجها، وربما تكون قد أنجبت طفلا، هل سمته آدم كما كنا ننوي أن نسمي ابننا؟ يا الله أنا أريد أن أتكلم، أريد أن أشكو هذه اللحظات التي أعود فيها إلى البيت وحيدًا، أفتح الباب، أدخل، أضع الحقيبة على الكنبة، أدخل الحمام، أغسل وجهي،

أتوضأ أو لا أتوضأ على حسب! أخلع ملابسي، أرتدي ملابس البيت، أصلي أو لا أصلي على حسب! أدخل إلى المطبخ، أطهو أو لا أطهو على حسب! آكل أو لا آكل على حسب! أدخل لسريري، أرقد هادئا كتوت عنخ آمون، أتأمل السقف الأبيض الذي يتقشف من المنتصف ويتساقط دهانه، أو أستدير لأتأمل الجدران، وتلك الصورة على الكومود الصغير، وليلى فيها تحضنني من الخلف وأنا أحملها على ظهري! أنام أو لا أنام على حسب! أحلم بكوابيس أو لا أحلم على حسب! أستيقظ أو لا أستيقظ على حسب! أخرج من غرفتي، وقد ضقت بالصمت الرهيب هذا، وأشتاق للصخب في الخارج، فأقوم لأرتدي ملابسي مستعدا للخروج، ثم وأنا أمام الباب، أستشعر بشيءٍ يناديني من ورائي، فألتفت، فأجد الصمت ينظر لي ببراءة، وأقرأ في عينيه أنه يريدني معه، أتوقف لدقيقة، والصخب يناديني من أسفل البيت، لكني أخطو خطوة نحو طاولة السفرة وأسحب كرسيا وأجلس، فيجلس الصمت أمامي، ويظل الصخب ينادي لا يكل ولا يمل، حتى أقوم – ربما بعد ساعة – فأغلق الشباك كي يخرس، وحين ألتفت لا أجد الصمت جالسا، وأجدني وحيدًا وحيدًا وحيدًا وحيدًا أكثر من اللازم، فأنام!

وحين أجالس الصمت، أحيانًا يطلب مني أن ألقي عليه قصيدة، فكنت أقوم فأحضر الكتاب الذي أهدتني ليلى إياه: الأعمال الكاملة لأمل دنقل، وأفتحه، أحيانًا عشوائيًّا وأختار أي قصيدة، وأقلب صفحات الكتاب فأجدها تخرج لي وحدها، قصيدتها المفضلة: صوت الكمان، كنت أقول لها دائمًا: بل اسمها شجوية، فتصر: لا بل صوت الكمان! لا شجوية! ألا تقرأ لي يا حبيبي؟ فأسيل عسلا أمام صوتها الدافئ وعينيها الساحرتين، وأمسك بالكتاب وأرفعه أمامي، وترفع هي كمانها، وتبدأ في العزف، فأبدأ في القراءة:

لماذا يتابعني أينما سرتُ صوت كمان؟

أسافر في القاطرات العتيقة كي أتحدث للغرباء المسنين

أرفع صوتي ليطغى على ضجة العجلات

وأغفو.. على نبضات القطار الحديدية القلب

تهدر مثل الطواحين

لكنها بغتةً تتباعد شيئًا فشيئًا

ويصحو نداء الكمان

لا أكمل القصيدة، وأرفع رأسي فأجد الصمت جالسا يتأملني، ولا أجدها، ويخالط الصخب صوت كمان يأتي من بعيد، فأغمض عيني وأفتحها فأجدها تجلس مكان الصمت، بكمانها، تعزف نفس اللحن الذي كانت تعزفه على هذه القصيدة دائمًا، نفس اللحن الحزين، فأرتجف وأنا أجدها أمامي، وأقوم برفق كي لا تنتبه لي، وأخطو خطوتين صغيرتين، وهي لا تزال منهمكة في عزفها، وحين أكاد أصلها، أقفز نحوها محاولا احتضانها، فتتلاشى كأن لم تكن! ويعلو الصخب أكثر ويغضب الصمت، ويتباريان أيهما يصم أذني أولًا! أدندن بلحن الكمان الذي كانت تعزفه

ليلى، وأشعر بنوبة بكاء، أحاول أن أبكي فلا أستطيع، أجلس ضاغطا على عيني لكن ذلك لا يجدي، أصفع نفسي، أو أقرص أرنبة أنفي، لكن الدموع تسري في مجراها داخل صدري فقط، فأشعر أنها لا تغسل قلبي، لكنها تمر على جروحه بمائها المالح، فتلهبه ويزداد ألمه! أريد أن أبكي يا رب! ألقي الديوان من على الطاولة، ثم أعدو نحوه لأحمله وأمسح الجزء الذي لامس الأرض برفق، أقبله وأعتذر له، وأتأمل الإهداء الذي كتبته لي، ثم أرتجف، وأشعر بالدموع من جديد، أريد أن أبكي وأن أتكلم، لماذا تفعل ذلك بي؟ وهي قالت لي: إن الأقدار فرقتنا! وصرخت بها: لكنّا من نصنع أقدارنا، هزت رأسها وقالت: ليس بمقدور أحد أن يوقف القدر! وما القدر إذًا؟ أنا أسألك ها هنا بيني وبينك، ما القدر؟ القدر أن تمنعني عن امرأةٍ أحبها وتزوجها بغيري؟ لا، لا تقل إنها خياراتنا، فالأمر ليس باختيارنا! ألسنا لو علمنا الغيب لاخترنا الواقع؟ إذًا أنتَ من يختار لنا في النهاية! ألست تعرف كل ابن آدم شقي أم سعيد وكتبت عليه شقاوته أو سعادته؟ لماذا إذًا أتينا للدنيا؟ هل خلقت أناسا كتبت عليهم الشقاوة وكتبت ماذا سيختارون في دنياهم، ثم جئت بهم للدنيا كي تؤكد لنفسك صحة كلامك؟! أنا لا أفهم؛ إن كنت خلقتهم أشقياء واخترت لهم كل شيء، فما جدوى أي شيء؟ وهل كان الكافر ليؤمن لولا أن تجعله أنتَ يؤمن؟ فلماذا لا تجعله يؤمن؟ لماذا تكتب على أناسٍ أن يدخلوا النار دون أن يكون لهم دخل في ذلك؟ وعمر بن الخطاب ألستَ أنتَ من رقق قلبه حين قرأ آيات طه؟ لماذا لم ترقق قلب أبي جهل؟ لماذا إذًا أحضرتنا هنا؟ كي نتعذب؟ لماذا علينا أن نشقى كل هذا الشقاء طالما أنتَ في النهاية كنت تعرفه وكتبته؟ أين الرحمة في ذلك؟ لماذا جعلتني أقابلها وألقيت حبها في قلبي وحبي في قلبها، إن كنتَ تعلم أنها ستتزوج رجلا غيري؟ لماذا يحدث كل ذلك؟ لماذا؟"

أقصر من لحظة، وأطول من قرن

بعد أن انتهيا، أسند نادر ظهره إلى الحائط. لم ينتهيا بالمعنى الكامل للانتهاء، أثناء اشتعالهما، لمح نادر في عيني ندى تلك النظرة البائسة، ورأى نفسه في عينيها ينظر بعينين أكثر بؤسا. فقام من فوقها وجلس جوارها..

سألته: ما بك؟

- لا شيء.. تعبت!

لم تقل شيئًا وشعر أنها ممتنة لتعبه هذا. لفت الغطاء حول جسدها العاري وألقت رأسها على كتفه، تمتمت وهي تمسح بيدها على صدره: آسفة!

تمتم ولم يكن معها: علامَ؟

وساد صمتٌ عميق، وكأن سؤاله بلا معنى، وهربت منه ذاكرته، لأيامٍ بعيدة، وليلى بين يديه، تائهين في بحرٍ من القبلات، كان الأمر مختلفا عما يشعر به مع ندى، فمع ليلى كان الأمر أكبر من شهوة، وكان هناك دفءٌ يدفعه إلى تقبيل كل مليمتر من جسدها، حتى أظافر أقدامها كان يحب تقبيلها، أما مع ندى، فهو يتوجه نحو منطقتين أو ثلاث، يندفع نحوها منطلقا من عقاله كوحش، كان يرى نفسه يتحول حيوانا في

السرير، لا رجلا شاعرا يعرف كيف يذيب امرأته عشقا، ورغما عنه، ورغم محاولاته المستميتة أن يتجاهل هذا الإحساس اللعين، كان يشعر دائمًا بالخيانة، وكان يرى ليلى تقف جوار السرير وتشاهدهما، كان ذلك كافيا لتموت فحولته فورا وتنكسر، وكان ذلك قاسيا في حد ذاته، يتذكر لما قالت له ذات مرة: أنتَ لن تستطيع أن تنام مع أي امرأة غيري! سألها ضاحكا: لماذا؟ قالت بدلال: هكذا؛ ستصيبك رهبة ولن تستطيع فعل أي شيء! قال صادقًا: وأنا لن أحاول أصلًا! أنتِ تغنين عن كل بنات العالم! ضحكت وقالت: حتى وأنا لستُ بيضاء؟ قال لها: وما المهم في ذلك؟ ضحكت بخبث: لا تكذب أعرف أنك تحب البيضاوات! وندى بيضاء يا ليلى! لكنه لا يستطيع أن يملأها بذكورته! اتفقا على أنه مسموح بكل شيء سوى شيء واحد... شيء واحد يا ندى، قبلة واحدة، لكنها رفضت، قال أحمد: لكني أحبك، لا أعرف كيف تقاومين ذلك! قالت: وأنا والله أشتاق لكَ جدًّا، لكني أريد أن يحدث كل شيء بطريقة صحيحة يا أحمد! قال: وما الذي بيده لأفعله أنا؟ قالت: لا أعرف! قال: أنا فعلت كل ما أستطيع ولو تجدين في يدي شيئًا لم أفعله أخبريني به! هزت رأسها وقالت: لا والله أعرف أنك فعلت ما عليك، أنا لا أعرف ما الذي يمكن عمله! لماذا يضطروننا لذلك يا نادر؟ وكادت تقول يا أحمد! أجفل وقال: لأنهم أغبياء يا ندى! وكاد يقول يا ليلى! مسحت صدره وهي تكمل: ألا يمكن أن تسير الأمور بشكل صحيح؟

- ممكن بالتأكيد يا ندى! قال نادر بعصبية.

لم ترد وهي تكاد تقول له إنكَ لم تشر إلى الزواج بعد يا نادر! ولماذا تفعلين معه ما تفعلين يا ندى؟ أتعوضين تحفظك الذي ظللت تحسبين أنه من ضيع أحمد منك؟ وهل ضاع أحمد لأنكِ لم تقبليه؟ لا يزال اليوم عالقا بذاكرتك، كشوكة مغروسة في القلب إذا خرجت ملأ النزيف الدنيا، ولمُتِّ، هذه الشوكة التي يمر عليها بحر الذكريات بموجه المتلاطم، فيصيبها بعلوه وانخفاضه، فتهتز كشحنة كهربية تضرب جنبات العقل.. في الهاتف، قال: ندى.. لقد فعلت ما في وسعي، لكني لم أعد أستطيع! قلتِ: وما السبب؟ قال: أبواكِ.. تعرفين.. قلتِ: أبواي فقط؟ قال: لا وهناك أشياء أخرى! قلتِ: توقعت ذلك! قال: أتمنى لكِ حياة سعيدة مع شخصٍ يقدر ما تفعلينه. وكانت المكالمة أقصر من لحظة وأطول من قرن! شخص يقدر ما تفعلينه! وما الذي أفعله خطأ؟ أريد أن أفعل الأشياء بشكل صحيح! أن أقبله حين يكون زوجي، وأن أمسك يده حين يكون زوجي، لا أريد أن أرتكب أخطاءً! المفترض أن يشجعني على ذلك، أن يسعد لذلك! أن يقول قد اخترت فتاةً محترمة! لكنه يقول لي: أحب الفتاة التي تجن معي، فتضرب بكل شيءٍ عرض الحائط! ألا يمكن أن نجن في الوقت الصحيح يا أحمد؟ لكنه لم يطلب الكثير! طلب فقط أن أقبل منه هديته! ولماذا رفضتها يومها؟ لماذا رددته خائب الوفاض؟ جاءني في الكلية، أمام كل الطلبة، وأخرج خاتما وقع على ركبتيه، وقال: ندى أحمد علي.. أنا أحبك! وظل هكذا، لكني تلفت حولي ورأيت كل الطلبة ينظرون! صرخت فيه: ما هذا الذي تفعله؟ هل جننت؟ احمّر وجهه وقطب حاجبيه وقالت صديقتي التي كانت تقف جواري: ندى لا تقبل هدايا من أحد! نظر لي نظرة أن اجعليها تخرس، لكني لم أستطع، ثم قلتُ له: تعالى.

وخرجنا من الكلية، إلى مكان صغير مختبئ، قلت له: ما هذا التصرف غير المسئول؟ ماذا إن رآني أحد زملاء بابا؟ ماذا سيكون موقفي حينها؟ قال في رفق: لم أحسبها هكذا، أنا فقط أردت أن أسعدك! قلتُ: على عيني ورأسي، لكن ليس هكذا تبهرني! قال: إذًا كيف؟ قلتُ: بأن تسعى أكثر كي نكون سويا بالشكل الصحيح! كرر: كيف؟ قلتُ: صدقني لا أعرف، وقالت صديقتي كلامًا كثيرا عن أبي وأمي، لم أسمعه، كنتُ أمسك الخاتم الذي أحضره وأتأمله، كان عليه وردة بها حجرٌ كريم بنفسجي، كان جميلا جدًّا، ولبسته في إصبعي وشعرت بقلبي يدق بعنف، وبدفءٍ هائل يغزوني، ثم خلعته ووضعته في علبته، قال: إذًا لن تأخذي الخاتم؟ قلتُ له: ماذا ترى؟ قال: أنا سؤالي محدد، لن تأخذي الخاتم؟ قلتُ: وماذا سأقول في البيت؟ قال: قولي أنكِ اشتريته لنفسك! ضحكت صاحبتي وقالت: لكنا لا نشتري لأنفسنا هذه الأشياء الجميلة!

شعرتْ بنادر يضمها إليه أكثر ويقول: هل تعرفين تلك اللعبة التي تصنع فقاعات الصابون؟

- نعم أحبها!

- أتخيل دائمًا أن لدي واحدة لكنها أضخم، أنفخ عبر عينها المدورة في وجه كل من يضايقني، في وجه كل شيء كريه خانق حولنا، في وجه الأقدار، والخيانة، والناس المقززة التي لا تتركنا لحالنا، ولا تهتم بعد ذلك إن شقينا!

- أنا أيضًا أتخيل أن لدي واحدة، لكني لا أريد أن أنفخها في وجه أحد!

- ماذا تريدين إذًا؟

- أريد أن أنفخ فقاعة كبيرة، فأدخل فيها، وآخذك معي، فتحمينا من العالم وما فيه، أريد أن أختبئ داخلها من كل ذلك.

- لا! هكذا تصير الحياة سجن! الحياة داخل فقاعة؟

- ليست سجنا على العكس، الفقاعة تتمدد بحجم سعادتنا، سعادتنا هي التي ستجعلها واسعة.

- أنا أريد أن أنفخ في وجه كل من أكرههم ومن حرموني من أشياء أحبها فقاعات، تبتلع الواحد منهم فقاعة، وتظل تهيم في الأفق وهي تحمله، حتى تنفجر به، وتتناثر أشلاؤه في كل مكان، تخيلي فقاعات كبيرة كثيرة تحمل كل من نكرههم بعيدًا عنا، وتنفجر بهم في صحراء مثلًا أو فوق جبل، حتى لا يصيبنا رذاذ الدم!

- وهل تظن أن من سنكرههم سينتهون يا نادر؟

- لا أعرف!

قام نادر متوترًا من جوارها، وارتدى ملابسه، وقال: لا بُد أن ثمة مكان يمكن أن أشتري منه هذا الشيء الذي يصنع الفقاعات!

وعادت ضحكات صاحبتها لأذنها وهي تقول: لكنا لا نشتري لأنفسنا هذه الأشياء الجميلة! وتذكرت وأحمد يغادر المكان أحمر الوجه، وتذكرت كم كان هذا أجمل شيء صنعه لها أحد في حياتها! قامت هي الأخرى من السرير لترتدي ملابسها، وسمعت نادر يصرخ في اللا أحد: ألا تتوقف عن مراقبتي؟ وظنت أنها تهذي، وأنه ليس إلا صوت أحد الموتى في رأسها، والذين بدؤوا يصرخون هم أيضًا!

ثرثرة عيد الميلاد

كان لقاءً لطيفا في ذلك المساء. العيد القومي لنَهَر. النشرة التي قالتها ندى كلها كانت عن المارشال. المارشال يفتتح مصنع البصل المخلل. المارشال يؤشر على منطقة في الخريطة لتبدأ وزارة الإسكان في العمل لبناء مساكن للشباب. في ذكرى الانتصار المارشال يؤكد على سلامة الأرض والحدود وعلى كرامة الداخل وحقوق المواطنة. في ذكرى الشهداء المارشال يؤكد أننا لن نتوقف عن الدفع بالشهداء والدم في سبيل الوطن وسنجاهد بالدم والعرق. تكريم أسر الشهداء. احتفالات. مارشات عسكرية. بوم بوم بوم بوم. وطائرات تصنع علم نَهَر في السماء.

كان عيد ميلاد نضال في نفس اليوم، ونادر طلب من زملائهم في القناة الحضور كمفاجأة له بعد انتهاء نشرة السادسة. ندى وحنان وفاطمة وماجد وأستاذ عبد اللطيف مدير المصورين.

ابتهج نضال جدًّا بهذا الاحتفال.

- أنتم أسعدتموني كثيرًا بهذه المفاجأة. أنا في المعتاد لا أحتفل بعيد ميلادي قط!

سأل عبد اللطيف: لماذا يا نضال؟

نضال: كما ترى تكفي احتفالات البلد.

ضَحِكْ.

قال نادر: كم عمرك الآن يا رجل؟

قال نضال: ما يكفي لأتزوج من بنت الحلال يا صديقي.

ونظر نحو الجالسات فضحكن، وقالت فاطمة: إذًا أنتَ في الستين.

ضحكوا.

عبد اللطيف: لماذا لا تُقدم في سكن الشباب الذي بدأه المارشال اليوم؟

ماجد: يا ليتهم يَصدقون.

حنان: نضال شخص طيب جدًّا هل تظنون أنه كان يقصد واحدة فينا؟ هل رأيتن أين ذهبت عينه؟

فاطمة: لا تجني! هو فقط كان يمزح.

حنان: ولمَ لا؟ لو تقدم لي لن أرفض.

عبد اللطيف: بالتأكيد يا فتى، أنت تعمل في القناة الرسمية! وطالما جاء الخبر عندنا إذًا هو حقيقي.

ماجد: يا ليت، سأقدم.

نضال: آخر مرة كان سكن الشباب لمن هم في الخمسين يا أستاذنا.

حنان: وأنتِ يا ندى؟ هل لو تقدم لكِ ستوافقين؟

ندى: لستُ أدري، أنا لا أريد الزواج بهذه الطريقة.

حنان: ماذا تقصدين؟

ندى: أريد أن أتزوج عن حب، أريد قصة كقصص السينما!

فاطمة: أنا مثلك، لكن يبدو أنه لا حل سوى أن ننسى قصص السينما إذا كنا نريد الزواج!

عبد اللطيف: ماذا تعني؟

نضال: كانوا يريدون مقدمًا خمسة آلاف جنيها! من أين لشاب بهذا المبلغ! هذا غير ضمان المرتب والذي يشترط المرتب أن يكون لا يقل عن ألف جنيه!

نادر: والحكومة هي من تعطينا المرتب الذي لا يصل إلى الألف، والدائرة المغلقة تدور.. هذا هو حالنا المعتاد!

حنان: أنتما تحلمان! الرجال لا يحبون، الرجال يبحثون عن السرير فقط.

ندى: لا يا حنان ليس كلهم.

حنان: أنا أعرف، كلهم كذلك.

فاطمة: نادر أيضًا شاب لطيف وجنتل! ما رأيكما فيه؟

عبد اللطيف: أنتم يا شباب هذه الأيام لا تريدون أن تتعبوا. تريدون كل شيء وأنتم في أماكنكم. إنني أتذكر حين كنا نشارك في مظاهرات الطلبة ضد الاحتلال، وبعدها حين نزلنا ندعم الثورة بقلوبنا وحناجرنا وأرواحنا و....

مال نضال على كتف نادر وهمس في أذنه: لماذا دعوته؟

ماجد: نحن نتعلم منكم يا أستاذنا.

نادر هامسا بدوره: لم أكن أريد لكنه سمعني وأنا أقول لماجد.

حنان: شكله طيب، لكن هذا الشِعر الذي يأكل دماغه سيضيعه.

فاطمة غامزةً لندى: سمعتُ أنه كسب جائزة كبيرة!

ندى ووجهها قد احمّر: وما دخلي؟

حنان: لماذا تكذبين اهتمامه بكِ واضح.

ندى: نحن مجرد زميلين.

حنان: وهل تفرق؟

ندى: ماذا تعنين؟

فاطمة: هل تذكرين أيمن حسين؟

عبد اللطيف: سأستأذن أنا يا شباب، تمنياتي بعمر مديد للجميع، وعيد ميلاد سعيد يا نضال.

ماجد: لماذا يا أستاذنا لا زال الوقت باكرًا.

عبد اللطيف: راحت علينا يا بني، البركة فيكم.

نضال: شرفتني بحضورك يا أستاذ عبد اللطيف.

عبد اللطيف: شد حيلك وستكون مكاني يومًا ما.

نادر: شكرًا لحضورك يا أستاذ عبد اللطيف.

عبد اللطيف: يا بنات، أنا سأغادر الآن..

فاطمة: لماذا هذا التبكير؟

عبد اللطيف: المدام لا تنام بدوني! عقبى لكم.

ندى: مع السلامة يا أستاذ عبد اللطيف.

حنان: مع السلامة يا أستاذ عبد اللطيف.

ماجد: شرفتنا يا أستاذ عبد اللطيف.

فاطمة: لم تقولا هل تذكرانه أم لا؟

ندى ضاحكة: طبعا وهل أنسى أفعالك السوداء!

حنان: هل تقصدين الرجل الذي كان يمسك إعداد النشرة؟

فاطمة: نعم هو الرجل الوسيم ضابط المخابرات.

ندى: والمجنونة كادت تفضحنا لم ينقص سوى أن تذهب وتقول له تزوج أي واحدة منا أرجوك.

فاطمة: لا تنكري أنه كان وسيما جدًّا وأنه كان يعجبك.

ندى: لا أنكر، لكن أنتِ مجنونة..

نضال: بدأنا الألفية الجديدة ولا زال الأستاذ عبد اللطيف هو المدير! لا زال لدينا من يمسكون المناصب القيادية يعودون لمرحلة العصر الجليدي!

ماجد ضاحكا: هون عليك! أنتَ في نَهَر.

نادر: العالم يتغير بسرعة البرق، الاتصالات الحديثة والإنترنت لم تبقِ شيئًا! أحيانًا أتساءل عن جدوى وظيفتنا فيما بعد!

فاطمة: لن أنسى يوم كان يرتدي بذلته الكحلية حين ذهبت إليه وقلت له الآنسة ندى تريد حضرتك في كلمة!

ندى: كنت خجلى كأني عارية، حين جاء لي وقال أخبرتني الآنسة فاطمة أنك تريدينني في كلمة، خيرًا؟

فاطمة: ماذا قلتِ له يومها؟

نضال: لماذا جاء؟ هو يعرف جيدًا أني لا أطيقه.

نادر: ربما يريد تلطيف الجو.

ماجد: لا بُد أن تسايس أمورك يا صاحبي! هو مديرنا في النهاية.

ندى: لا أتذكر والله لكنه قال لي إنه يعجبني أدائي في النشرة!

فاطمة: يا بختك يا عم! والله لو كان قالها لي لكنت قبلته من فمه.

ندى: والله أنتِ مجنونة.

فاطمة: أنا لا أعرف لماذا ضيعته من يدي والله.

حنان: أنت نسيتِ أنكِ ساعتها كنتِ مخطوبة؟

فاطمة: لا تذكريني! كان يشبه عود القصب!

ندى: على كل حال أيمن كان متزوجا.

حنان: لا بُد أن امرأته جميلة جدًّا.

فاطمة: يا لحظنا السيئ!

ماجد: هل رأيتما نشرة البي بي سي اليوم؟

نادر: ماذا جاء فيها؟

ماجد: المعتاد، جورج بوش يهدد!

حنان: أنتما لا تزالا صغيرتين لا تتدبا حظكما.

فاطمة: 27 سنة وصغيرة يا حنان؟

حنان: نعم لستِ في عمري!

ندى: وحتى أنتِ يا حنان لا تزالين صغيرة.

فاطمة: يا الله! أدعو كل يوم ألا أصل لسن الأستاذة عبير وأكون مثلها!

ندى: أعوذ بالله!

فاطمة مقلدة صوت الأستاذة عبير وهي تحول عينيها وتخرج لسانها ساخرةَ: ممَ تتعوذين يا أستاذة؟

ضحكن..

نادر: أضحكونا معكن..

فاطمة: لا شيء نحن فقط ننم..

نادر: أنا مؤمن أن النساء سيمتن يومًا ما اختناقا من الكلام!

فاطمة: سنرتاح ساعتها من الرجال والله!

نضال: أرجوكم لا تفسدوا عيد ميلادي بنصرة المرأة.

حنان بدلال لزج: ماذا يا أستاذ! هل تعترض على نصرة المرأة؟

نضال: لن ننتهي الآن يا عم نادر!

نادر: لا لا نحن آسفون يا آنسات! الموت للرجال.

ضحكوا وساد الصمت عشر ثوانٍ.

ماجد: هل تعتقدون أنهم سينفذون تهديدهم؟

حنان: من هم؟

ماجد ملتفتا لها: أمريكا! هل ستفعلها وتغزو العراق؟

نادر: لا أظن! أعتقد أنهم تعلموا جيدًا من درس فيتنام ثم درس أفغانستان!

نضال: القوة تأسر النفوس، السلطة! البترول! لا أحد يتعلم من الماضي.

حنان متلفتة حولها: أنا مليش في السياسة، لا أحب الحديث فيها.

فاطمة: هم يحسبونها سهلة صدام حسين سيدفنهم في أماكنهم. صدام حسين رجل عظيم، العراقيون يحبونه ويسمونه صقر العرب.

حنان: صحيح! كل النَهَريين الذين ذهبوا للعراق يقولون أنه يعاملهم بشكل ممتاز ومعظم النَهَريين صنعوا ثروة من العراق!

نضال: ولوْ. هو ديكتاتور وسواء اتفقنا أو اختلفنا في ظلمه إلا أن ما سيحدث من أمريكا هو نوع من البلطجة.

فاطمة: ديكتاتور؟ العراقيون شعب نمرود، لا حل لحكمهم إلا الحديد والنار.

نضال: هذا يقال على شعبنا أيضًا بالمناسبة.

فاطمة: وهو حقيقي جدًّا، ألا ترى؟ ورغم ذلك فالمارشال يتعامل بحكمة عالية.

ماجد: أعتقد أن أمريكا تسعى لتحرير العراقيين فعلًا!

ندى: ليس هكذا يغيرون العالم يا ماجد.

نادر: كيف إذًا يا ندى؟

ندى: يقول أبي أن تغيير العالم لن يكون إلا بالحب.

نادر: يبدو أبوكِ رجلا عظيما أتمنى لو أقابله.

ارتطم خجلها بحزنها وهي تتمتم: رحمه الله.

اعتذر نادر: البقاء لله..

نضال: أبوكِ رحمه الله كان حالما يا ندى، أعتذر لكنه غير واقعي.. الناس لا تفهم سوى لغة القوة وأمريكا تجيدها!

ماجد: هل تعتقدون أنهم سيفعلونها؟

حنان: ألا نتحدث في موضوع آخر؟

نضال: بالتأكيد سيفعلونها هذا ما أراه! ويا حنان لماذا علينا الحديث في موضوع آخر؟ إن الدور قادم علينا لا محالة!

ماجد: أنتَ متشائم جدًّا! أهذا كلام رجل يحتفل بعيد ميلاده؟

فاطمة: هذا هراء يا نضال اسمح لي! نَهَر ليست العراق، وصدام حسين ليس المارشال! لو كان ديكتاتورًا على قولك فنحن لدينا حرية رأي وديمقراطية وعلاقتنا جيدة مع أمريكا! ربما لدينا بعض المشاكل لكن...

ابتسم نضال ساخرًا وقال نادر: بعيدًا عن كلام فاطمة، أعتقد أنه لو حتى كان بوش مجنونا ويعتبر نفسه شمشون فإن الشعب الأمريكي نفسه قد تعلم الدرس!

اتسعت ابتسامة نضال: هل أنتَ مؤمن بما تقوله يا نادر؟ أي شعبٍ تعلم الدرس؟ الشعب الأمريكي دماغه مغسولة بالإعلام مثل كل شعوب العالم!

حنان متلفتةً: أعتقد أني سأغادر، أنا لا أحب السياسة أريد أن أتزوج ثم أني تأخرت.

نضال ساخرًا موجها كلامه لفاطمة: لدينا حرية رأي وديمقراطية!

ماجد وهو يقوم: وأنا أيضًا أريد المرور على خطيبتي، عيد ميلاد سعيد يا سيادة المصور نضال..

نضال: شكرًا لحضوركم يا أصدقاء، نردها لكم في الأفراح.

ماجد: توقف فقط عن التشاؤم والأفراح ستأتي.

حنان: سأحدثكن مساءً..

فاطمة: إن شاء الله تمام.. مع السلامة..

قال نادر: هل تعتقد إن حصل الغزو سنشارك فيه؟

نضال: تقصد عسكريا؟

نادر: نعم.

نضال: لا أظن عسكريا، فالعراق بلد عربي!

ندى: لكننا شاركنا من قبل في تحرير الكويت.

نضال: هذا أمر مختلف.

فاطمة: إن علاقتنا جيدة بأمريكا لكن المارشال رجل حكيم ولا أعتقد أنه سيورط نَهَر في حرب.

نضال: نعم أمريكا حليف وصديق، لماذا إذًا نتهم المعارضة بأنهم ينفذون "أجندات أمريكية"!

فاطمة: أليسوا كذلك؟ ثم ليس لأن علاقتنا بأمريكا جيدة يعني أن نسمح لهم أن يملونا ما نفعل، لا يسمح لهم بأن يتدخلوا في شئوننا! هم أصدقاؤنا في نطاق المصالح المشتركة!

نضال: أي مصالح مشتركة ونحن نعيش على معونتهم؟

فاطمة: أفهم ما تعنيه، لكن المعونة ليست مبررًا للتدخل، وسترى أن المارشال سيعترض على هذا الغزو!

نضال: هذا الدور مُعد سلفًا، لقد قلنا لصدام لا تفعل لكنه فعل! لقد حذرنا لكن لم يسمع أحد! إننا نشجب وندين وإلخ إلخ إلخ..

فاطمة: هل تريده أن يدخلنا في حرب ضد أمريكا كي يرضيك؟

نضال: لا أقصد أن ندخل حربا، لكن...

فاطمة: هل تريد تفجيرات الإرهابيين أن تأتي إلى هنا وتزعزع أمننا؟

نضال: وما دخل هذا بذاك! أنتِ تعومين الـ....

نادر: اهدؤوا نحن نتناقش..

ندى: أنا لم أعد أفهم، هل أمريكا عدو أم صديق؟

نادر: أعتقد أنها لعبة مصالح، اليوم عدوي غدا صديقي، اليوم صديقي غدًا عدوي.

نضال: صحيح، نتحالف مع أمريكا سرًا، نشتم أمريكا جهرًا، أمريكا تعترض على سياساتنا جهرًا، وتمنحنا الضوء الأخضر سرًا..

فاطمة: هذه هي السياسة، والمارشال يجيدها إذًا!

نضال: أمريكا حين تمدح نظامنا نقول إن أمريكا نفسها راعية حقوق الإنسان تؤكد أن لدينا ديمقراطية، وحين تعترض أمريكا على نظامنا نسب أمريكا ونقول إن أمريكا تحاول القضاء علينا والتدخل في شئوننا.. هل فهمتِ يا ندى؟

فاطمة: قلت لك هذه هي السياسة!

نضال: لو سمحتِ يا فاطمة لا تقاطعيني.. إن أمريكا كلمة ليس إلا، نحن نفعل بها ما نشاء، نقول هذا عميل لأمريكا وقتما نشاء، ونلعب بكلماتها كما نشاء، مثلها مثل إسرائيل، فمثلا الصحف الإسرائيلية حين تمدح المارشال وتقول إنه رجل السلام في المنطقة، نقول إن الحق ما شهدت به الأعداء، وحين تقول إسرائيل إن المارشال عدوًا لإسرائيل نقول المارشال البطل مرعب إسرائيل، أما لو مدحت إسرائيل واحدًا من المعارضة، فنقول إنه عميل إسرائيل، وإن قالت إسرائيل إنها مثلًا تخشي من فلان المعارض هذا فإننا نقول ها انظروا إنهم يحاولون خداعنا ليداروا على عميلهم، وإنهم بالتأكيد يقولون كلامًا بالمقلوب.. هل فهمتِ؟

نادر: تقصد أننا نقلب الكلام ليتوافق مع مصالحنا..

فاطمة: هذا غير حقيقي!

نضال: ما هو الغير حقيقي؟

فاطمة: هذا الذي تقوله! الناس ليسوا بهذا الغباء! ألسنا حين نغير الحقيقة كل يوم سيبدو ذلك مكشوفا؟

ندى: نعم كيف يصدق الناس إذا كان الأمر يحدث هكذا أمام عيونهم!

نضال: وما دور الصحف والمجلات والقنوات الرياضية والترفيهية والدينية إذًا؟ كل واحد يقول نفس الكلام بطريقة مختلفة، فتتسلل الفكرة بهدوء لعقول الناس.

قال نادر: الزن على الآذان أشد من السحر!

قال نضال مبتسما: بالضبط.

قامت فاطمة: أنتَ لا ترى الدور الوطني المهم الذي نفعله بعملنا في التلفزيون وأعتقد أني سأغادر الآن، الحديث معكم لا يُجدي!

قالت ندى: الوقت فعلًا تأخر و..

نادر: لا! آ.. لماذا لا تنتظرا قليلًا؟ آ.. لقد أخذنا حديث السياسة..

نظرتا لبعضهما..

نادر متوسلا بعينيه لندى: لا تقلقا سأوصلكما بسيارتي..

رفعت ندى عينا راجية لفاطمة فقالت: حسنا لكن لن نطيل!

ثم موجهة كلامها لنادر: بشرط ألا نتحدث في السياسة، خصوصا مع هذا المتشائم..

ضحك نضال: حسنا اقترحي موضوعا!

قالت فاطمة مبتسمة: ما رأيكم أن نتكلم عن حقوق المرأة؟

صنع نضال بيديه ووجهه تعبير رجل مشلول فضحكوا جميعًا..

- رغي رغي رغي ما هذا الهراء؟

- ماذا؟

- كلام حشو لا داعي له!

- هذا لا يخصك.

- بل يخصني! ألم تذكر اسمي؟ وأنا أفتتح مصنع بصل مخلل!

- عليك أن تحمد الله كنت سأجعله مصنعا للعلكة!

- أنت تستفزني جدًّا يا سيد ميسرة وهذا ليس في صالحك!

- لن تخيفني.

- لكن أتعرف هذه أول مرة تكون عادلا!

- ماذا تقصد؟

- هذه البنت فاطمة..

- ما لها؟

- سأكرّمها!

صورةٌ جديدة

تأمل صورة الفتى المعلقة فوق مسمار من إطارها الأسود، بدت أنفا وسط مجموعة من العيون، كانت كل الصور تضحك في وجهه، لكن صورة الفتى وحدها ظلت عابسة، حاجباه متصافحان، ونظرته تقول: أحمد علي الطاهر أنت لن تنسى!

- لستُ طاهرًا!

لكن النظرة لم ترد، فقط ظلت تنهش دواخله، ظلت تلومه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مثاليات سخيفة

اندفع أحمد علي الطاهر، لداخل مكتب الدكتور جلال عطية بكلية الحقوق، لم يطرق على الباب حتى، ركل الباب بوجه حذائه الأيمن فانفتح، ودخل كعاصفة. هب الدكتور جلال واقفا وصفع القلم على الأوراق وهو يصرخ في أحمد الطاهر: - ماذا تفعل؟

- بل ماذا تفعل أنت؟

احمّر وجه جلال وجلس محاولا الهدوء: - لا داعي لذلك دكتور!

- لا داعي لذلك؟ لا داعي لذلك! وإلامَ يدعو إن كان لا يدعو لذلك؟ هل تستطيع أن تقول لي؟

ابتسم جلال ساخرا وقال: سفسطة!

ازداد احمرار وجهه وهو يكاد يصرخ: مصطفى منطوي؟ لماذا؟ لأنه لا يمسك بيد فتاة أو يرمي الصواريخ الورقية أثناء محاضراتك؟ هذا الفتى إرهابي؟ هل حمل في وجهك سلاحًا؟ هل آذى زميلًا له؟ هل ....

قاطعه بحنق: وهل سأنتظر حتى يفعل؟ وأقول يا ليت ويا ريت؟

- يا غبي! هذا إنسان من حقه أن يكون مختلفا عنكَ وعن كل العالم! هذا إنسان! إنسان يا غبي!

- لا تنسى نفسك يا دكتور!

- بل أنتَ الذي ينسى يا جلال!

- دكتور جلال إذا سمحت!

- هاهاها! دكتور جلال! دكتوراه في ظلم الناس!

- أنتَ من منحتني إياها دكتور!

- وهل هذا ما علمتك إياه؟ أهذا هو الحلم بتغيير البلد للأفضل الذي رأيته في عينيك؟

انتفض جلال: نعم هذا هو! هؤلاء إن ظلوا يستشرون في مجتمعنا سيذبحوننا قبل أي أحدٍ آخر! حقوق؟ أي حقوق سوف تحدثهم عنها! هم لا يفهمون غير الدم!

- وهل رأيت على هذا الفتى ما يشير إلى أنه منهم؟

أشاح بيده: كان في الطريق ليصبح واحدًا منهم!

- يا غبي! وهل هذا يكفي؟ ألم يكن بمقدورك أن تمد له يدك ليصير أفضل منك ومنهم؟

- توقف عن هذه المثاليات السخيفة! كفى!

- مثاليات سخيفة!! أنتَ لم تنسَ نفسك فحسب، أنتَ نسيت تمامًا كل شيء يا جلال!

قام جلال محتدا: دكتور أحمد أنا ما زلت أحترم أنك كنتَ أستاذي في وقت ما!

صرخ أحمد: أستاذ فاشل! إن كان تلميذي مثلك فأنا أستاذ فاشل!

ضم جلال شفتيه كابتا غضبه فأكمل أحمد: ومرافعاتك الحامية ضد الحكومة الفاسدة، وهزيمتك الساحقة لأحد أباطرتها، والدكتوراه.. الدكتوراه التي تتحدث عن التعذيب ومبادئ حقوق الإنسان المهدرة ضد الطلاب في نَهَر! ودراستنا عن تحقق المبادئ في البلاد التي تدعي أنها تحققها أصلًا! والكلمات، كلماتي، التي أنهيت بها رسالتك، وصفق لكَ ألف شخص!

- اسمع يا دكتور أحمد! أنا أتصرف كما يجب! هؤلاء مرض! لا بل هم كفئران الطاعون إن تركناهم ظلوا يستشرون بيننا وينفجرون وينشرون الوباء، سيغتالون شبابنا ويحرمونهم من كل شيء، ونحن أول الناس الذين سيقتلونهم! أم نسيتَ؟

- لكنهم بشر! مجرد بشر!

- لا إنهم وحوش!

- والوحوش الذين وضعت يدك في أيديهم؟ هل نسيتَ أم تناسيتَ؟

- اسمع! لا تزايد عليّ! أنا لم أفعل شيء سوى قول شهادتي، هم طلبوها وأنا قلتها، لم أضع يدي في يد أحد!

نظر له أحمد ساخرا: أحقا؟

- نعم! حقًّا! أكيد! طبعًا! كل ما تستطيع قوله، قله! أنا لم أضع يدي في يد أحد!

- لا! أنتَ قلت شهادتك وأنتَ تعرف تمامًا أنها كاذبة، وتعرف تمامًا ما سيترتب عليها! أنتَ وضعتَ يدك في أيديهم وانتهى الأمر! وربما هذه ليست المرة الأولى، لو عرفت ذلك لن أندهش.. توقفت عن الاندهاش!

- دكتور أحمد طفح الكيل! أنتَ لستَ أفضل مني! هؤلاء مسوخ سيمحوننا من الوجود بمجرد أن يتمكنوا! ولو تعتبر أن شهادتي بمثابة وضع يدي في أيديهم، إذًا نعم! أنا وضعت يدي في أيديهم، وسأضعها دائمًا لمواجهة هؤلاء المتعصبين المتطرفين كارهي الدنيا!

- وماذا تكون أنتَ ساعتها؟ ماذا تكون غير متعصب متطرف تكره الآخر! كيف تقف أمام مريديك في ندوة وتنادي بالاشتراكية، وبالعدل وبحقوق العمال، وبالعدالة الاجتماعية؟ كيف تصدق كلماتك؟ كيف طغت أيديولوجيتك على مبادئك؟ كيف تجاهلت نداءات حربك الطويلة القديمة ضد الفساد؟ كيف؟ هل تتخيل أنهم – الذين وضعت يدك في أيديهم – سيفرقون بين اشتراكي وإسلامي؟ هل تظن ذلك؟

- لا.. أعرف أن الرصاصة حين تنطلق لا تفرق، وأن السوط حين يرتفع لا يهتم، وأن عربة الترحيل حين تنقل لا تكترث! لكن هؤلاء وهؤلاء أعداؤنا! إن كنا سنضع

أيدينا في أيدي الأقوياء كي نتخلص منهم فلا بأس ثم نفيق بعدها للأقوياء! لا بأس أبدًا!

- أمثالك من الخونة يدمرون شباب البلد، يقضون على كل آمالها في أن تصير وطنا نظيفا يومًا ما، أنا أكرهك! قال وهو يهز رأسه ويستدير لمغادرة المكتب.

- دكتور أحمد..

التفت،

- أنا أعرف حل المشكلة.

نظر أحمد بعينين مستفهمتين، فأخرج جلال بابتسامة ساخرة، شريط حبوب زرقاء، وألقاه على المكتب..

- المدام لم تترك واحدة في نادي المحامين لم تخبرها..

وضحك..

- أنتَ.. أنتَ..

انقض أحمد عليه وأمسك بتلابيبه، فدفعه جلال بعنف وخوف، لكن مارد الغضب نفث، وانغلقت عين جلال من أثر اللكمة. صرخ ينادي عساكر الأمن، الذين جاؤوا مهرولين.

رسائل

" عزيزتي ليلى؛

لكنه لم يكن كذلك معكِ! كل شيء كان أحلى، طعم القبلة كان أحلى، رائحة شعركِ كانت أحلى، وصوت غنجك كان أحلى. وكنا حين ننتهي نبدأ وكلما بدأنا اشتعلنا ولم نرتوِ أبدًا من بعضنا، لكني صرت أشبع، صرت أهدأ بمجرد أن أفرغ من شهوتي، أنزل من فوقها وأنام بجانبها معطيا إياها ظهري، وأنا لا أطيق النظر في وجهها. هي مسكينة يا ليلى.. تفعل ذلك لأنها تحبني، وأنا كل ما كنت أريده أن أرى إن كنتُ نسيتك أم لا.. إن كنتُ أستطيع المضي قدما في حياتي البائسة دونك أم ليس بعد، وكيف كان لي أن أعرف دون أجرب أن أكون مع أخرى؟ واكتشفت أنني لن أستطيع أبدًا! أنا أحبكِ أنتِ، ولا أعرف كيف أغير ذلك، لا أعرف.. أكون معها جسدا، مدفوعا بقوة الشهوة وبذكورتي وحدها، لا أجد أية مشاعر في الأمر، لا أستطيع أن أميل على أذنها وأهمس: أحبك، وهي في وسط نشوتها، لا أستطيع أبدًا أن أنظر نحو حلماتها أو أرى سرتها أو عانتها، لا أستطيع، وأحاول أن أتخيلك أنتِ تحتي، لكن مجرد التفكير فيكِ يحطم فحولتي ويكويني بألم هائل، وأراكِ جوار السرير تشاهدين ويعتريني فزع وأنا متلبس بجرم الخيانة، وأرتجف وأنتفض وأرتعش وأشهق وأقوم من فوقها وتقول لي هي: ماذا حدث؟ فأقول لا شيء لا شيء.. فتضحك وتسخر من رجولتي مداعبة لكني لا أرد، وأتذكر مداعباتنا الدائمة والأوقات الطويلة التي كنا نقضيها معًا، وأحلام اليقظة وقبلاتنا في المكتبة العامة،

هل نسيتِ كل ذلك؟ لا أظن! إن كنتَ أنا لم أنسه بعد كل هذه الأعوام! عشر أعوام يا ليلى.. عشر أعوام.. لكني أحبكِ.. هل تدركين ماذا ضيعتِ؟ هل تدركين حبا لعلكِ أصلًا لا تستحقينه؟ أريدكِ يا ليلى، ولا يزال يطوف برأسي حلمي القديم كل ليلة، وأنا أراكِ تركضين نحوي في وسط الشارع وتقفزين في صدري وتقولين إنكِ تحبينني ولا تستطيعين الحياة دوني، وأنا سأعذبكِ قليلًا ثم سأسامحك، ليس لأنه لا مثيل لكِ، لكن فقط لأني أحبك، نحن نسامح من نحبهم يا ليلى، من يكون لديه كل هذا الحب كل هذه السنين ورغم البعد ورغم الخيانة حتما لديه القدرة على الغفران..

والآن أرسل لكِ هذه الرسالة لأني أريد مساعدتك في إنهاء علاقتي بندى دون أن أهينها ودون أن أجرحها. أنا لا أعرف كيف أفعل هذا، وكل يوم ينقضي أشعر بنفسي أستغلها أكثر فأكثر وأحتقر نفسي أكثر فأكثر، ولا أكاد أنظر لنفسي في مرآة وصرت لا أحتمل مجرد لقائي بها لقاءً عابرًا على أي زجاج. وماذا بعد يا ليلى؟ إلامَ أصير؟ إلامَ أصير!

أنا خائفٌ ووحيدٌ يا ليلى، خائفٌ ووحيد!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا شيء يُذكر

لا يزال يتذكر. كأن الأمر كان بالأمس. لا كأنه كان في الصباح. لا يزال يتذكر بكل التفاصيل كأن ذلك حدث لتوه، أو لعله فعلًا حدث لتوه. المرة الأولى التي يقتحم فيها جسد ندى، الشهقات التي أنارت الظلمة، يتذكر انقباض يديها على قميصه المبلل بالدم. يتذكر كل التفاصيل، لكنه يصر على تناسي تفصيلةٍ واحدة، حتى لو طاردته كل يوم في المرآة. ذاك الجرح وهذه العلامة في الجبهة. وهو بين أحضان ندى كان يتناسىً يحاول أن يخلد تلك اللحظة في ذاكرته. ها أنا خائنٌ يا ليلى! مثلكِ تمامًا!

جاءت إليه البيت بسرعة كما طلب، تحمل قطنا وشاش. الدم يخضب قميصه وجبينه وشعيرات رأسه الأمامية، فتح الباب وشهقت: ماذا حل بك؟

هز رأسه. دخلت، جلست ملهوفة تضمد الجرح، قالت: لا بُد أن تذهب إلى طبيب!

أمسك بذراعها وقال: لا! لا أضمن شيء في هذه الظروف.

- لكن هذا الجرح يحتاج إلى خياطة حتما! لا تخاف أعرف طبيبا!

- قلت لا! لو كنت ضايقتك يمكنك أن ترحلي.

- اعتذر عن هذا الكلام لو سمحت!

- أنا أتحدث بجدية إن كنت متضايقة فيمكنكِ الرحيل، أنتِ فقط أول شخص طرأ على بالي ولم أجد غيرك ألجأ إليه.

- طبعا لا أنا فقط أخاف عليك! ما هذا الكلام يا نادر!

- آسف. كان يومي عصيبا!

مسدت شعره وقالت: هل كنتَ في المظاهرات؟ لقد شاهدت في التليفزيون لكني لم أركَ!

قال: الحقيقة مختلفة تمامًا عن الشاشة صدقيني!

- كيف؟ صف لي!

- لا أستطيع.. صخب من كل النواحي، العمال المضربون يهتفون وإطارات السيارات تحترق وأناسٌ يصرخون وقنابل غاز تسيل الدموع وعيون رغم الغاز صامدة لا تبكي وشهقات وجنود مهرولون بالعصي وبالكراهية يضربون هنا وهناك ويغسلون الناس بالدم.. لم أكن المراسل تعرفين أني لا زلت تحت التدريب..

ضحك: تذكرت لحظتها أيام كنت مراسلا في القسم الثقافي؛ تغطية مؤتمر لوزارة الثقافة هنا أو افتتاح قصر ثقافة هناك.. وفاة شاعر وتكريم آخر.. تذكرت محاولاتي المستميتة للانتقال إلى قسم الأخبار، وقلت لنفسي أي جحيم ذهبت إليه، إن مراسل الأخبار ليس سهلًا أبدًا، لكني على كل حال لم أكن المراسل اليوم..

- ولماذا نزلت هناك إذًا؟

- لأني تذكرت حلمي القديم، ولأنني لست دمية أو عروسة ماريونت يلهون بها! أنا لدي رسالة؛ أريد أن أغير العالم يا ندى.. وهؤلاء الناس لو كنتِ رأيتِهم لكنتِ عرفتِ.. هؤلاء لا بُد أن يتكلم أحد باسمهم.. أن يحارب معهم وبهم..

- هذا شيء صعب جدًّا يا نادر!

- هذا ميراثنا الثقيل من الرسالة..

- أتعرف؟ أبي كان له وجهة نظر مختلفة!

سأل وهو يئن ويدها تمسح الجرح بقطعة القطن المبللة بالميكروكروم: كيف؟

تراجعت لتقص قطعة من البلاستر وهي تقول: - كان يقول لي دائمًا أن على الناس أن تحارب لأجل حقوقها، لا تحاربي لأجل أحد، من يريد حقًّا يحارب لأجله ومن لا يريد فلا تأتي له به.

- لكنهم أصلًا لا يعرفون حقوقهم يا ندى!

- نعم كان يقول لي واجبنا أن نعلم الناس حقوقهم وأن نعلمهم كيف يأتون بها، ونساعدهم في ذلك، لكن عليهم هم أن يحاربوا لأجلها لا نحن!

- وجهة نظر! لكن اعذريني أراها سلبية قليلًا. إننا رُزقنا النور وعلينا أن نقود الناس إليه!

توقفت عما تفعله ورفعت إليه عينيها:- وإن كان الناس لا يريدون ذلك هل ستجبرهم؟

- لا أعرف لكني لن أتوقف عن الحرب ضد العالم، إما أغيره أو أموت دون ذلك، حتى لو حاربتُ وحدي!

همست وهي تمسد شعره: لهذا أحبك! وضغطت قليلًا على البلاستر. أنَّ فمالت مضطربة قليلًا وقبلت رأسه مكان الجرح وقالت: ولكن ماذا أصابك؟

أشاح بيده وقال: لا شيء يُذكر، ثمة رجال حقيقيون هناك أصيبوا إصابات حقيقية.. أنا لا شيء جوار هؤلاء الأبطال.

أمسكت بيده بدلال وحوتها بين كفيها وقالت: - لا تتواضع واحكِ لي..

- لا شيء يُذكر قلتُ لكِ، كان العساكر يحاولون الالتفاف على شاب ذو حماسة فهتفت في الناس، أصابني قشعريرة بالغة وأنا أسمع صدى صوتي يتردد ويعلو فوق الرصاص وأزيزه وهمجية عربات الشرطة والجنود، وعدونا كي نحرره من أيديهم، كنا نركض كطوفان وكنت في المقدمة أو لعله صدى صوتي الذي كان في المقدمة، المهم انهال علينا العسكر بعصيهم فأصابتني واحدة كما ترين.. لكن لا يهم المهم أننا أنقذناه وتراجعنا بسلام..

قبلت خده وقالت: أنتَ بطلي!

انتفخ تيها ولم يقل شيئًا.. فقط اقترب منها بأنفاس ساخنة، فتراجعت ملدوغة وهمست: لا لا.. تراجع نادر سريعا وقال: أنا آسف.. أنا لم.. أنا.. آسف.. ساد صمت، له أزيز ثقيل في الأذن تكاد تتمزق بنصله، قال نادر مستجمعا نفسه: يمكنكِ أن تذهبي إن أردتِ أنا آسف مرة أخرى. قالت: نادر أرجوك الأمر ليس كذلك.. أنا فقط.. قاطعها: لا عليكِ.. لا داعي لقول أي شيء.. أنا مخطئ وأعتذر.. عاد الصمت لكن أزيزه تحول ضجيجا، وصار جليا بلونٍ أرجواني في خديهما، قالت: نادر.. هل ممكن أن تفهمني؟ قال: نعم نعم والله لا داعي للكلام أنا مخطئ وأنتِ لستِ ملامة على شيء. قالت: نادر أرجوك.. كان يتصنع الزعل ببراعة، مد يده وأغلق النور، لا يريد أن يراه الله! ثم كيف انقلبا فوق بعضهما؟ لا يذكر بالضبط. لكنه يذكر أن رائحتها لم تكن كرائحة ليلى، وأن شعر ليلى كان أنعم، هل ليلى هي التي شعر بها في الظلمة واقفة تراقبه جوار السرير؟ ربما.. لكن لا! أنا أفضل منكِ يا ليلى! أنا لم أخن! أنا انتظرت عشر سنوات! وأنتِ تكملين حياتكِ كأني لم أكن هناك يومًا! لا شيء ذو معنى! لا شيء أبدًا!

... ...

لا تزال تتذكر. كأن الأمر كان بالأمس. لا كأنه كان في الصباح. لا تزال تتذكر بكل التفاصيل كأن ذلك حدث لتوه، أو لعله فعلًا حدث لتوه. المرة الأولى التي اقتحمها أحمد. كفارس عربي يتبختر فوق صهوة جواده الأبيض في أرضٍ فتحها للتو. بدا لها كذلك يومها.. كانت تسير بين أبيها وأمها كطفلةٍ لا تكبر أبدًا، كان ذلك في عامها قبل الأخير في الكلية، وكانت قد أنهت امتحانات النصف الأول من العام الدراسي وأشرق وجهها ووجه أبويها بالامتياز الذي حافظت عليه طوال الدراسة وأكدته هذا العام أيضًا.. تسير بينهما تتعلق بذراعيهما، في وسط الجامعة ذاهبين لإحضار رشا من كليتها، ولا يدركون من أين جاء أحمد ووقف أمام أبيها وصافحه وقال: أنا أحمد عبد الرحمن والي.. تشرفت بحضرتك.. وقبل أن يقول أبي شيئًا، أكمل: هل بنت حضرتك.. (وأشار نحوي).. مخطوبة أو...؟ ونظر نحوي! كاد يقول: أو تحب! ولم يقلها لكن ثلاثتنا سمعناها. زاغت عيني خجلا وأجابت ببكارة قلبي، وانتفض أبي كأنه يصد جرما أو بهتانا صدر في حق شرف ابنته المدللة، قال: لا! ماذا تريد؟ ابتسم وقال: أرحتني! هل كان يقصدها لي أنا؟ أخرج ورقة من جيبه وقلما من جيب قميصه وأخذ يكتب ما يقول: كما قلتُ لحضرتك أنا أحمد عبد الرحمن والي.. رسام وأحضر ماجستير في نوع جديد من الرسم الرقمي.. أنا أصلًا من الصعيد لكني أسعى وراء حلمي.. ولا أقول ذلك كي أكتسب نقطة عند حضرتك.. حاول أبي أن يغادر لكن أمي أوقفته فابتسم لها أحمد وقال: أسكن الآن هنا في العاصمة في منطقة .... طبعا هذا بسبب الدراسة ولن يكون هذا سكن زواجي.. أنا من قرية ... في محافظة ... وعائلتنا كبيرة هناك.. لكني لن أسكن هناك بالتأكيد.. وهذا رقم هاتفي..

قال أبي وقد فقد أعصابه: وما هي نهاية هذه المحاضرة؟

- آسف يا عمي.. أنا فقط كنت أكتب لك كل شيء كي تسأل عني ولك الحق الكامل في ذلك.. حسبت ذلك مفهوما!

- ولماذا أسأل عنك؟

ابتسم أحمد وضحكت أمي وهي تأخذ الورقة وكادت الأرض تبتلعني وهي تقول: يريد أن يناسبنا يا دكتور! كيف لا تفهم؟

- يناسبنا في من؟ ليس عندنا بنات للزواج!

اضطرب أحمد قليلًا لكن أمي قالت بحسم: سجل هذا الرقم.. (وأعطته رقم هاتف البيت) بعد أسبوعين يمكنك أن تتصل..

في البيت قالت أمي في وجه أبي الغاضب: إما أن تسأل أنت عنه أو أسأل أنا!

- هذا ليس أسلوبا يا منار!

- نحن لسنا في محاضرة يا دكتور!

- نفس الشريط إياه!

- نعم نفس الشريط إياه! لا تضيع هذا العريس من ابنتك! من الصعيد يعني لديه بالتأكيد ورثا وأراضي، ويحضر ماجستير يعني ريثما تنهي هي دراستها يكون هو قد تعين.. مستقبله مضمون وأراه مناسب.. ثم إن ابنتك معجبة به..

نظر لي أبي.. نظر بالضبط نحو عيني التي برزت من خلف الستارة.. فركضت نحو سريري وتصنعتُ النوم.

وتلك الليلة تصنعتْ النوم أيضًا. ترقد بجوار نادر وتشعر أنها لو فتحتْ عينيها ستجد العالم كله ينظر لعريها، تشد الغطاء حتى عنقها وتحاول أن تختبئ فلا تجد غير جسد نادر لتختبئ خلفه، لكنه ليس هنا، هل هو نائم؟ ربما يتصنع النوم مثلها. يا ترى فيمَ يفكر؟ عله يفكر في هذا الجرح الذي أصاب رأسه.. وهو يحكي المظاهرة تخيلتْ كيف يمكن أن يرسمها أحمد في لوحة.. وابتسمت وهي تفكر أنها موعودة بالفنانين مرة رسام ومرة شاعر.. كان شعورًا مرعبا ومربكا وهي تضمد جراحه، ثم وهي تقبل رأسه.. أرادت فعلًا أن تقبل خده لأنه بطل حقيقي في نظرها، لكن هذه الأنفاس الساخنة اللاتي خرجت من فمه وداعبت أذنها أربكتها. أصابتها باضطرابٍ لم تدرِ كنهه. واعتراها خوف جعلها تتراجع، ثم أفزعها خوف أكبر؛ هل تفقدينه هو أيضًا؟ لكنه ضمها إليه بحنان. أغلق النور، فكادت تصرخ فيه شكرا! لا تدري كيف تركته يقبل شفتيها ولا كيف يتحسس صدرها. لم يكن يطرق رأسها إلا ثلاث كلمات: وهناك أشياء أخرى! هذه هي الأشياء الأخرى إذًا يا أحمد؟ هذا ما كنت تريده؟ ولماذا لم أعطه إياه إن كنتُ في النهاية أعطيته لغيره؟ أحيانًا نتغير لكن بعد فوات الأوان.. وهل يعني ذلك أنكِ تغيرتِ للأحسن يا محترمة؟ يومها رفضتِ رفضا باتا أن يلمس نادر فرجكِ متخيلة أن ذلك قد يخفف من الذنب! لكنكِ مجرد أن استلقيتِ مغمضة العينين حتى انفتحت كل البوابات داخلك وخرج كل القتلى يشاهدون.. أووف انظروا لها! إنها صاروخ حقيقي ألم نقل لكم؟ يا بخت أمك يا ابن المحظوظة! كيف يتركها وينام هذا الحمار؟ أنا لو معها لن أتركها طوال الليل! اخرس! كيف تفعلين ذلك بنفسك يا آنستي! آنسة؟ هيء هيء هيء! شوفي يا أختي

العاهرة! مسكينة ضحك عليها! ضحك على هذه؟ هذه ثعبان تضحك على بلد؛ أنتِ هي المسكينة! بابا أريد أن أكون مثل طنط جسمي جميل! اخرسي يا بنت! إنها زانية.. زانية.. زانية.. يصفقون بأيديهم.. زانية.. زانية.. زانية.. زانية.. زانية.. وعلينا أن نقيم عليها الحد.. نعم نعم نعم.. كيف تفعل ذلك مع واحد غيرنا! نعم نعم فلنقم عليها الحد.. ارجموها بالحجارة.. ارجموها.. زانية.. زانية.. زانية.. لا، لا تفعلوا ذلك بحبيبتي.. هل تريد أن نرجمك معها؟ لكنها لم... اخرس.. نعم اخرس.. تلفين الغطاء حولك أكثر لكنه لا يجدي، تشعرين بوخز الحجر يضرب جسدك، وهم واقفون كأنهم يرجمون الشيطان، يقذفون الحجارة ويصرخون.. زانية.. زانية.. تختبئين في جسد نادر أكثر.. لكنه في الحقيقة.. ليس معك!

حديث الخوف والديكة

ربما لم يكن منتصف الليل قد شاخ، كان لا يزال شابا، ولم يكن قد أنجب غير ساعةٍ واحدة، حين وقف نادر ينصت لصياح الديكة في شرفته، تلك الليلة كانت استمرارًا لليالٍ طويلة لم يعد نادر يقربها فيها، منذ انتقالها للعيش معه وبعد ليالٍ محمومة شعر فيها بذكورته تنضب وتتزوي في ركنٍ بعيد، لم يعد يقربها..

- أشفق على هذه الديكة!

- تشفق؟

- نعم أشفق!

- لماذا؟

- تظل تصيح تصيح وتحسب أن الشمس ستشرق لصياحها! إنها تعيش الوهم!

- ولماذا لا تقول إنها ترى ما لا نراه؟

- ماذا تعنين؟

- أقصد أني أحسد الديكة، هي ترى الملائكة وتُسر، إن صياح الديكة يشعرني بالفرح، هناك الآن ملائكة تطوف بأجنحتها حولنا لتحمينا.. كائنات من النور الخالص النقي مرسلة من الله لتحيطنا بعنايتها ولتشع في أرواحنا الطمأنينة.

- ولماذا لا يفعل الله ذلك بنفسه؟

- الله يتجلى فعلًا في الثلث الأخير من الليل.

غمغم: - لماذا إذًا لا تخر الجبال؟

- ماذا تقول؟

- لا شيء!

- أحيانًا ننظر للناس على أنهم يعيشون وهما، وننسى أنهم هم أنفسهم من مكانهم ينظرون إلينا كذلك، ويقولون أننا نعيش الوهم.. في الحقيقة كلنا نعيش وهما كبيرا.. ألسنا نحلمٍ؟ وأنتَ ألستَ تحلم بتغيير العالم؟ كم واحدًا قال لك إن ذلك وهم؟

- كثير جدًّا!

- أرأيت؟ إن الديكة ربما تعيش الوهم، ربما لن تشرق الشمس لصياحها، لكنها موقنة بذلك وتحلم به، وتحافظ على حلمها بألا تشرق الشمس يومًا ما إلا على صياحها. المهم أن الشمس حين تقرر أن تشرق لأجل صياحها، يجب أن تجده! لهذا لا تتوقف!

- والملائكة؟

- إنها رسالة ربانية تخبرنا أن الخير لا يزال هنا وأن الله موجود، إن الديكة تصيح فرحةً بدنو النور..

قاطعها: وهل يوجد حقًّا ملائكة في هذا العالم؟

- طبعا.. ردت وهي مندهشة!

- لم تفهميني! أقصد بعبارةٍ أخرى: وهل هذا العالم يستحق الملائكة؟

- أفهم ما تعنيه، الخير موجود يا نادر.. الخير موجود.

- لا أعرف ربما الشر هو الأصل، وإلا فلمَ يسود في النهاية؟ لماذا كل هذا الخراب وكل هذا الدم والعذاب والمعاناة؟ لماذا يوجد كل ذلك والديكة ترى ملائكة!

- لأنه يوجد شياطين يا حبيبي، يوجد شياطين!

- ولماذا لا تحاربها الملائكة؟

- هذا ليس دورها!

- وما هو دورها إذًا؟

- أن تتعبد لله!

- ولماذا خلقنا إن كان لديه الملائكة تتعبد إليه؟

- نادر!

- آسف.. لكن أين الخير هنا؟ أين؟ أتعرفين.. إنني كل يوم أتساءل ما الذي يحرك الإنسان.. هل هي الغريزة؟ الشهوة؟ الهوى؟ المال؟ الحب؟ واكتشفت أن الإنسان إنما يحركه شيءٌ واحدٌ فقط! أتعرفين ما هو؟

- ما هو يا نادر؟

- الخوف! أجل الخوف! الإنسان يخاف أن يكون وحيدًا فيحب، ويخاف أن يفنى فينجب، ويخاف ألا يتقبل الله عطيته فيقتل أخاه! ويخاف أن... هل تعرفين لماذا اخترع الإنسان البدائي السلاح؟

- ليدافع عن نفسه ضد الحيوانات المفترسة أليس كذلك؟

- بلى بلى إن الإنسان اخترع السلاح دفاعا عن نفسه، وكان السلاح على قدر الخطر، وعلى قدر الخوف، وكلما كبر الخوف وكبر الخطر كبر السلاح.. العصا، السيف، ثم البندقية، ثم الديناميت، ثم الكلاشينكوف والدبابات والطائرات والمدافع الثقيلة والأسلحة البيولوجية والكيمائية.. ما الخطر الذي يتهدد العالم كي يخترع قنبلة نووية؟ مما يخاف كل هذا الخوف كي يصنع له سلاحًا بكل هذا الفتك؟ الإنسان يخاف نتيجة أفعاله! أفعاله تستحق سلاحًا بهذه القسوة وهذا الترويع والردع، إن الإنسان سيقضي على نفسه بخوفه في النهاية.. ندى.. أنا...

- حبيبي ما بك؟

- .....

- نادر جاوبني بصراحة، أنتَ لم تعد تحبني صح؟

- أهذا وقته؟

- نعم أنتَ لم تعد تحبني ووجودي هنا اكتشفتَ أنه غلطة، وندمتَ عليها، أرى ذلك في عينيكَ، أعرف أيضًا ما يثقل همكَ!

- ندى أرجوكِ!

- أعرف علامَ ترمي من حديث الخوف هذا، أنا لستُ غبية يا نادر، لستُ غبية!

- ندى!

- أنتَ فقط لا تصدق أني أحس، أنا لا أعيش وهما كالديكة يا نادر كما ترمي بكلامك، إن كنتُ أعيش معكَ فذلك بمحض إرادتي لأني أحبك، وأريد أن أكون معك، حتى لو رفض كل الناس ذلك، أريد أن أحارب معكَ ولأجل أن نكون معًا، ونغير العالم معًا، لأجل أن تشرق الشمس بصياح الديكة يا نادر! لكنك خائف! خائف! سئمت هذه الكلمة، الخوف ضيع مني أشياء كثيرة، واليوم سيضيعك مني أيضًا.. لم يكن هناك داعٍ لكل هذا اللف والدوران يا عزيزي أنا أفهمك، أفهمك منذ اليوم الذي كنتَ تنتهي فيه مني وتتصنع الهدوء وأنت تتجه للحمام كي تقيء، كنت أسمع صوتك وأنت تخرج كل ما في جوفك، وكأنك كنت تنام مع حشرة لامستك بقرون استشعارها المقرفة!

- ندى! توقفي!

- حتى وإن كنتَ تتصنع أنه لا شيء هناك، كنت أراك تتكسر أمامي كموجٍ على صخرة، ليس لضعف ولكن لأنك لم تعد ترغبني، أنا لستُ صخرة يا نادر، أرى ذلك في عينيك وأستشعره جليا في قبلاتك التي صارت واجبا تؤديه بالتزام بالغ، وأرى محاولاتك المستميتة في مداراته وقلت ربما به علة لا تحرجيه، فحاولت جعله مزاحا، وكنت سعيدة أنك تحاول، لكن الجسد لا يستطيع الكذب.. كل هذا لأجل ألا تتزوجني؟ لم أكن أتخيل أن الأمر صعب لهذا الحد!

- ندى أنا...

- لا تقل شيئًا، أنا لا ألومك! أنا الحمقاء الغبية الخوافة التي ضيعت من نفسها كل شيء. أنتَ محق، الخوف يحركنا يا نادر، وأنا جئت إليكَ هنا ومنحتك كل ما منحتك لأني خفتَ أن تضيع مني، كما ضاعت مني أشياء كثيرة، جئت وقررت أن أحارب لأني أخاف أن أظل طوال عمري حبيسة خوفي، قلتُ سأحارب خوفي معك، لكني لن أحارب وحدي يا نادر، أتعرف؟ أنتَ لم تحبني، لو كنت أحببتني لكنت حاربت خوفكَ لأجلي.. لكن لا أنتَ لا أنتَ ولا... لا أحد لا أحد...

وأجهشت بالبكاء، يتخلل نحيبها صياح الديكة وصخب الموتى.

أحلم

سألها: - بماذا تحلمين؟

- إممم.. ببيتٍ صغير وأسرة دافئة وأبناء أعلمهم أن يحاربوا لأجل حقوقهم ويغيروا العالم.

- وما الذي لا يعجبكِ في العالم تريدين تغييره؟

- الظلم!

ضحك وقال: أنتِ تحاربين طواحين الهواء يا صغيرتي!

أسعده قولها يا صغيرتي.. ولم تسأله بماذا تحلم، كان قد تطوع بالإجابة:

- أنا أحلم أن ألف العالم كله بلوحاتي.. حكيتُ لكِ عن المعارض التي أقمتها في فيينا وفي فرانكفورت.. لكني أريد أن ألف العالم كله.. إن فكرة بيت صغير هذه تقيدني..

- كيف ألا تريد أن نكون معًا؟

- وهل يجب أن نكون معًا مقيدين ببيت صغير؟ لماذا لا يكون العالم كله بيتنا؟

- هذا جميل والله.. يا ريت!

- أحلم بأني أقبلك ساعة الغروب عند برج إيفل.

- نعم يا أستاذ!

قالتها بحزم ونوع من الخجل. تساءل: هل أخطأت؟

لم ترد فقال: لا أفهم ما المشكلة؟

قالت: أريد فقط أن يكون كل شيء بشكل صحيح..

- وهل أنا قبلتك فعلًا يا ندى؟ أنا فقط قلت أحلم!

ساد الصمت....

- هل تعرف يا أحمد ما الذي أحلم جدًّا أن نفعله معًا؟

- ماذا؟

- أحلم أن نسافر للعمرة معًا.

أجاب في فتور قليلًا: بالتأكيد إن شاء الله.

وهذا الحلم الذي لا تزال تذكره من يومها، حين رأت نفسها وهي بملابس الحج في بيت الله الحرام، الناس حولها يطوفون حول الكعبة، لكنها وحدها واقفةً لا تراها! استيقظت فزعةً وليلتها كلمها أحمد، حكت له حلمها، فانفعل وقال: لماذا تفعلين ذلك بنفسك؟ لماذا تقيدين نفسك بكل هذه القيود؟ قالت: أنا لا أقيد نفسي، أنا قلت لكَ ألف مرة أريد أن يكون كل شيء بشكل صحيح! قال: وما الذي بيدي لأفعله يا ندى؟ قولي لي! قالت: لا أقول لكَ ذلك كي تجيبني هكذا! ليس هذا ما أنتظره منك يا أحمد! سكت.. كان يعرف تمامًا أنها خائفة وأنها تريده أن يطمئنها، لكنه كان يشعر بقيودها نذير خطر.. حبه حرية، هذه القيود ستسحقه وتمزق أجنحته وريشته.. سألها: هل هناك جديد؟ قالت: لا! قال: وماذا بعد؟ هل سنظل هكذا؟ أنا سئمت هذا الوضع! أجابت بلهفة: والله وأنا أيضًا.. قال: الكرة في ملعبك يا ندى.. الكرة في ملعبك..

لكنها لا تعرف كيف تسدد الكرة! وشعورٌ عارمٌ بالذنب يمزقها.. تتذكر يوم اتصل بهم ولم يمهلهم حتى أسبوعا.. رحبت أمها ووافق أبوها على مضض، قابلوه في النادي، وكانت رشا الصغيرة معهما، لكن ندى لم تكن هناك.. تحدثوا في الأمور العامة، وقال أحمد إن معه مبلغ لا بأس به تحصل عليه كجائزة من فيينا في معرضه الأخير.. وابتسم أحمد علي وقال له بعيدًا عن تشابه اسمينا إلا أن ظروفنا أيضًا كذلك! ابتسم أحمد والي وقال: كيف يا عمي؟ أجاب: وأنا في مثل عمرك ربما كانت ظروفي أسوأ من ظروفك أيضًا.. كان عليّ أن أزوج أخواتي البنات أيضًا.. وفعلت ذلك وكنت متفوقا في دراستي ولم أتخلَ عن حلمي لحظة، وطنطك هذه، أحبها منذ كانت طالبة في السنة الأولى لكني لم أكن أجرؤ على قول ذلك، كان الجميع سيتغنى بالمعيد الذي يحب طالبة سنة أولى، أضف لذلك أني لم أكن مستعدا للزواج بعد.. شعر أحمد والي بالراحة مع هذا الحديث الحميم، خاصةً وأن أحمد علي استفاض وقال: يا بني أنا يهمني أن يتزوج ابنتي رجل؛ لا يهمني كم يملك ولا كم معه ولا أي شيء.. أنا كما ترى رجل عجوز، وحين أموت.. سأصْدِّقك.. لا أحد في العالم سيسأل على بنتيّ لذا أريد أن أطمئن لهذا الرجل الذي سيكون مكاني! إنك تطلب مني ابنتي وأختي وأمي وزوجتي الثانية.. نعم إن ندى عندي ليست كرشا وأقول لك هذا ورشا جالسة هنا بيننا.. لكني حتى في ذلك أختار أخا لرشا! ألستَ معي في ذلك؟ أجاب أحمد والي في حماس: طبعا يا عمي ومتفق مع حضرتك تمامًا! قالت منار: قل لي يا أحمد هل تملك شقة؟ تمتم أحمد: لا يا طنط لكن المبلغ الذي قلته لحضراتكم ربما يمكنني أن أشتري به شقة محندقة.. قاطعته: إذًا والأرض؟ تساءل: أي أرض؟ قالت: ألم تقل أنكَ من الصعيد بديهي إذًا أنك تملك أرض أو على الأقل بيت! ضحك أحمد ضحكة خفيفة وقال: لا.. لا أملك أي شيء غير المبلغ الذي قلته لحضراتكم! قالت: إذًا لا شقة! طب والشبكة؟ قال: مالها؟ قالت: بكم؟ كاد أن يجيب لكن أحمد علي قاطعه وقال: دعني أرد أنا عنك! قال يا منار إنه لا يملك سوى المبلغ الذي قاله! تريدين أن تأخذينه كله شبكة وتبقين ابنتكِ جوارِكِ، أنتِ حرة! ثم التفت نحوه: لا يهم يا بني.. لكن قل لي إذا قدر الله وكان هناك نصيب أين ستسكن؟ أجاب أحمد:

والله يا عمي أنت تعرف الرجل يتبع عمله، وأنا رسام وأجول العالم بمعارضي، فسكني سيكون جوار معرضي، سنلف العالم أنا وندى! قال أحمد علي: أتعني أنك ستأخذ ندى بعيدًا؟ أجاب: ستكون مع زوجها يا عمي! أهناك في ذلك خطأ؟ أجابه: لا لا.. أنت على حق تمامًا.. لكن كل الحكاية لا أعتقد أن ندى ستوافق! قالت منار: نعم ندى متعلقة بنا ولا أعتقد أنها ستوافق.. وقال أحمد علي: من جهتنا نحن موافقون لكن تتبقى موافقة ندى.. ابتسم أحمد وقال: لا بأس يا عمي، لا بأس على الإطلاق.. اسألوها.. كان واثقا أنه استطاع أن يقرأ نظرتها، وغادر وهو يشعر أن العالم لا يمكن أن يكون أفضل!

تتبع ندى في الجامعة، عرف صديقتها المقربة، وذهب إليها مباشرةً واتفق معها على أن تتصل بندى الليلة من عند سنترال ثم تعطيه السماعة، وافقت وهي تضحك وتقول يا ليت أحدًا يحبني ويفعل هذا الجنان لأجلي! قال لها ربنا يوعدك! حدث ندى كانت شديدة الخجل، سألها عن رأيها مباشرةً وحكى لها ما جرى بينه وبين أبويها، وسألها أن تسأل أختها إن كانت تكذبه، لكنها قالت أصدقك، فضحك وقال إذًا موافقة؟ خجلت وقالت من أين ظهرت لي! قال ضاحكا من مستشفى المجانين!

من أوراق أحمد الطاهر *****

"اليوم كان حضور الندوة لا بأس به، ثمة شباب، ثمة رجال في بعض الأحزاب المعارضة، وطبعا كان البشوات حاضرون ليتأكدوا أن ما يُقال ليس خارج السياق المحدد. نعم، لم نخرج اليوم أيضًا عن السياق المحدد، لم نخرج عن المضمار المرسوم لنا بدقة، ولم نثر على الحبال التي تربطنا بمخالب السلطة كعرائس ماريونت تحركنا بأدوار تخدم مصالحها. ما أجمل أن يُصور للعالم ندوة مثل ندوة اليوم يحاضر فيها أساتذة في كلية الحقوق، وناشطون في حقوق الإنسان، وتتكلم عن الطلبة المعتقلين في السجون دون محاكمات ودون قضايا ودون رحمة، ما أجمل أن يُصور ذلك كله للعالم، كي يتأكد أن هنا في نَهَر ديمقراطية، لا! بل ليقنع نفسه بذلك! يبتسم العالم للماريشالات ويقول: عظيم أنكم تسمحون لهم بذلك، هذه ديمقراطية حقيقية! ويتناسون تمامًا أن هناك طلبة معتقلين، كنا نتحدث عنهم في الندوة.. تصير الندوة في حد ذاتها مكسبا ديمقراطيا، حتى لو كانت تتكلم عن معلقات عنترة.. كلام كلام كلام.. أنا سئمت الكلام.. وماذا بعد ندوة اليوم؟ لا يتغير شيء. يظل المعذبون يُعذبون، ويظل القتلى يُقتلون، ويظل الظلم كما هو.. دائرة مغلقة نحيط أنفسنا بها ونريح بها ضمائرنا الواهية لعلنا نستطيع أن نصالح مضاجعنا التي لفظتنا، ندوة تجلس فيها محاورًا أمام مجموعة، ثم غدا واحدٌ من المجموعة يجلس محاورا وتكون أنت مع المجموعة، لكنها تظل نفس المجموعة، وتظل نفس الدائرة المفرغة التي تدور حول نفسها كثور أعمى..

وكتابي هذا، أنا لا أعرف ما الذي سيغيره، لا أعرف ما جدوى الكتابة في الحقيقة، إن كانت نفس الدائرة المفرغة هي التي ستقرأ وهي التي ستصفق وهي التي ستنقد وهي التي ستناقش.. كيف يتغير شيء والناس كل يوم يرضعون من أثداء الإعلام..

(توقف برهة، وتذكر أن ندى ابنته في كلية الإعلام، وأصابه هاجس مقرف جعله ينفض رأسه ويتوقف قليلًا عن الكتابة)

إن المأساة الحقيقية ليست في الماريشالات، لكنها في هؤلاء الذين يبول إعلام الماريشالات في عقولهم، هؤلاء الذين يصدقون أن طائراتنا تخترق دفاعات العدو، وهي تُقصف على الأرض، هؤلاء الذين يصدقون أنه لا يوجد معتقلون سياسيون، برغم أنهم هم أنفسهم يصدقون أن كل من يخالف العسكر هو مخرب وكافر وعميل وخائن ويستحق الإعدام، وأن العسكر لا يخطئون لأنهم يحمون البلد من مؤامرات خطيرة، الذين يصدقون أن رغيف العيش تحسن لأن الوزير قال ذلك، رغم أنه نفس طابور كل يوم ونفس رغيف كل يوم، بل ربما أسوأ! هؤلاء إن كانوا عبيدًا فماذا فعل الأحرار؟ الأحرار يضربون بعضهم بعضا، ويتجاهلون العدو الحقيقي، يتناحرون فيما بينهم ربما انهزاما أمام العسكر، بل ويصل ببعضهم الوقاحة أن يضع يده في أيدي العسكر كي يهزم الآخر لمجرد أنه الآخر، ولمجرد أنه يختلف أيدلوجيا! هم في النهاية مجرد دُمى، عرائس ماريونت في أيدي السلطة القمعية، توجههم حيث تشاء في دورهم المرسوم لهم بدقة في هذه المسرحية العبثية، تفرق بهم الصف وتهزمنا ببعضنا، وهناك منهم - ربما كلهم - من هم مُصنّعون بأيدي الماريشالات أنفسهم! أو بأيدي أبواقهم الإعلامية التي تنجم ببساطة شخوصا يرتدون زيّ المعارضة.. إننا نلوم على العوام انجرافهم خلف نباح الإعلام وننسى أننا نترفع عن الكلام معهم، نراقب كل ما يحدث من أبراجنا التي نحسب أن بقاءنا فيها محض اختيارنا، ونتناسى أننا بهذا نؤدي دورنا كاملًا كما يشاء له محركو العرائس في المسرحية العبثية المسماة نخبة وصفوة وكلمات رنانة جوفاء هي في الحقيقة لا تحمل سوى معنى واحد؛ هو العنصرية.. وما الصفوة؟ الصفوة هم من يصنعون القرار، لكنا لا نملك صنع أي شيء! نحن لسنا أفضل من الناس، وإن كنا ندعو لتغييرهم فعلينا أولًا أن نتقبلهم ونقبلهم.. بكامل جهلهم وانقيادهم.. الجماهير خلقت لتقاد وإنما خلقنا لنقود.. هذه المقولة العنصرية التي نتشبث بها، خائفين من الضياع.. خائفين أن نعترف لأنفسنا أننا نقاد مثلهم، وأن هناك من يتحكمون فينا، هناك من يديرون اللعبة معطين لكل منا دورًا، فنفرح موهومين وكلٌ منا يحسب أنه يستطيع أن يكون بطل المسرحية، وأنه سيغير العالم! لكنا نكتشف في النهاية أننا محكومون بهذا الدور، ولا نستطيع الخروج عنه!

لسنا أفضل من أحد.. ونزولنا للناس صار أمرًا حتميا، إنْ أردنا تغييرا حقيقيا في هذا البلد. كوننا بشرًا لا دمى، خروجنا من الدائرة التي رسموها لنا، وتحررنا من نص المسرحية العبثية، بل تحررنا من المسرح كله بكواليسه المزيفة هو بداية النصر..

إن ترفعنا وتعالينا على هذه الجموع هو مدخل الهزيمة، بل لعله هو كل الهزيمة..

إن تغييرا حقيقيًّا لهؤلاء الناس، لن يحدث إلا عن طريقٍ واحدٍ فقط لا أرى عنه بديلًا.. أن نصير منهم؛ أن نحبهم!"

رسائل

"ابنتي الحبيبة ندى؛

بعض الكلمات أحيانًا تَكتب أفضل من أن تَقال، فيكون بمقدورنا أن نعيد قراءتها مرةَ تلو مرة، وكل مرةٍ يتغير فهمنا لها حسب عمرنا وتجربتنا في الحياة. لا تزال الحياة أمامك يا صغيرتي، وحتما ستدركين معنى كل كلمةٍ سأقولها هنا يومًا ما، حين تصبحين زوجةً وأمًا لأحفادي الأعزاء. أنا لا أرسل لكِ هذه الكلمات خوفًا من النسيان، ولكن خوفًا من أن تبهت الذكرى وتضيع منكِ تفاصيلها، ويشوهها خيالك ويرقعها بكلماتٍ من عنده. أنا لا أريد أن أصنع نفسي بطلا في عينيك، لكني فقط أخشى أن أصير عدوًا أو وضيعا، كل ما أريده أن تعذري لي أخطائي وأن تقبليني كما أنا، أبوكِ الذي يحبك أبدًا.. هل تذكرين يدي هذه التي كنتِ تتشبثين بها، وأنتِ بعد ابنة شهور، كنت كلكِ في حجم قبضة يدي، ثم كبرتِ قليلًا وصرتِ تبكين طوال الليل وتصرين أن أحملكِ وأنزل بكِ إلى الشارع قبل الفجر، ونتجول أنتِ وأنا وحدنا، عبر الشوارع النائمة، توقظينها من غفوتها بضحكاتك البريئة، فتنفض النعاس رويدا، وتمنحنا سيارة عابرة من هنا أو من هناك، فتشيرين نحوها مبهورة الأنفاس وعيناكِ مفتوحتان على اتساعهما.. ثم يؤذن للفجر، فنذهب للصلاة معًا، تلهين في ذقون الساجدين، وتركبين ظهري كحصان، وتتردد ضحكاتك في بيتِ الله، وأخشى أن أقوم من سجدتي فتقعين، فأنتظر قليلًا حتى تنزلي.. ثم يقبلك الإمام ويدعو أن ينفع الله بكِ الإسلام والمسلمين. يبدو النعاس على وجهك، فأتنهد، وأهم السير كي أضعك في سريرك باحثا عن ساعة غفوة ألحقها قبل أن يأتي موعد العمل، لكنكِ تصرخين حين نكاد نصل للبيت، أعود أدراجي إلى الشارع، تضحكين، وتقبلين خدي، ولا تنامين إلا عندما يمسك أول شعاع من شمس الشروق. تريحين رأسك على صدري، وتعلقين يدك بياقة قميصي. أصعد مسرعًا فتصرخ أمك أنتَ ستفسدها بدلالك هذا، أشير لها أن تصمت كي لا توقظك، أفك يدك القابضة على قميصي برقة وأضعك في سريرك ثم أرتدي ملابسي وأروح إلى أبنائي الآخرين، طلبتي. هل تذكرين يدي هذه التي كنتِ تتشبثين بها بيدك المرتعشة وأنتِ تتحدين الدنيا والجاذبية كي تقفي على قدميكِ لأول مرة، ثم وأنتِ تترنحين ضاحكة مستبشرة بخطواتك الأولى، يدي هذه التي رفعتكِ عن الأرض كلما تعثرتِ، يدي هذه تحتاجك جوارها، كي تتشبث بكِ حين يخونها الزمن والأرض، حين تدور بها الأيام ولا تعد تقدر أقدامها على الوقوف راسخة كما اعتادت، أحتاج أن أجدك جواري فأنا وحيد يا ابنتي وصرت شيخا، وأخاف يا ابنتي فأنا لا أعرف ماذا تخبئ لي الأيام، هل تستكثرين على أبيكِ يدكِ التي لم تقم لها قائمة إلا به؟ أنسيتِ حين كنت لا تستطيعين دخول الحمام وحدك، وكنت أحملك إليه، وأساعدك، وأتحملك حين تفعلينها عليّ؟ ندى يا ابنة أحمد علي لم أبخل عليكِ يومًا وكنتُ لا أنام الليل لأجلك، فهل تريدين اليوم البعد عني؟ هل تتركيني وحيدًا للدنيا تتكالب عليّ بآثامها ومخالبها؟

أعرف ما تفكرين به. أنا لستُ سيئا والله يا ابنتي، ولا أمكِ كذلك. الطلاق كان حتميا، حاولت أن أبعد قليلًا حتى تهدأ أمكِ، ذهبت إلى شقة العمل وتركت البيت، عشت وحيدًا في آخر أيامي، وأنتِ تعرفين كل ذلك، قلت لا يهم، فترة وتمر، لكن أمكِ فعلت كل شيء يدفعني للطلاق دفعا، أمك جعلتني أضحوكة نادي المحامين، لدرجة أني لم أتحمل أن أنظر في عينيها وأنا أطلقها، لدرجة أني حتى لم أقل لها

شيئًا عن كيف أو ماذا عرفت، ولن أقول، لا أريد سماع شيء. وقعت لها ورقتها في صمت، وداخلي ألف سؤال: أهذه الفتاة التي أحببتها وأحبتني؟ التي حلفنا أن نغير العالم معًا؟ طالبتي الأنيقة البريئة التي كانت عيناها خائفتان دائمًا؟ لعلي أنا كنت الأبله في النهاية وأمكِ لم ترَ فيّ سوى معيد في الكلية وغني وله مستقبل، ربما.. ستفهمين أمورًا كثيرة حين تكبرين، أبوكِ كان رجلًا، وكان يحمل هم كل هؤلاء الذين رأيتِ صورهم في مكتبه، لا أعرف لماذا أتحدث هكذا بصيغة الماضي. الوحدة عجزٌ، والعجز هوان، أعرف أني لا أزال في الرابعة والخمسين، لكن العجز عجز الروح، والهموم تثقل القلب، وطريق الأمانة موحش، لكني اخترته منذ البداية، وعليكِ أن تختاريه يا ابنتي، لا يخيفنك وحشة طريق الحق لقلة سالكيه، فالدنيا تلهينا وتغيرنا يا صغيرتي، الدنيا تسحق أجمل ما فينا، وأنتِ أجمل ما فيّ، والدنيا اللعينة تريد أن تأخذكِ مني، أنا لا أتمنى لكِ سوى السعادة، لكنكِ يمكنكِ أن تسعدي جواري أيضًا، أريد أن أجدك حين أحتاجك، أريد يدكِ التي تقوت بيدي وأنتِ تترنحين في خطواتك الأولى أن تقوي يدي حين أترنح في خطواتي الأخيرة، أريدها أن تناولني كوب الماء حين أظمأ ولا تقدر يدي المرتعشة أن تناولنيه. هذا ليس أنانية مني يا ندى، هذا أبسط حقوقي عليكِ، فأنتِ لم تصيري ما أنتِ عليه لولاي، وهذا أقل شيء تفعلينه لأجلي.

أبوكِ المحب

أحمد علي

تحريرا في 20 يوليو 1995"

أحاديث الطهر والألوان

دق الجرس، فقام، وجد ندى واقفة أمام الباب يترقرق في عينيها ماءٌ أجاج. فور أن فتح الباب، فرد ذراعيه فغاصت فيهما ابنته تجهش بالبكاء، عانقها وأخذ يربت على ظهرها وهي تتشبث بقميصه بيدها المقبوضة بعنف على ورقةٍ لمحها فعرفها. قال في خفوت: هل عرفتِ الآن لمَ أغضب حين يناديني أحدٌ أحمد علي الطاهر؟

من وسط نشيجها رفعت عينيها إليه وسألت: لمَه يا أبي؟

- لأني لستُ طاهرًا يا ابنتي.

... ...

- هل يروقكِ المعرض؟

- آه.. نعم.. أنت موهوب جدًّا يا أحمد.

- شكرًا يا صغيرتي.

ابتسمتْ، حين يناديها صغيرتي تشعر باحتواءٍ هائل.

- ما رأيكِ في هذه اللوحة؟

- جميلة جدًا. ألوانها غريبة.

- اختيار الألوان ليس عبثيا.

- أكيد..

- مثلًا إلامَ يرمز الأحمر في نظركِ؟

- إمم الأحمر يرمز عند أغلب الناس إلى الحب.

- الناس؟ الناس ليسوا سوى حفنة من السخفاء فدعينا منهم.

ابتسمتْ.

- الأحمر عندي يرمز إلى الغضب. إلى السعير. إلى الشيطان.

- والأسود إذًا؟ الأسود عندي لون الشر!

- الشر لا لون له يا صغيرتي.

- وإلامَ يرمز الأسود؟

- الأسود يرمز للبهاء المطلق، لون راقٍ هو، لهذا جعلت الحصان في اللوحة كما ترين أسود، يدل على أصالة.

- لكن الحصان الأبيض في ذهن الناس.. آ.. في ذهني هو الحصان الأصيل أليس كذلك؟

- حقيقي، لكني أفضل الأسود كتعبير عن الأصالة. الأسود هو زوال كل الألوان، أما الأبيض فهو التقاؤها جميعًا.

- وأيهما الأصل يا أحمد؟

- بالطبع الأسود، أليس الأصل في الدنيا الزوال؟ والأصل في الإنسان الموت؟ خلقنا لنموت.

- لكن هناك جنة ونار وخلود.

- نعم هناك الأبيض، لكن هنا الأسود.

- وعلى رأيك هناك سيكون الأحمر أيضًا.

ضحك.

- دائمًا يقال أن الأبيض لون الخير، والأسود لون الشر، الجنة والنار، الإيمان والكفر.

- لكن الجنة ليست بيضاء عندي.

- ولا أنا، الجنة عندي لونها أخضر.

- الجنة عندي لونها أزرق، الأزرق يوحي بالاتساع، يوحي بالحرية. السماء. البحر. الحبر. جناحا الحصان كما ترين.

- لكن الأخضر أيضًا جميل، النخيل والشجر والحدائق.

- الأخضر خليطٌ من الأصفر والأزرق. إلامَ يرمز الأصفر عندكِ؟

- إممم.. إلى الشمس..

- هاها لا يا صغيرتي، أقصد الإحساس، حين مثلًا تجلسين في غرفةٍ دهان حوائطها أصفر؟ بمَ تشعرين؟

- أشعر بالحرارة، أو بالبهجة، لا أعرف لكن الأصفر لون حار ومبهج.

- البهجة؟ لون الصحراء بهجة!! تبتهجين؟ أما أنا فأختنق، الحرارة خانقة أليس كذلك؟ الأصفر لون يرمز للضيق، يرمز للسجن، للتيه. انظري، لهذا جعلت السماء صفراء في اللوحة.

- كنت سأسألك عن ذلك فعلًا.

- لهذا الأخضر، لون يجمع البراح بالسجن، الأشجار مسجونة في غاباتها، لكن غاباتها براح!

- فيلسوف!

ابتسم.

- وما لونكَ المفضل إذًا يا دافنشي؟

- الأسود بالتأكيد. الأسود لون التناقض في ذاته، فساتين السواريه تكون سوداء، وفساتين العزاء تكون سوداء، لماذا نحتاج الأسود حين نبكي وحين نفرح؟ إن رأيت فتاة ترتدي فستانا أسود، أسائل نفسي، أهي حزينة أم سعيدة؟ هذا هو الأسود، هو انعكاسنا أمام أنفسنا. نحن نحكم على الأسود بناءً من دواخلنا.

- لكن لماذا إذًا ترتدي العروس لونًا أبيض؟

- تقصدين فستان الزفاف؟

- نعم..

- الكفن أيضًا لونه أبيض!

فوجئت ندى.

- أرأيتِ؟ أعتقد أن الأبيض لون النهايات.

- وهل الزواج نهاية؟

- بكل تأكيد، الزواج نهاية الحرية، ونهاية البكارة وفي أحيان كثيرة يكون نهاية الحب.

- لا، أعتقد أن الأبيض يرمز للبدايات. لماذا الحمام رمز السلام أبيض؟ والغراب رمز الموت أسود؟ النور أبيض؟ والعتمة سوداء؟

- الأمر نسبي يا ندى، أيهما أولًا العتمة ثم النور أم النور ثم العتمة؟ أيهما يوجد بغياب الآخر؟

- لا يهم يا أحمد، المهم أن النور هو الحقيقة، وهو الصحيح.

- ربما يا ندى، هذا ما يميز الألوان على كل حال. هل تعرفين ماذا سميت هذه اللوحة؟

- ماذا؟

- الصخب الأخير.

- غريب.

- نعم. هذا الحصان الأسود ذو الجناحين الأزرقين كما ترين مشنوق وسط سماء صفراء، بحبلٍ أحمر.

- أليس هذا دمًا؟

- لا الحبل لونه أحمر.

- لمَ؟

- سأترك هذا لخيالك.

- حسنا يا دافنشي.

قال ضاحكا: وإذًا يا سيادة الموناليزا؟ متى سأرسمك؟

هزت رأسها: لقد تعبت يا أحمد، أنا لا أعرف ماذا أفعل.

- اسمعي يا ندى، أنا لا يعجبني هذا الأسلوب الذي تتخذينه، أنتِ لن تحصلي على كل شيء أبدًا.

- ماذا تعني؟

- أعني أنهم – أهلكِ – مصرين على وضعكِ في اختيارٍ بيني وبينهم.

- ولماذا يفعلون ذلك يا أحمد؟

- لا أعرف والله. لكنهم فعلوه، وعليكِ أن تدركي أن الصدام قادمٌ قادم، مهما حاولتِ تجنبه.

- ألا يمكن ألا أخسر شيء؟

- هذا ديدن الحياة، أن نختار؛ نفوز بأشياء ونخسر مقابلها أشياء.

- لكنهم أهلي يا أحمد.

- .....

- أحمد..

- نعم..

- لماذا سكت؟

- وماذا أقول؟

- لا أعرف، أنا آسفة يا أحمد أنتَ لستَ مضطرًا لتحمل كل هذا القرف.

- أنا على استعداد لأتحمل طالما أنكِ تحاولين.

- سأحاول يا أحمد.

الوعد

كان ذلك مبررًا كافيا لعميد الكلية – هو الذي حُرم من ذلك المنصب بسبب مواقفه السياسية – وإدارة الجامعة، كي يمنعوه من التدريس مرةً أخرى، وتكليفه فقط بالإشراف على الرسائل البحثية. لفتُ نظر وتحقيق لم يقل فيه أي شيء عن شريط الحبوب الزرقاء، ثم خصم خمسة أيام.. وصل كل ذلك لعلم مصطفى ياسين الطالب بعد خروجه من المعتقل منذ شهرين، وقد قضى هناك حوالي تسعة أشهر بالتقريب، نسى خلالها اسمه حرفيا من شدة التعذيب، حين ذهب إليه أحمد علي لم يكن يعرفه، ولم يكن حتى يعرف نفسه، ذهب أحمد علي إلى أبيه الشيخ ياسين، وطلب منه شيئًا كي يذكره ولكي يطمئن إليه ويدرك أنه ليس محاولة أمنية لاستدراجه للحديث، أعطوه صورةً له وهو رضيع يحمله فيها أبوه وتقف أمه وأختيه وأخويه، ذهب بها أحمد علي إليه، لم يعرف من هم الذين في الصورة، جلس يبكي، قال له أحمد هذه أمك وهذا أبوك، وهؤلاء إخوتك، وسماهم إليه، أنتَ مصطفى طالب في كلية حقوق، في السنة الثانية، وأنا أحمد علي محاميك وكنت أدرسك في الكلية، صرخ فيه مصطفى ماذا تريدون مني؟ أنا لم أفعل شيئًا.. احتد أحمد علي: أنا أريد مساعدتك فساعدني، لا تجعلهم يدمرونك، أنتَ مصطفى ياسين مهما قالوا لكَ غير ذلك! كان مصطفى يصرخ: أنا 846 أنا 846 أنا 846...

أصاب شرخا كتفه الأيسر، وزاغ بصر عينيه وامتلأ جسده بالتقرحات، صرخ أحمد علي فيهم: سأقاضيكم، والله سأقاضيكم يا قتلة. أخذوه إلى رئيس المباحث قال: دكتور أحمد نحن لن نسمح بتجاوزك هذا كل مرة! رد محتدا: هل تهددني يا حضرة الرائد؟ هل ستعذبني كما عذبت مصطفى؟ قال بلا مبالاة: أنا لا أهددك، أنا أنفذ! ثم أخبره أنه لن يستطيع زيارة مصطفى هذا مرة أخرى، لأنه ببساطة لا أحد في سجلات السجن اسمه مصطفى ياسين من الأساس، هم لا يعرفونه، ولا يعرفون عنه شيئًا.. ثم أضاف ساخرًا: لا يوجد هنا سوى 846.. لا يوجد هنا سوى أرقام!

حين ذهب ليزوره في بيته، رحب به الشيخ ياسين، رجل هرم ذو لحية رمادية، محني الظهر، يقطن وأسرته الكبيرة في شقةٍ متوسطة المساحة، ويعمل موظفا في التربية والتعليم، قال لمصطفى: إن الدكتور أحمد أكثر الله خيره، كان نعم السند،

كان يطمئننا عليك كل حين، وكان يتكفل بكل شيء.. لم يحرك مصطفى ساكنا فابتسم له أحمد وسأل الشيخ ياسين: هل تذكركم؟ قال: نعم الحمد لله على كل حال، لا يزال يتعافى لكنه يتذكر، البركة في المستشفى الذي قلت لنا عليه، متشكرين أوي يا دكتور. لا شكر على واجب يا حاج ياسين. وفي الزيارة التالية، كان الوضع كما هو عليه، وظل مصطفى ساكنا، والحاج ياسين يبتهل بالشكر للدكتور أحمد، قال أحمد: مصطفى يا بطل سنجلب لكَ حقك، سنرفع قضية وسنكسبها حتما، هل أنتَ مستعد؟ ظل مصطفى ساكنا، واندفع الحاج ياسين: والنبي يا دكتور أحمد كفاية لحد كده، أنت خيرك أغرقنا لكن أرجوك، الحمد لله أن ابننا وسطنا الآن لا نريد قضايا ولا يحزنون، حسبنا الله وكفى. هذه سلبية يا حاج ياسين، إن لم يكن من أجل مصطفى، فلأجل آلاف آخرين مثله قد يتعرضون لمثل ما حدث له وربما أسوأ دون أي ذنب. الله يكرمك نحن لسنا ندًا لهؤلاء، حضرتك أستاذ كبير ولا أحد يستطيع أن يؤذيك، لكن نحن ليس لنا إلا الله. وقام واقفا معلنا انتهاء الزيارة: أرجوك يا دكتور دع ابني في حاله. سكت أحمد علي قليلًا ونظر لمصطفى مليا ثم قال وهو يقوم مغادرًا: فكر في الموضوع.

دخل مصطفى مكتبه، كان يحب تركه مفتوحا كي لا يتحرج الطلبة من الدخول، رآه يجلس مطأطأ الرأس واضعا يديه تحت ذقنه ويبدو أن سنوات كثيرة قد أضيفت لعمره الذي لا يعرفه، لكنه كأي أستاذ يبدو دائمًا كبيرا. كان شهران مرّا على زيارته لهم في بيتهم، تنحنح مصطفى فرفع أحمد رأسه ثم تهللت تجاعيد وجهه وابتسم ابتسامة واسعة ووقف مرحبًا بمصطفى مشيرا له أن يجلس.. أهلا مصطفى،..... كيف حالك؟... أراكَ تعافيت والحمد لله من إصابة كتفك.... وعينك؟.... مصطفى؟... حسنًا هل انتظمت في الدراسة؟ هل يضايقك دكتور جلال؟ مصطفى لماذا جئت إذا كنت لن تتكلم؟

- شكرًا.

قال وهو يقوم من خلف مكتبه ويغلق باب المكتب كعادته حين يكون لديه ضيف مهم: ليس الشكر هو ما أنتظره منك، وإن كنتَ مصرًا أن تفعل فأنا أريده بشكلٍ آخر. وجلس أمامه: مصطفى.. أنظر في عيني، هاي أنظر في عيني أقول لك.. رفع مصطفى عينيه إليه، فقال بتصميم: اسمع.. يجب أن ترفع هذه القضية، إن لم يكن لأجلك فلأجل كل الطلبة الآخرين، هل تريد أن يحدث لأي زميل لك مثل ما حدث لك؟ يجب أن ترفع هذه القضية.. ثق بي، لن يمسَّك أحد إذا رفعتها ولن يمس أهلك، سأحميك، حتى لو تطلب الأمر أن أحميك بحياتي.

- هل تعدني؟

- أعدك! وأقسم لك بحياة ابنتي أني سأفعل حتى لو كانت حياتي هي الثمن..

سكت هنيهة يقلب الموضوع في رأسه، ثم اندفع يحكى له كل شيء، وكأن شيئًا ما كان يعقد لسانه حول نفسه وانفك: أخبره كيف كان خارجا من الكلية إلى البيت وانقض عليه أناس ملثمون وأركبوه البوكس، أغموا عينيه ودخلوا به إلى قسم الشرطة، عرف ذلك من أصوات الناس حوله، كانت يداه مقيدتان بالكلبشات خلف

ظهره، وألقوه هناك جوار حائط، كان يسمع حياة القسم والضجيج وأصوات الجلبة ولا يعرف ماذا يفعل، كل حين يمر أحدهم ويصرخ فيه ألا تراني أمر يا ابن الوسخة، ثم ينهال عليه ركلا وصفعا، وكيف أراه يا دكتور وأنا مغمى؟ ثم بدأت التحقيقات عن أشياء لا يعرف عنها أي شيء. حدثه كذلك عن الكهرباء التي يسلطونها على رقبته ورأسه في ذلك المكان الذي رحلوه إليه، عن أسماء الفتيات التي لا ينادونهم إلا بها، وعن رقم 846 رقمه الذي يجيب به في التحقيقات حين يسألوه عن اسمه، يضحك منه الضابط ويقول: أنتَ مجرد رقم! لا ينزعون الغمامة عن عينيه إلا حين تبدأ وصلة التعذيب، يسلطون عليه ضوءً قويا مفاجئًا فيكاد يصيبه العمى، يربطونه من خلفٍ ثم يرفعونه ويدلونه ويداه مقلوبتان حتى انخلع كتفه. أثناء النوم يوقظونه فجأة ويلقون في ملابسه ماءً مثلجا، ثم يلقونه على البلاط البارد، أو يتحرش به مساجين جنائيين، يطلقونهم عليه، وهم يسألونه فجأة، كل أسئلتهم تدور في فلك واحد، هو لا يعرف عنه أي شيء، تدريجيا بدأ ينسى شكل الحياة في الخارج، ومن شدة التعذيب نسى حتى اسمه، يتذكر تلك اللحظات التي كانت تومض فيها ذكريات، كان ذلك أثناء الصعق بالكهرباء، كنتُ أرى كل شيء يا دكتور، كل شيء، وحين أفيق أود لو أتذكر كل ذلك ثانية لكني أفشل، ويظل الرقم 846 ملحا مؤلما كتلك الكلبشات التي قطعت أعصاب يدي اليسرى كلها، ثم فجأة بعد كل ذلك، جاء أحدهم وأخذ ينادي على مصطفى ياسين، ولم يكن أحدنا يعرفه، أشار نحوي وقال 846 قم يا ابن الزانية ستخرج. فقمت، عرفت فيما بعد أني أنا مصطفى ياسين، صدقني يا دكتور فيما بعد أخبرني أبي أنك كنت تزورني لكني لا أذكر ذلك بالكاد...

اقتحم المكتب فجأة جندٌ كثيرون مسلحون بكراهيتهم وبنادقهم وألسنتهم البذيئة، ودخل معهم مخبرون في زيهم المدني ووجوههم القبيحة، ثم لحق بهم رجل ربعة عريض الجبهة والذقن يرتدي نظارة شمسية مذهبة الإطار، وتبدو طبنجته بارزة من حزام وسطه وقال: لا نريد شوشرة يا دكتور، سنأخذ ابن الوسخة هذا فقط.. انتصب أحمد ومصطفى بسرعة وصرخ أحمد: ما الذي تفعله يا حضرة الضابط؟ كان مصطفى يقف مختبئا خلف أحمد، فمد الضابط يده ليزيح الأخير، فصرخ: هل ستعتدي عليّ يا حضرة الضابط؟ ابتعد يا دكتور. لن أبتعد هذا الفتى في حمايتي. ماذا قال لك ابن العاهرة، أفسح دكتور لا تورط نفسك. أعطني أمر القبض عليه إذا سمحت، أنا محاميه. رفع الطبنجة وعمرها، هذا هو هل يعجبك؟ أنت لا تعرف فيمَ تورط نفسك يا حضرة الضابط. بل أنت الذي يورط نفسه يا أحمد بك، وسع. أزاح أحمد بضربة في كتفه، لكنه استند على مكتبه، وأخذ يكيل الضربات للمخبرين الذي انقضوا على مصطفى الذي حاول التملص منهم، وتقدم الضابط ليبعد أحمد عن عساكره، فتفلت مصطفى ممن يحاولون الإمساك به ودفع الضابط بعيدًا عنه، فصرخ: تدفعني يا ابن المتناكة وضغط على الزناد.. وقع مصطفى على الأرض والدماء تغرق قميصه، أمسكه أحمد بجزع، وتجمد الضابط وجنده، احتضنه أحمد، كان يرتجف وبدأ عرق بارد ينساب على وجهه مختلطا بالألم، تشبث بقميص أحمد، وقال من وسط شهقات الدم الذي يسيل من فمه: أنتَ وعدتني. أفاق الضابط على أصوات الناس، الذين هرعوا فور سماعهم صوت الرصاصة، قال للا أحد: كان

يحاول أن يعتدي على دكتور أحمد واستغاث بنا، كنا نؤدي واجبنا، وأشار لجنوده: هيا.. فانطلقوا يحملون مصطفى الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكان دكتور أحمد لا يزال في وضعه يحتضن الفراغ وصدى الصوت يتردد حوله: لقد وعدتني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المارشال لا يعرف كل شيء

تردد النداء المقدس، يحمل نسمات معطرة، لكنها عند أنف رزق استحالت دخانا باهت السواد، يخترق صدره عبر مبسم الشيشة، وهو ينادي على الصبي ليغير له الحجر، ويصب له مزيدا من القهوة المقدسة.. خشخش صدره وهو يقهقه على القهوة المقدسة، لا يعرف لماذا خطر بباله أبا لهب، لعله اسم المقهى الذي يجلس فيه، والذي يوحي بشكل ما أنه يعود لواحد من كبار كفار قريش في زمن سحيق. نفخ الدخان وهو ينفخ كرشه أيضًا، ويربت عليه شاعرًا بالفخر. كان الناس ساعتها يقفون فوق الجبل المهيب، وتلبياتهم تشق الأفق يحملها الطير، لعله نفس الطير الأبابيل الذي حام هنا يومًا بالبيت العتيق ليحطم جيشا بفيلته، أو ربما هو الحمام المبارك الذي لا يصيده أحد، يحمل تلبيات الزائرين، ويرفعها لتحملها عنه الملائكة، ثم ينزل ليحمل المزيد ويرفعه للملائكة وهكذا دواليك.. الحر شديد، والبعض مصر على الصوم، وكثر يحاولون الصعود أكثر وكأن الله هناك، فوق قمة الجبل. كان الصعود يشعرهم بالقرب أكثر. العرق في كل مكان، والرائحة أحيانًا تضيق بها الأنوف، لكنها تضفي هيبة، إن القدسية تكمن في المشقة ذاتها، فلا أمر عظيم يأتي دون تعب عظيم! التلبيات مستمرة لرب البيت، ورزق جالسٌ يؤدي مناسكه بشرب القهوة وتدخين الشيشة والتحدث في الكابينة العامة.. ألو.. سامعني؟ أنت عارف الزحمة! الله يرزق كل مشتاق.. أيوه أيوه.. أنا بخير.. والله بخير.. نَهَر أم الدنيا وحشتني.. سلم لي على كل الناس.. حد جنبك؟ كويس! كله تمام والشنطة معايا.. تفتكر نجيب هدية إيه للباشا؟ سبحة يا غشيم؟ بل مِسك إن شاء الله!

يعود لكرسيه، يبتسم، كيف كانت عملية التبادل سهلة، جاء حاج آخر، تصافحا، تبادلا الحقائب بهدوء. يا سلام عليّ وعلى أفكاري بنت الكلب. يمسك المبسم بلوعة المشتاق، ويردد النداء، لبيك الل... يقطعه دخان الشيشة خارجًا من أنفه وفمه.. هم لبيك!

حين وصل، وجد على بيته: حجٌ مبرور وذنب مغفور وصورة باخرة، وحمدًا لله على السلامة يا حاج.. ذبح ثلاثة خرفان وخضب يده بالدم، ورسم علامات بكفه على الحائط، يقولون إنها تبعد الحسد.. استقبله نساؤه الثلاث بالحفاوة والتقدير، وكان يهز رأسه في وقار والناس تجري نحوه لتقبل يده، وهو يتمسك بالمسبحة ويغمغم بكلمات لا يفهمها أحد..

هل واجهتك أي صعوبة في المطار يا حاج؟ أبدًا والله البركة في الباشا. بحث بعينيه عن الحقيبة المهمة، اطمأن أنها بخير، فقال مبتسما في الجموع: الله يرزق كل مشتاق!

... ...

- تقليدي جدًّا.

- ماذا تعني؟

- رجل يذهب للحج لتجارة المخدرات. هذا أمر مهروس في كل القصص.

- مهروس؟ يا لكلماتك!

- على الأقل كلماتي مختلفة وليست مكررة من فيلم عربي قديم محروق.

- هل تتحداني؟

- لا.. لكن اعترف أنتَ كاتب نصف كم!

- نعم معك حق، فكرة تاجر المخدرات فكرة تقليدية سخيفة، خصوصا أنه سيصبح عضو في مجلس الشعب.

- ها أرأيت؟ لماذا تنبش القبر عن أفكارٍ انتحرت؟

- حسنا.. سأغيرها.. جاءتني فكرة أفضل.

- ليس من حقك! رزق أحب دوره.

- هاها ليس من حقي؟ إنهم شخصياتي وهذه روايتي أفعل ما أشاء.

- أليس من حقهم أن يختاروا؟

- يختاروا؟ أنا من صنعتهم وأنا الذي أختار. أنا ملك هذه الرواية.

- هاها أرأيت؟ أنتَ لا تختلف عني؟ كلانا ديكتاتور.

- لكن....

- لكن ماذا؟ انظر أنتَ حتى تعذبهم! كل ذلك لأنهم يرفضون الشخصيات التي تضعهم فيها؟

- لا أنا لستُ مثلك.

- لماذا تلوم عليّ إذًا؟ أنتَ تعذبهم مثلي بالضبط!

- لا! لا! أنا لستَ مثلك!

- أوه أنتَ لستَ طاهرًا.. إهئ إهئ إهئ..

- تبًا لكَ!

- هاها.. لن تغير رزق إذًا؟

- لا سأغيره.

- ديكتاتور!

- اخرس دعني أعيد كتابة الفقرة.

... ...

تردد النداء المقدس، يحمل نسمات معطرة، لكنها عند أنف رزق استحالت دخانا باهت السواد، يخترق صدره عبر مبسم الشيشة، وهو ينادي على الصبي ليغير له الحجر، ويصب له مزيدا من القهوة المقدسة.. خشخش صدره وهو يقهقه على القهوة المقدسة، لا يعرف لماذا خطر بباله أبا لهب، لعله اسم المقهى الذي يجلس فيه، والذي يوحي بشكل ما أنه يعود لواحد من كبار كفار قريش. نفخ الدخان وهو ينفخ كرشه أيضًا، ويربت عليه شاعرًا بالفخر. كان الناس ساعتها يقفون فوق الجبل المهيب، وتلبياتهم تشق الأفق يحملها الطير، لعله نفس الطير الأبابيل الذي حام هنا يومًا بالبيت العتيق ليحطم جيشا بفيلته، أو ربما هو الحمام المبارك الذي لا يصيده أحد، يحمل تلبيات الزائرين، ويرفعها لتحملها عنه الملائكة، ثم ينزل ليحمل المزيد ويرفعه للملائكة وهكذا دواليك.. الحر شديد، والبعض مصر على الصوم، وكثر يحاولون الصعود أكثر وكأن الله هناك، فوق قمة الجبل. كان الصعود يشعرهم بالقرب أكثر. العرق في كل مكان، والرائحة أحيانًا تضيق بها الأنوف، لكنها تضفي هيبة، إن القدسية تكمن في المشقة ذاتها، فلا أمر عظيم يأتي دون تعب عظيم! التلبيات مستمرة لرب البيت، ورزق جالسٌ يؤدي مناسكه بشرب القهوة وتدخين الشيشة والتحدث في الكابينة العامة.. ألو.. سامعني؟ أنت عارف الزحمة! الله يرزق كل مشتاق.. أيوه أيوه.. أنا بخير.. والله بخير.. نَهَر أم الدنيا وحشتني.. سلم لي على كل الناس.. حد جنبك؟ كويس! أنا رتبت والعريس دفع خلاص.. تفتكر نجيب هدية إيه للباشا؟ سبحة يا غشيم؟ بل مِسك إن شاء الله!

يعود لكرسيه، يمسك المبسم بلوعة المشتاق، ويردد النداء، لبيك الل... يقطعه دخان الشيشة.. هم لبيك!

حين وصل، وجد على بيته: حجٌ مبرور وذنب مغفور وصورة باخرة، وحمدًا لله على السلامة يا حاج.. ذبح ثلاثة خرفان وخضب يده بالدم، ورسم علامات بكفه على الحائط، يقولون إنها تبعد الحسد.. استقبله نساؤه الثلاث بالحفاوة والتقدير، وكان يهز رأسه في وقار والناس تجري نحوه لتقبل يده، وهو يتمسك بالمسبحة ويغمغم بكلمات لا يفهمها أحد..

ها قد نال الكلمة التي تمنحه حصانة مؤقتة، هي مفتاحه للحصانة الحقيقية، بحث بعينيه عن الحقيبة التي فيها هدية الباشا، اطمأن أنها بخير، فقال مبتسما في الجموع: الله يرزق كل مشتاق!

... ...

- ؟؟

- ماذا؟

- ماذا جعلته؟

- ستعرف في حينه.

- كيف لا أعرف وأنا المارشال؟

- وما المشكلة؟

- كيف تعرف شيئًا لا أعرفه؟ المارشال يجب أن يعرف كل شيء!

- أنتَ المارشال ولستَ الله كما تحسب نفسك!

- وهل أنتَ الله؟

- .....!!

- أخرستك!

وفاة طبيعية

دق جرس الباب، فتح الحاج ياسين، ربما توقف الزمن، لم يشر لدكتور أحمد بالدخول، قال أحمد الذي صار أشعثا: هل سنتكلم على الباب؟ وكانت ندى تقف جواره لا تفهم شيئًا، قال الحاج ياسين: ماذا تريد دكتور؟ هذه ابنتي يا حاج، إنها مثل مصطفى بالضبط، إنها كل ما أملك في الدنيا مثل مصطفى بالضبط والله، وأنا مستعد للتضحية بها في سبيل كل من هم مثل مصطفى، هل تفهمني؟ هم الحاج ياسين بإغلاق الباب: خذ ابنتك من هنا يا دكتور أحمد. مد أحمد يدًا مرتجفة يمنع انغلاق الباب وقال: يا حاج ياسين لا بُد أن تأخذ حق ابنك. حق ابني؟ ابني مات موتة ربنا يا دكتور، هل سآخذ حقي من عزرائيل؟ موتة ربنا يا حاج ياسين؟! نعم يا دكتور.. أنت تخون دم يا حاج! أنا لا أخون شيئًا، اسمع يا دكتور، اسمع جيدا، مصطفى راح، ولن يروح إخوته هل تفهم؟ قالوا لي إن اعتبرت الأمر وفاة طبيعية فسيوفرون عملا لأخويه، ويوفرون لهم سكنا في مساكن الحكومة. وأنتَ قبلتَ ثمن دم ابنك؟ لا ليس ثمن دم ابني، كنوز الأرض لا تساوي شعرة من مصطفى، لكنه ثمن أن يعيش إخوته، أرجوك دكتور، إن لم أقبل بهذا فسيفعلون بكل إخوته ما فعلوه به، قلت لك يومًا نحن لا أحد لنا، رجوته كفى ما جرى، لكنه لم يسمع كلامي وصدقك، وها قد تحقق ما قلته لك وله، ماذا تريد منا يا دكتور؟ أن يموت كل أولادي وتفوز أنت بمجد القضايا؟ حاج ياسين ما هذا الكلام؟ هذا هو الكلام من هاهنا فصاعدًا دكتور.. اسمعني يا حاج، القضية أنا شاهد فيها وسنكسبها.. تكسبها؟ وكل زملائك شهود ضدك يا دكتور؟ كلهم قالوا إن مصطفى كان فعلًا يتعدى عليك. يا حاج ياسين أنا الشاهد الرئيس، والله سنكسبها. لا تذكر اسم الله، فلا أحد فيكم يعرفه! ثق بي. كما وثق بكَ مصطفى فقتلته؟

.....

مع السلامة دكتور.

مسرحية

يصطحبني ليريني المسرحية. أقول له متعجلا: هيا بسرعة خذ مكانك! يسخر: قال يعني الكاتب الذي لم تجيء به ولادة! أزجره فيقوم إلى مكانه بهدوء.

أشعل موسيقى Epic Score – Creator of Worlds فيبدأ العرض:

على جانب المسرح الأيسر يظهر السوق فارغ تقريبا.. والناس معظمهم مرتدون القمصان والبناطيل والفساتين يجلسون مقرفصين أمام صندوقين مربعين من الخشب، موجودين على عمق قليلًا في منتصف المسرح، يظهر في أحدهما محمد جمعة، وفي الثاني مديحة: محمد جمعة في حلة سوداء أنيقة، ومديحة متأنقة بفستان سهرة أسود يبرز منه صدرها الشهي. والاثنان مربوطان بخيوطٍ رفيعة لامعة من أيديهما ورأسيهما، والخيوط متجمعة في خشبتين مصلوبتين، يمسكها المارشال الذي اتخذ مكانه في الأعلى على كرسي ضخم فصار أعلى من المسرح والجمهور معًا. وبعض الأفراد من الجماهير العريضة يقفون أمام دكان نور، على الجانب الأيمن من المسرح، يشترون الكتب ويلوحون بها بوجوه جادة الملامح، ويمسك نور بكتبه ويلوح بها هو الآخر في وجه الناس الجالسين الصامتين أمام الصندوقين المربعين لكنهم لا يلتفتون، وفي المربعين يتحرك محمد جمعة ومديحة كدميتين فيصنعان حركاتٍ بلهاء حيث تهتز أذرعهم ووجيهما كحركات عرائس الليلة الكبيرة، يحركهما المارشال الجالس فوق كرسيه الضخم في الأعلى، تتحرك رأسيهما يمينًا ثم يسارًا ويبدأ واحدٌ أو اثنان من الجالسين أمام المربعين فيحركان رأسيهما مثلما تتحرك رأسا محمد جمعة ومديحة، في حركةٍ رتيبةٍ موحدة..

إظلام.

أظلم المسرح لحظيًا ثم اشتعل بإضاءةٍ حمراء تطفئ وتومض كأنها في ملهى ليلي، اشتعل الضوء فجأة وكانت الموسيقى قد سكنت لحظة عند الدقيقة 2:20 واشتعلت مرةً أخرى، كأنها تنتظر اشتعال الضوء، وصرخت الجوقة في الموسيقى ونزل المارشال من فوق كرسيه الضخم، يحمل صولجانه العسكري، ورفع يداه ممدودتان وقال ككاهن من عصور غابرة: نعم! نعم! نعم! أنا إله الحقيقة، أنا الذي أقول وما أقوله يصير هو الحقيقة، هؤلاء عبادي المخلصين، يعرضون كلامي، قرآني، إنجيلي، توراتي، لا يعرضون إلا كلامي فقط، وكلامي هو الحقيقة! ينقلونه لأبنائي المخلصين، شعبي! نعم! نعم! نعم! أنا الرب، أنا الإله، أنا الحقيقة!

- أعوذ بالله! هذا كفر! لن أكتبه!

- ستكتبه فأنتَ تحسب أنه سيعجب القراء!

- لا لن أكتبه!

- لكن هذا فصل جيد! أفضل من الخراء السابق: المارشال لا يعرف كل شيء! هيء هيء

- لو كنتُ أعرف لما كتبته!

- ألستَ تدعي أنكَ تقول الحقيقة؟ فلماذا تهتم إن أعجبني أم لم يعجبني! ثم ألم تقل إنك مَلِك هذه الرواية تتحكم فيها كما تشاء؟ كيف لم تكن تعرف أنه سيعجبني؟

- اسمع، أنا لن أكتب هذا الكلام.

- لا يهم سواء كتبتَ أم لم تكتب لن يتغير شيء!

- من قال ذلك؟

- أنا أقول! لن يصدقك أحد، ولن يقرأ أحد، ولن يتغير شيء، أنتَ تضيع وقتك!

- لكني أفعل ما عليّ فعله!

- أنتَ إذًا مجرد ترس، مجرد دمية في هذا العالم، مثلك مثل كل كهنتي المخلصين، تفعل ما عليكَ فعله، لا ما تريد فعله!

- لكن أنا أريد أن أكتب!

- وهل ستغير الكتابة شيئًا؟

- لا أعرف! أنا أتخذ موقفا منكَ ومن العالم على الأقل!

- لن تغير شيئًا! أنتَ تعرف جيدًا أنها لن تغير شيئًا! سأظل أنا إله الحقيقة، وسيظل كهنتي المخلصين، عبادي المخلصين، يلقنون الحقيقة كما أراها أنا! أنا حقيقة، أنا كل الأشياء، لكن أنتَ؟ ما أنتَ؟ أنتَ لا شيء يا سيد ميسرة! لا شيء على الإطلاق!

- لن تنتصر!

- إذًا لن تكتب كلامي؟

- لا لن أكتبه!

- سنرى!

الملوخية

أغلق الهاتف، قالت فيروز إنها ستسافر إلى باريس. آه فيروز. كم مرّ من السنين؟ الزواج وشهر العسل في بيروت؟ لا، أبعد من ذلك! منذ ذلك اليوم الذي رحل فيه مع أبيه إلى العاصمة. استراح في كرسيه، ووقفت عاملة الماكياج تضع لمساتها الخفيفة على وجهه، فأسدل عينيه مستكينا. كيف مرت كل هذه الأيام؟ تلك الشقة الصغيرة جدًّا، الملقاة في حي بعيد، وعبد الله الذي كان في سنته الأخيرة في كلية التربية، وسنته هو الأولى في كلية الحقوق. آه، كل شيء يبدو بعيدًا جدًّا، كأنك تنظر لحياةٍ شخصٍ آخر، عبد الله؟ ياه! عبد الله طوال عمره عقبة! عقبة في وجه أمي، وعقبة في وجهي، فوجئت حين عرفتُ أنه أخي الشقيق وليس ابن قرنفلة زوجة أبي. لم أشعر ناحيته بإخوةٍ قط، ولم يبادلني هو أيضًا، آه عبد الله كان مجرمًا!

مال رأسه مع يد العاملة وهي تكحل له عينيه برفق.

كأنها ليلة العرس. كل ليلة كأنها ليلة العرس. وأين العروس؟ العروس تتمنع، العروس هناك في أستوديو الأخبار تقول النشرة وتتمنع! أنا وأنتِ يا ندى والزمن طويل، طويل جدًّا. أنا لا أمل ولا أكل، سترين! آه! الحياة في العاصمة علمتني ذلك. من بعد النعيم، رمينا في الشقاء. أتذكر لحظاتي الأولى في العاصمة، وأنا أنتظر كل يوم في الصباح الخادمة كي تجلب الفطور، ولا أجد أحدًا يجلب الفطور، أخرج لأبي الذي كان يتربع على كنبة في صالة الشقة الصغيرة، وأجده يقظا، أسأله عن

الفطور، لكنه لا يرد. يقول لي ككل يوم: أريدك أن تكون ذا شأن يا محمد، أبوك بهدلته الأيام وداس عليه الناس حين وقع، وأنتَ ستكون ذو شأن وتنتقم لأبيك.

فتح عينيه وعدل من وضع رابطة العنق، وربت على كرشه تربيتا خافتا، وتأمل نفسه في المرآة.

تعالى وانظر يا أستاذ جمعة! ابنك الأستاذ محمد جمعة عبد الودود أشهر مقدم لأشهر برنامج في نَهَر كلها! ممتاز يا ولدي، ممتاز. لم يكن سهلًا أبدًا يا أستاذ جمعة، لم يكن سهلًا. أعرف يا بني، النجاح دائمًا صعب. النجاح سهل يا أستاذ جمعة، لكن طريق النجاح هو الذي صعب، ألستَ من علمني ذلك؟ ونحن في الطريق للمدرسة الإعدادية لأول مرة، قلتَ لي: الناس في البلد عينها عليك، لا بُد أن تكون شاطر وتطلع الأول. لكن أنا لا أحب المذاكرة يا بابا. ومن قال لكَ حب المذاكرة يا حمار؟ وكيف أطلع الأول إن لم أذاكر؟ ما أعرف هذه مسئوليتك، أن تطلع الأول! كنت أتعب كل يوم في ابتكار طرق غشٍ جديدة مبتكرة، وكنت الأول في ذلك، وكنت أطلع الأول على الفصل والخامس على المدرسة. كنتَ تمسك أذني وتقول لماذا لم تطلع الأول على المدرسة؟ فأقول وأنا أتملص منك: أنا مالي هم الذين وضعوا الأول في لجنة غير لجنتي، ووضعوا معي الرابع على المدرسة. ضحكت وأنتَ تقبل رأسي وتغمرني بصدرك: يا ابن الكلب ناصح مثل أبيك.

ابتسم، فقالت عاملة الماكياج: بال الأستاذ رائق اليوم.

- من يديك الناعمتين يا دكتورة سارة.

تضحك ضحكة خفيفة: - طالما ناديتني دكتورة إذًا هو رائق فعلًا.

- أستاذ محمد هل نبدأ من فضلك؟ قالت مديرة الإعداد.

- أهلا يا إلهام، تفضلي ألهميني.

ابتسمت: إن لدينا ضيفان اليوم.

- هل هما....

أومأت قبل أن يكمل.

- بخصوص؟

- موضوع تزوير انتخابات مجلس الشعب إياه.

- آه.. نسيت أنها حلقة اليوم.

- هل تحتاج أن تلقي نظرة على الأسئلة؟

نظر لها مبتسما ثم قال: أنا خلصت الإعدادية من زمن! وضحك كثيرا. فابتسمت مجاملة وهي لا تفهم شيئًا.

... ...

ثري

تو

ون

(يظهر على الشاشة محمد جمعة يبتسم بأناقة، يلمع ألق خفيف على صلعته، والكاميرا مقتربة منه، بحيث لا يظهر غيره، وخلفه خلفية زرقاء عليها خريطة نَهَر في وسط خريطة العالم)

أعزائي المشاهدين من كل مكان في نَهَر أسعد الله مساءكم بكل خير، موعدكم مع حلقة جديدة من برنامجكم الدنيا من فوق سنتحدث اليوم عن قضية مهمة جدًّا، شغلت الرأي العام، وتهمنا جميعًا، دعوني أرحب معكم أولًا بضيفينا الكرام:

(تبتعد الكاميرا فيظهر الأستوديو كاملا ومحمد يجلس في رأس طاولة عريضة يجلس على طرفيها شيئًان يواجهان بعضهما، واحدٌ على يمينه والآخر على يساره، ثم تذهب الكاميرا للجالس على اليمين ومحمد جمعة يكمل تعريفه)

الأستاذ هيصة؛ عضو لجنة سياسات الحزب الحاكم،

(تستخدم الكاميرا خاصية الزووم إن ليظهر فوق الكرسي فردتا بنطلون بذلة أسودان تكسيان رجلين منفرجتين وحذاؤهما يومئ مرحبًا كأنه رأس، والمؤخرة مستقرة بالكاد على الكرسي، والذراعان والرأس للأسفل، لا يظهران بسبب الطاولة، كان مقلوبا. ثم تعود الكاميرا لمحمد جمعة الذي يكمل تعريفه بالآخر)

والأستاذ حقنة؛ رئيس حزب الباذنجان المخلل المعارض،

(تذهب الكاميرا بسرعة إلى يسار محمد جمعة، ويمين الشاشة، وتستخدم نفس الكادر، وتظهر رجلا أصلعا نحيلا، يرتدي نظارة مقعرة ويلبس بذلة سوداء تحتها قميص أبيض دون رابطة عنق)

نرحب بضيفينا الكرام ونبدأ الحديث أعزائي المشاهدين بالموضوع المهم الذي شغل الرأي العام كله، حتى المارشال قد تدخل في الأمر شخصيا كي يتبين الحق من الباطل، وآمل من الله أن نكون في برنامجنا نستطيع أن نكشف الحقيقة بكل شفافية وحياد ووضوح، وهذه مزية الإعلام الواضح الصريح الذي لا يخاف شيئًا، في عهد الحريات والديمقراطية. ونحن أعزائي المشاهدين في فترةٍ مهمة من تاريخ نَهَر بلدنا الحبيب، أم الدنيا، ونتمنى لها جميعًا، أن تكون مثل الدنيا، ولن يكون ذلك إلا بالديمقراطية النزيهة، والانتخابات الشفافة، إننا نضرب مثلًا للعالم أجمع، ولأشقتنا العرب كلهم في كيف تكون الديمقراطية، والعالم كله يرانا - شعب نَهَر العظيم - ونحن ننزل في كل انتخابات مجلس شعب حرصًا منا على حضور هذا العُرس الديمقراطي المهيب، الذي يخدم الوطن ويخدمنا كمواطنين، وإيمانا مني كإعلامي أحرص على واجبي الوطني، فإنني الآن سأناقش قضية التزوير التي سمعنا بها جميعًا في بعض الدوائر، والتي تدعيها المعارضة، وأتمنى أن نصل للحقيقة كي

نثبت للعالم كله، كدأبنا أن شعب نَهَر لا يوقفه عن الديمقراطية وعن التقدم غير تلك الدسائس اللعينة والفخاخ التي تنصبها لنا أمريكا وإسرائيل في كل ناحية..

اسمحوا لي أن أرحب مرةً أخرى بضيفي الكرام، ويمكنني أن أبدًا أسئلتي بناحية اليمين بما إنها المدعي عليها الآن وصاحبة الحق في الدفاع عن نفسها كما هو في أي بلد ديمقراطي يحترم مواطنيه..

أستاذ هيصة، أنتَ كنتَ عضوًا في مجلس الشعب في دورةٍ سابقة، وتعرف كواليس هذه العملية المهمة، وكيف تُدار بنزاهةٍ شديدة، فهل ترى أن تزويرًا حدث لإرادة النَهَريين هذه المرة؟

(ينتقل المخرج إلى كاميرا أخرى يظهر في كادرها محمد جمعة والأستاذ هيصة فقط، الذي تهتز قدماه بشدة ويتحدث بصوتٍ عالٍ جدًّا من مؤخرته)

- يا أستاذ جمعة، التزوير حدث لا شك في ذلك، لكنه حدث لصالح أناسٍ محسوبين على المعارضة لا يريدون خيرًا لهذا البلد! إن ذلك الإدعاء ما هو إلا محاولة لإخفاء حقيقة التزوير، لكنها ستفشل حتما. إنها أيدٍ خبيثة تحاول تشويه سمعة رجال الحزب، والمزايدة على رجال يعرف الصغير قبل الكبير كيف يفنون أعمارهم كل يوم في خدمة نَهَر.

- بالتأكيد يا أستاذ هيصة، بالتأكيد.. وإذًا انقلب السحر على الساحر، وصار المدعي هو من عليه الدفاع عن نفسه.. أستاذ حقنة، من تجربتك في المعارضة وبما إن حزبك قد خاض الانتخابات أكثر من مرة ولم يفز بأي مقعد، ولا حتى بصوتٍ واحد، فهل ترى أن تزويرًا حدث لإرادة النَهَريين؟

(تقترب كاميرا أخرى بكادر مغاير ويظهر جمعة وحقنة)

- هذا اتهامٌ جائر! وهي محاولة يحاول بها رجال الحزب أن يقلبوا الحقائق لصالحهم كعادتهم لكنا لن نهتز! وإن كان التزوير في صفوفنا فنحن أول المطالبين بمعاقبة المسئولين عنه والمتسببين فيه، فنحن يهمنا شفافية الانتخابات سواء كان ذلك في صالحنا أو لا، فنحن كما تفضلتَ وقلت لا نطمع في أي مناصب ولا نهتم سواء فزنا أو لا، فهمنا هو خدمة المواطن وإنما ترشحنا لمجلس الشعب، فقط، كي نتمكن من خدمته بشكل أفضل.

(تبتعد الكاميرا قليلًا فيظهر ثلاثتهم، ويمد حقنة لسانًا طويلًا جدًّا أحمر مشقوقًا من نهايته، ويصطاد به ذبابة تطير ثم يبتلعها في تلذذ)

- وهل تعتقد يا سيد حقنة – من خبرتك كرئيس لحزب الباذنجان المخلل – أن الملوخية تكون أجمل بالثوم؟

- طبعا لا يا أستاذ محمد، دعني أقولها بوضوح، وكل نَهَر تسمعني الآن؛ إن الملوخية الحديثة لا تصح بالثوم! إن الحداثة الموضوعية تعتمد بالأساس على الخل بديلا للثوم، وهي تمنح بذلك تعددية كبيرة ثقافية وسياسية بل وأجرؤ على القول دينية أيضًا، فهناك خل التفاح وخل الموز وخل الأناناس، إن التعددية هي أساس

المجتمعات الحديثة وإننا لن نأخذ دورنا في الريادة أبدًا إن لم نبتكر نوعنا الخاص من الخل.. ماذا عن خل الكاكا؟ الكاكا متوفرة جدًّا في نَهَر، ويمكننا أن نصنع تجربتنا الخاصة!

- هذا كلام فارغ يا أستاذ محمد، اسمح لي، وهؤلاء الذين يسمون أنفسهم "معارضين"، هؤلاء الذين يعارضون فقط لأجل المعارضة، إن سألتهم، كيف يمكن أن تكون الملوخية بدون ثوم؟ سيقولون لا نعرف، سيظلون يولولون ثم بعضهم سيقول الملوخية حرام، وبعضهم سيقول في الغرب توقفوا عن أكل الملوخية! إنهم يعملون لحساب أجندات خارجية، همها زعزعة الاستقرار في المنطقة، وكلنا نعرفها يا سيدي الفاضل!

- هذه اتهامات لا أقبلها، ويمكنني أن أقاضيك عليها، ثم كيف تقاطعني وأنا أتكلم؟ ألم يعلموك آداب الحديث في الحظيرة حيث تربيت؟

- اذهب واسأل أمك البقرة كنت أرضع منها!

(ترفس قدما هيصة بجلبة، وتحاول ركل حقنة الذي يمد لسانه الأحمر الطويل ويحيط القدمين ويُسمع صوت سعال شديد لهيصة الذي يختنق، يحاول محمد جمعة بيديه أن يبعد بينهما ويفض الاشتباك)

- ليس هكذا يكون النقاش أيها السادة، فلنهدأ أرجوكم، سأعطيكم المجال.. آه.. دعونا ننتقل للأستاذ هيصة كي نعرف رأيه بوضوح أكثر في هذا الموضوع.. سيد هيصة، البعض يتعلل بأن التزوير الذي تم، وقد قلنا لكن أشياء كما يقال والكرنب والقرنبيط والحضارة والهواتف المحمولة الجديدة والمؤامرة الكونية الهائلة ومجلس إدارة العالم، وقالوا هم لكن لا بأس أم للتاريخ والحزب؟ فهل تعتقد أن الثوم مُتعب للبطن؟

- أستطيع أن أعدد لكَ عشرون فائدة للثوم حالا،

(ثم امتدت يده ليهرش عانته من فوق سحاب البنطلون)

- إنني مستعد أن أقول لكَ الآن فورًا خمسون مزية لاستخدام الثوم في الملوخية.. بل إنني جدير بأن أحصي مائة من مبررات أهمية الثوم في الملوخية.. بل وقادرٌ على إخبارك بتلك المكانة الهائلة التي يحتلها الثوم وسط الخضروات.

- نعم أستاذ هيصة، صدقت، لكن بعض الإشاعات انتشرت أنه تم تزوير مقعد أو اثنين للحزب الحاكم الذي يرأسه المارشال، وأنتَ تعلم أن المارشال بنفسه يريد معرفة الحقيقة..

- بالتأكيد، كلنا نريد معرفة الحقيقة، وهناك لجنة مختصة بذلك تشكلت بالفعل بأوامر عليا من المارشال شخصيا، بل وقد عينهم جلالته بنفسه، ممن هم أهل ثقة ونزاهة، وأعتقد أننا في خلال اللحظات التالية سيأتينا الخبر اليقين..

(يتحدد الكادر على محمد جمعة ويبتسم ابتسامة عريضة)

إن الأمر لا يزال شائكا، وإننا بعد الفاصل بصدد الحديث عن عمل القلقاس بالدمعة أم بالخضرة، هل يشكل خطرًا قوميا على البلاد، أم إنه.... نلتقي بعد الفاصل.

... ...

مرحبًا مرةً أخرى أعزائي من كل مكان في نَهَر الحبيبة، كنا نتحدث قبل الفاصل عن الملوخية بالثوم، وقد قال لي الإعداد معلومة لم أكن أعرفها من قبل، قالوا لي إن الثوم مقوي جنسي، ما رأيك أستاذ هيصة في هذا الموضوع؟

(تضرب قدما هيصة ببعض كأنه يصفق ويعلو صوته كضراط)

- بالتأكيد، هذه واحدة من عشرون فائدة للثوم أستطيع أن أعددها لك حالا،

(ثم امتدت يده لتشد قماش بنطلونه الذي انحشر في مؤخرته، فتموجت القدمان قليلًا وكاد يضرب وجه محمد جمعة الذي تراجع متفاديا)

- إنني مستعد أن أقول لكَ الآن فورًا خمسون مزية لاستخدام الثوم في الملوخية.. بل إنني جدير بأن أحصي مائة من مبررات أهمية الثوم في الملوخية.. بل وقادرٌ على إخبارك بتلك المكانة الهائلة التي يحتلها الثوم وسط الخضروات.

- ما رأيك يا أستاذ حقنة في هذا الكلام؟

(كان لسانه يصطاد ذبابة من فوق كتف محمد جمعة)

- هذا لا يعني أي شيء يا أستاذ محمد، يقول الشاعر: رب حسنٌ عند الفسخاني هو شرٌ عند الفكهاني، وأصابعنا لا ترى، لكنها تتلمس، أتعني ما أعنيه؟ نعم هو كذلك بالضبط! إن الحداثة أمرٌ لا مفر منه، إن كان لبلدنا أن تقوم!

أعزائي المشاهدين معنا اتصالٌ هاتفي من مصدر أمني رفيع، لن نعرفه للسرية وحفاظا على الأمن القومي،

(يتركز الكادر على محمد جمعة، ويُكتب على الشاشة في الأسفل في لوحة حمراء بجوار علامة التليفون: مكالمة سرية جدًّا مع خبير استراتيجي)

- أهلا أستاذ محمد جمعة!

- أهلا يا أفندم، نرجو أن تطمئنا عن قضية التزوير، هل خرجت نتيجة لجنة تقصي الحقيقة؟

- أحب أن أطمئنك يا أستاذ محمد جمعة، وأطمئن جميع المشاهدين، إن الأمن مستتب، وعجلة التنمية تدور، والمارشال بنفسه سيتحدث للأمة بعد قليل.

- هذا خبر حصري لبرنامجنا كالمعتاد. متى سيكون هذا اللقاء المهيب؟

- إنه بعد ساعات قليلة، قليلة جدًّا!

- خمس سنوات ربما؟

- أقول لك ساعات قليلة جدًّا، فالأمر لا يحتمل أي تأخير! سنة على الأرجح!

- هذا عظيم جدًّا ومطمئن يا سيدي..

هكذا أعزائي المشاهدين، فلتأخذكم السكينة ولا تقلقوا أبدًا طالما نحن بين يدي الزعيم القائد بطل الحزب وبطل الفيلم، بطل أحلامكم ومسلسلات أطفالكم الكرتونية، وبطل قلوب نسائنا بوسامته المعهودة، وبذلته الحمراء المهيبة، ونياشينه البراقة كالثريا،

(يعلو صوت فساءٍ متتابع بوضوح، فيلتفت محمد جمعة إلى يمينه)

- هل تقول شيئًا يا أستاذ هيصة؟

- آه! أنا فقط أدعو للمارشال بطول العمر!

أعزائي المشاهدين لا تذهبوا بعيدًا، فإننا وإن كنا حسمنا قضية التزوير، لدينا قضية أخرى ملتهبة، ولكن بعد الفاصل.. لا تذهبوا بعيدًا..

نم يا أبي

الضباب يغلف كل شيء، وأحمد علي يعدو لاهثا يدفع السحب البيضاء الثقيلة الجاثمة بيديه، يحاول أن يصنع لنفسه متسعًا صغيرًا وسط الضباب والعتمة، يزحف، ثم يرى نور، يهب، يركض نحوه، أوه لا! أهو نفس الحلم ثانيةً؟ وجد سيارة مليئة بأجسادٍ عاريةٍ مكومة فوق بعضها، وتبرز من نوافذها أذرع وأرجل ورؤوس وأعضاء تناسلية، حاول أن يهرب لكن يدين قويتين حشرتاه خلف المقود. تحشرجت السيارة تحت وطأة حملها الثقيل، وأول ما دارت، حتى هجم عليها من كل صوبٍ أناسٌ عراةً يحاولون التشبث بها، فأخذوا يتمسكون بالأعضاء البارزة، فينتزعونها من شدة جذبهم، وسال دمٌ وعلا عويل، والضباب في حربٍ مستعرة بينه وبين نور السيارة الخارج من كشافيها الأماميين، وأيادٍ تضرب على الزجاج الأمامي والمجاور لأحمد علي، تستجديه أن ينقذها، يهز رأسه آسيا يغمغم كلماتٍ لم يسمعها هو، ثم تقافزوا على السيارة وألقوا أنفسهم على مقدمتها بعنف، وتمسكوا بالزجاج كأنهم أبطال في فيلم حركة أمريكي سخيف. اشتد بطء السيارة وانفجر إطاراها ناحية اليمين، فمالت تحك في الطريق وتصنع شرارات عاتية، والجموع لا تزال تتسلقها، وأحمد علي يحاول السيطرة على المقود بأقصى طاقته، يصرخ: سننقلب، سننقلب. رائحة الأسفلت المحترق، والضباب والدخان والصراخ والرؤية المشوشة تكاد تصل حد العمى. لا يعرف إن كانت السيارة تتبع أوامره فعلًا، أم أنها محمولة مدفوعة بلهاث هذه الأجساد البائسة التي تحاول التشبث بها، وصلوا إلى بيتٍ كئيب من الخشب، وحيدًا وسط الأحراش، ونزلت الأجساد الممزقة والمدفوعة، وأمسكوا بأحمد علي من ياقة قميصه كأنه مجرم، وقادوه إلى داخل البيت. كانت محكمة، وضعوه في القفص، لم يجد ردائه الأسود، جلس صامتا، كان يعرف مَنْ القضاة هذه المرة، هذا الحلم السخيف لماذا يتكرر؟ جاء الشهود؛ مجموعة كبيرة من الغلمان يرتدون رداء السجن الأبيض، يبدو عليهم التبسم والنضر، جلسوا في الصف الأمامي، نادى عليهم فالتفتوا عابسين، بدأ يلمحهم، إنهم الطلبة أصحاب الصور، أليسوا هم القضاة؟ عادوا ببصرهم حين سمعوا الحاجب يصيح: محكمة.

دخل القاضي يرتدي الرداء الأسود الملكي، كان الرداء رداؤه هو، رداء أحمد! لم يلمح القاضي الذي أشار للشهود: ها هو ذا، فانظروا ماذا تأمرون!

- لقد خذلنا.

- خاننا.

- تخلى عنا.

- تركهم يقتلوننا.

- كان يعرف كل شيء!

- لقد قتلنا!

ارتجف أحمد علي، وسمع القاضي يقول: وأنا أشهد معكم!

إذًا هو أنتَ يا مصطفى؟

صاح الحاجب: الشاهد الأخير.

دخل مصطفى يرتدي مثل بقية الشهود، بنفس هدوئه المعتاد، وصمته الجليل. من القاضي إذًا؟

سأله القاضي: من قتلك؟

أشار مصطفى بيده نحو القفص دون أن ينبس بحرف.

- لقد خان الوعد.

- خان الوعد.

- خان الوعد.

- خان الوعد.

أخذت تتردد صدىً في السديم، حتى طرق القاضي بمطرقته آمرًا بالسكوت، وقال: حكمت المحكمة حضوريا على أحمد علي بالإعدام كي يتطهر من خيانة الوعد والأمانة.

صرخ أحمد علي: لا لم أخن لم أخن.

وقام القاضي واقفا يستعد للمغادرة وساد الهرج بين الأجساد العارية المتفرجة في القاعة، وظل الشهود على هدوئهم، صرخ أحمد يا سيادة القاضي اسمعني، التفت إليه القاضي بوجهٍ حزين وسأله: ماذا تريد يا خائن؟

ساعتها وقع الضوء على وجهه، فأدركه على الفور، كان هو نفسه القاضي!

... ...

استيقظ فزعا، فشهقت ندى، كانت جواره، تضع كمادات باردة على جبهته. لم ينم سوى ساعتين، وطوال الساعتين كان يخرف بكلماتٍ ويهذي. كم مرّ من ذلك اليوم الذي أخذها فيه معه إلى الحاج ياسين؟ ربما أربعة أو خمسة أشهر وربما أكثر. كأن عمرًا كاملا قد مر. في طريقنا للبيت، أخذت أسألك عما قاله ذلك الرجل العجوز، من مات؟ ولماذا يتهمك بالقتل؟ ولم ترد يا أبي. كنت صامتًا واجما كأنك عميت. وصلنا إلى البيت وكنت أنا أبكي لا أفهم شيئًا. تركتني أصعد وحدي وغادرت، أول ما فتحت أمي الباب ألقيت نفسي في حضنها، واشتد نحيبي. أذكر أنها في تلك الليلة اتصلت بك على تليفون المكتب، كنت أسمعها وأنا نصف نائمة ولا تزال دموعي تبلل مخدعي، سمعتها وهي تصرخ فيك: هل تريد أن تحطم ابنتك وهي في عز شبابها؟ وربما احتقنت وجنتها بالدم وهي تقول: أنت أب مستهتر كيف تشرك ابنتك في هذه الأمور؟ وكلماتٌ كثيرة لا أحب أن أتذكرها، ولا أعرف بماذا رددت أنتَ عليها، لكنها ختمت مكالمتها بقولها إنني لن آتي لأزورك من الآن فصاعدا، وإنك إذا أردت رؤيتي أنا أو رشا فلابد أن تكون هي موجودة معنا. ماذا جرى لك يا أبي في هذا الشهر الذي مُنعت عن زيارتك فيه؟ جئتك بعدها غاضبة لأنك لم تحاول زيارتي، لكني وجدتك هكذا صامتا، تجلس متأملا الصور، وتتحدث مع أطيافٍ وعفاريت أقزام وأشباح وتتكلم عن أشياءٍ ليست موجودة، وتسلم على أناسٍ ماتوا، تضحك وتبكي وتهز رأسك، ثم تغضب وتصرخ في اللاشيء، وتلوح بيدك، وتتشنج، آه كنت تجلس دائمًا على كرسيك المفضل في غرفة المكتبة، تتأمل صور الطلبة، دون أن تتحرك، وكنت أحدثك لكنك لا ترد. أخبرتك أني سأتصل بأمي، فنظرت لي ولم ترد، هل كنت تسمعني وتتجاهلني؟ لكنك سمعت جرس الباب وفتحت لي، ورحبت بي بابتسامة، وحين عانقتك ربت على ظهري. اتصلت بأمي، فحضرت وأحضرت الحاج رزق ومعه طبيب. لماذا هذا الحاج رزق يا أمي؟ اخرسي يا بنت ولا تتدخلي في شئون الكبار. ألف لا بأس ألف لا بأس عليك يا دكتور أحمد. وأنتَ تنظر له يا أبي ولا ترد، وأرى نظرة غضب في عينيك، وأخذت تقاوم الطبيب بعنف، وتصرخ فيه أنك لن تسمح له بتخديرك، لأنك لو تخدرت سيقتلونك، سينتقمون منك وأنت نائم. لكنهم تكالبوا عليك وأعطاك الطبيب حقنة منوم، قال إن أعصابك تعبانة وإنك بحاجة لراحة واهتمام ومحافظة على الدواء. كان ذلك منذ شهرين إذًا؟ ربما لأن بعدها تقدم الحاج رزق للزواج من رشا، متزوجٌ من ثلاثة ويريدها الرابعة. وأمي وافقت، وقلت لا بُد أن يوافق أبي، لكن أمي قالت أبوكِ مريض ولا يقدر حتى على الكلام، وخير البر عاجله، هل تريدين أن يطير العريس من أختك؟ ولم تقل رشا شيئًا. صرخت: إنه مريض وسيشفى، أبي لم يمت. ولم تقولا شيء، وبدأ الاستعداد للفرح. قلت لرشا: فرح مرة واحدة؟ قالت: ولماذا أتأخر؟ قلت: حتى تكملين دراستك على الأقل. مطت شفتيها وقالت: كل الحكاية فاضل سنة، سأتمها لأني ساعتها سأكون الوحيدة المتعلمة وسط الأربعة، سأكون البريمو. وضحكت. لكني لم أضحك.

أهي الكوابيس مرةً أخرى يا أبي؟ أصرت تخشى النوم؟ لم تعد تنام يا أبي إلا حين أكون جالسة جوارك. لا تخف لن يقترب منك أحد وأنا هنا أحرسك. نم يا أبي جيدا فلابد أن تقوم، فأنا أحتاجك. ها أنا جوارك كما طلبت وكما يجب عليّ أن أفعل. أما

كان يمكن أن أكون جوارك وجوار أحمد؟ هل تعرف أني جعلت أحمد يقرأ خطابك؟ قال لي: أبوكِ يظلمك ويظلمني، لماذا يشعرني أني سأخطفك منه. دافعت عنكَ يا أبي بكل قوتي، فصاح فيّ أحمد تدافعين عنه بعد كل ذلك؟ لكني كنت أعرف أنك تحبني، وأنك إنما فعلت ذلك بدافع حبك. وأنا أحبك يا أبي. لكن لي حياتي، أيرضيك أن أصير مثل رشا؟ زوجة رابعة لرجل في مثل عمرك، لمجرد أنه غني جدًّا وسيدفع ويدفع ويدفع ويدفع؟ أنا لست أمي، ولن أكون مثلها، أريد أن أكون مثلك، أفعل ما أنا مؤمنة به، لماذا منعتني من ذلك؟ لماذا منعتني من الحب رغم أنك أحببت أمي؟ هل تخشى عليّ من تجربة مريرة كتجربتك معها؟ لكني غيرها وأحمد كان شخصا طيبا. نعم هو لم يحتمل كل هذا الجنون، لكن ومن يحتمله؟ حسنًا لا تشغل رأسك يا أبي، أحمد راح بجناحيه الأزرقين، المهم أن تقوم أنت لنا بالسلامة.

وآه يا أبي، كان منظرًا مؤذيا قاسيا، وأنا أرى الطبيب، يشق أوردتك بإبرته كي يمنحك سوائل الحياة الضرورية، أتأمل وجهك الذي نحل واصفر، وعينيك الجاحظتين، وجسدك الذي صار يابسا، وأبكي. قال الطبيب إن لديك نشاطًا عصبيا زائدا، وأنه يجب الحرص عليك، وألا تتعرض لأية ضغوط. كنتُ أراكَ تقوم من مكانك فجأة في وسط الليل، وتتجول وسط الشقة وتضحك بصوتٍ عالي، ثم تظل تصرخ في الصور وتقول كلماتٍ كثيرة، ثم تنادي على أناسٍ لا أعرفهم، وحين آتي فأعانقك، تربت على ظهري وتقول إنك بخير، وإنك تراني وأنا مذيعة متألقة، ثم تشير لي مبتسما، إشارة لا أفهمها، لكنها ذكرتني بذلك اليوم في سنتي الثانية في الجامعة حين خلعت العباءة ولبست حجابا عاديا، كنت تبتسم لي ولا تقول شيئًا. وأضحك وأنا أتذكر أحمد وهو يقول لي باسما: لو أني رأيتكِ بهذه العباءة لما أحببتك قط!

إنهم يخططون لزفاف رشا خلال أسبوعين، خالي تعلل بالعمل والكفيل كالمعتاد، أمي طلبت من الدكتور جلال عطية أن يكون وكيل رشا. نعرف أنه صديقك، فلا تقلق ونم يا أبي. كل شيءٍ سيكون على ما يرام.

الغُسْل الأخير

كانت قد اعتادت زيارته في شقة المكتب كل جمعة، تذهب إليه منذ استيقاظها، تنظف له المكان، قدر المستطاع، وتحاول أن تطبخ له أي شيء يأكله، كان يحب أن يشاهدها وهي تكبر، قال: أنتِ بالحجاب أجمل من الإسدال. ابتسمت. لا تصعبي الحياة على نفسك، الحياة جميلة، مثلكِ. تقول له بعينين ضاحكتين: لولا أنك أبي لقلت إنك تحبني! قال: وأنا أحبك! قالت: وأنا أحبك يا أبي. قال مبتسما: زوجك سيكون سعيد الحظ. لماذا؟ سألت من بين سعالها وهي تنفض الغبار المتراكم فوق الستائر. فتاة جميلة ومثقفة وست بيت شاطرة، ماذا يريد أكثر من ذلك؟ قال. لا بُد أن يشبهك يا أبي، قالت. لا! المهم أن يعبر عن مشاعره تجاهك، وأن تعبري أنتِ أيضًا. الصمت يقتل الحب، هل تعرفين؟ كنت وأمكِ معتادان ألا ننام إلا حين يقول كلٌ منا للآخر إنه يحبه، آه زمان. يؤسفني ما وصل إليه الحال. ونظر في الأرض. لا عليكَ يا أبي. ندى اسمعي بالنسبة لموضوع أحمد أنا لم... قاطعته: أبي أرجوك، هذا

الموضوع انتهى ولا داعي لفتحه مرة أخرى. سكت، تركها تكمل التنظيف، وتناول الجريدة ليقرأها. ولم يتحدثا ثانية طوال اليوم.

... ...

- وماذا سيفعل في المستشفى؟ الأطباء قالوا إنه سليم عضويا ولكنها حالة نفسية!

- على كل حال أنا لا أحبذ المستشفى. المستشفيات تزيد المرض.

- ماذا تقترح إذًا؟

- حسنًا أنا أستطيع أن أحضر لكم ممرضة تخدمه في البيت من بكره لو تحبون!

- كَثُرَ خيرُك يا حاج رزق!

- العفو يا مدام منار، نحن صرنا أهل.

قالت بحدة لا مبرر لها: لن تخدم غريبة أبي وأنا على قيد الحياة!

... ...

إنهم يحضرون لفرح رشا خلال أسبوعين. قالت وهو طريح الفراش، تخترقه إبر الجلوكوز ويتجلط بعض الدم على الملاءة الملقاة بإهمال على سريره. كان يرفض كل الطعام، والماء يقبله على مضض، قال الطبيب: لا بُد من تركيب محاليل، معدته لن تقبل الطعام. قالت ندى: كل ما تراه يا دكتور. قالت أيضًا: أبي دعني أحممك، أنتَ لم تستحم من زمن، أرجوك. كان يهز رأسه بعنف أن لا، قالت: أبي أرجوك أنا لا أحتمل رؤيتك هكذا، لكنه أخذ يهز رأسه في عنفٍ شديد، هدأته وقالت إنها لن تفعل شيئًا دون موافقته، فهدأ.

... ...

كان نائما، وقد أعطاه الطبيب حقنة منومة، وطلب منها أن تحممه، قال كيف تتركونه هكذا؟ ستصيبه قرح الفراش. لكنه يتحرك يا دكتور! يقوم من مكانه ويتجول ويروح ويجيء وأتعب حتى أعيد تركيب الإبر في يده، أنتظر أن ينام! قالت. أخشى أن الأمر سيء! قال بوجوم.

... ...

حملته بين يديها، لدخول الحمام، كان يفضل القيام بنفسه، وساعدته، سمعته يحدث أناس كثر، ثم يشتد عوده فجأة ويتحرك منفلتا في كل النواحي، يدخل الحمام ويصفق الباب خلفه، فتقف هي أمام الباب منتظرة، تسمعه يقول لها: اذهبي بعيدًا، لا تقفي. فتذهب بعيدًا خطوة واحدة، فتسمعه وهو يتكلم مع ضراطه، يقول له: المرء يأكل الشطة بنهم رغم أنها تؤلمه في تلك اللحظة التي تأتيه أنتَ فيها. يحبها، ويتحمل لهذا الألم. هكذا الإيمان بالضبط! نتحمل آلامه لأنه يجعل لكل شيء معنى وقيمة! ليس تشبيها من أستاذ جامعي هاه؟ لا يهم! نحن نؤمن بأي شيء نؤمن به: عقيدة، فكرة، هدف، حلم، طموح، فقط لنجعل لحيواتنا معنى، نجعل لها قيمة ما، لكنا حين نموت

لا نعود بحاجة لهذا الإيمان، لعلنا نفقد إيماننا بكل شيء عند لحظة الموت لأننا ساعتها نشعر بعدم قيمة الحياة! هل توافقني؟ اسمع هذه إذًا: إننا حين نريد الموت حين نكتشف عدم جدوى الحياة وحقارة الدنيا والوهم الذي كنا نعيش فيه نكفر بكل شيء، وحين نكفر بكل شيء فإننا نموت، هكذا هي الدائرة. لكن أنتَ محظوظ، مهمتك واضحة، لا تحتاج لأي شيء! ثم يستدرك: لا أنت منبوذ! أنتَ سيء الحظ! أنت البقايا التي نرفضها، الأشياء التي منا لكن لا فائدة لها فنلقها في غياهب الجب، لماذا نحن بهذه الأنانية؟ هل نستفيد من الطعام ثم نلقي ما يتبقى منه، نلقي الضعيف، في المجاري؟ هذا ظلم! أنتَ مظلوم! نحن سيئون! أنانيون! آه.. هل فهمت الآن؟ هل تريد أن تصير بطلا عليّ؟ نعم فلتكن أنتَ أيضًا! لماذا لا تخرج؟ أنتَ لن تغير العالم! اسمع أنا أسديك خدمة: بقاؤك دميةِ، بقاؤك في الدائرة التي مسموح لك البقاء فيها، خيرٌ لك، اسمع مني أنا أكثر منكَ خبرة، هل تعرف ذلك؟ نعم لا تحاول الخروج عن الدائرة، ستموت! لا أعرف كيف يموت الضراط! لكن ربما لن يضعونك مع إخوانك! سينبذونك فتزداد نبذا فوق نبذ!

... ...

كان يعاندها وهي تحاول تحميمه في البانيو، وكان شديدًا جدًّا، أرهقها، فبكت: ارحمني يا أبي. ارحمني.

فبكى دون صوت.

... ...

- يا ندى، ستذهبين مع أختكِ إلى محل الأثاث اليوم.

- لا أريد الذهاب يا أمي، اذهبي أنتِ!

- كيف لا تكوني مع أختك في هذه اللحظات؟

... ...

همس: رشا!

كانت رشا واقفة، تهز قدمها بعصبية، قالت له: سأتزوج.

ثم غادرت. ولم يقل شيئًا.

... ...

- - اسمعي يا أمي، أنا لا أطيق هذا الحاج رزق!

- إنه زوج أختك يا ندى، أسبوع ويصير زوج أختك!

- ولوْ! لا أطيقه!

- ندى! هل أنتِ متضايقة لأن رشا ستتزوج أولًا وهي الصغرى؟ لم أكن أحسب دماغك صغيرة لهذا الحد؟

- لا يا ماما! ليس هكذا، لكني لا أطيقه!

- لا تطيقينه لأنك تتمنين لو كنتِ مكاني! صحيح؟

- ما هذا الكلام الفارغ؟

- هذه هي الحقيقة!

- لا يا رشا، الحقيقة أنك دائمًا التي تريدين أن تكوني مكاني وفشلتِ في كل شيء، ولم تجدِ غير ذلك لتنجحي فيه! ليتكِ نجحتِ يا رشا! ليتكِ نجحتِ!

... ...

أعطاه الطبيب الحقنة بعد تعب، فنام.

أمالته ندى ناحيتها وخلعت له ملابسه العلوية، ثم خلعت بنطلونه وتركته بسرواله التحتي. أرسلت عم السيد البواب ليشتري مشمع من أي محل قريب. فرشت المشمع قدر المستطاع تحته كي يحمي المرتبة من الماء. قالت لنفسها أحممه، أحضرت دلوًا ممتلئا بالماء الفاتر، وقطعة من الليف الناعم مبللة بالصابون، وأخذت تدعك جسده برفق، كان قد نحل واصفر جدًّا، وصار شعر لحيته وصدره وكتفيه متصلبا كشوكٍ صغير، كان مغلق العينين، وميت الجسد، وكانت وهي تغسل له إبطيه قد استندت على بطنه برفق، فأطلق فساءً صغيرًا خافتًا. ارتعبت ندى، واتسعت عيناها وهي تتخيل أنها تغسله الغسل الأخير، هرع كفاها لوجهها وأجهشت بالبكاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما حدث فوق الكنبة وجوارها

- كيف تتزوجين بعد أبي؟ أنا غير موافق طبعا!

- ومن قال إن موافقتك مطلوبة أصلًا يا ابن الكلب؟

- والله لولا إنك أمي، والله لولا الله...

- اخرس يا ابن الكلب.

صفع عبد الله الباب خلفه، كان قد تخرج وعين مدرسا في مدرسة ابتدائية. نظرت لؤلؤة إلى محمد وطالت النظرة، بدت جميلة رغم سنوات عمرها التي ربما تعدت الخمسين أو تلعب في ملعب الأربعين كأقل تقدير، فستانها الأحمر يبرز صدرها المشدود، وحاجباها مرسومان بدقة بقلم بني، وشعرها البرتقالي المصبوغ ينحدر على كتفيها بلا ترتيب. تأملا بعضهما، وكانت من محمد التفاتة للكنبة التي كان أبوه يتربع عليها لا يبارحها. بدت ستقول شيئًا فبادر هو: هل هو غني؟

ضحكت ضحكتها الرقيعة، وقالت: أنتَ ابني فعلًا! نعم! غني جدًّا! مليونير لبناني. وغمزت.

ابتسم: هل له ابنة؟

قالت بجدية: نعم، وسأزوجك لها فور أن تنتهي من دراستك، هي تدرس إدارة الأعمال في أوروبا، ليس لديه غيرها، وسترث كل شيء.

تمايل محمد مبتسما، وقال هازا كتفيه: أنا لا أرى فائدة من التعليم أصلًا.

هزت رأسها وأشاحت بيدها: وجاهة اجتماعية لا أكثر.

- الفلوس أهم صحيح؟

- صحيح، لكن أولاد الذوات الحقيقيين يهتمون بتعليم أبنائهم، هل فهمت؟ لا يمكن أن تتزوج فيروز وأنت بالثانوية حتى لو معك مال قارون!

- اسمها فيروز؟

ابتسمت: نعم، وهي جميلة جدًّا مثلي في شبابي!

قال: لا تزالين جميلة يا ماما!

- كم مرة قلت لك لا تقل لي ماما! تشعرني بالعجز!

- آسف يا لولو.

أومأت قائلة وهي تتلفت حولها: جئت أودعكم، لا أعرف كيف تعيشون في هذه الحظيرة أصلًا!

آه.. ومنذ متى تهتمين يا لولو؟ حتى عزاء جمعة لم تحضريه، منذ متى لم يرك أبناؤك؟ لا يذكرون أنهم رأوكِ منذ زمن بعيد، لعلهم لم يروكِ أبدًا، سوى في تلك اللحظات وأنتِ عارية تركبين ذكر جمعة كفارسة وترمقينني بنظرةٍ عابثة وأنا أشاهد متصنتا من الباب الموارب.. إذًا لماذا هذه الزيارة المفاجئة؟ وأين كنتِ أصلًا طوال كل هذا الوقت؟ آه.. سأتزوج! تقولينها وكأنكِ تهتمين أن تخبرينا أو يهمك رأينا، ربما أنتِ آتية أصلًا من عند المليونير اللبناني.. لكن ماذا تريدين؟

- محمد..

- نعم يا لولو..

- أين رحت؟

- آه أنا هنا..

- سألتك، ميراث أبوك؟ الإجراءات وخلافه؟

آه! لهذا أنتِ هنا يا لولو!

- بابا لم يترك أي شيء إلا وذهب لسداد الديون، حتى المكتب الذي دخلت كلية الحقوق لأكمل مسيرته أغلقوه بالشمع الأحمر!

- ماذا تعني؟ لا يوجد أي ميراث؟

هز رأسه: لا شيء!

نظرت حولها لحظة، قالت: طيب، كم تبقى لكَ في الدراسة؟

أشار بإصبعه السبابة فقط، فأومأت ثم حملت حقيبتها وقالت: سأتصل بك.

أطلق الباب أنينا حين صُفع للمرة الثانية. وتأوهت الكنبة وتنهدت حين جلس عليها محمد وتربع مثلما كان أبوه يفعل.

هنا في نفس هذا المكان، كنت أصحو فأجده جالسا، أسمع حديثا خافتا يدور بينه وبين عبد الله، لا أفهم شيئًا، لكن عبد الله يغادر.. بابا ألا تنام؟ أسأله. أخوك يا محمد، على آخر الزمن يريد أن يعطيني فلوسًا في يدي! يقول. أهز رأسي غير فاهم، غير عابئ. في الليل أسمعه ينادي متأوها على قرنفلة، أضحك، هل في هذا السن تحلم مثل هذه الأحلام يا بابا؟ وأفكر آه رجل في هذه السن ويحلم هذه الأحلام كان لا بُد أن يتزوج من واحدة (فورتيكة) مثل لولو. أنا نفسي أتمنى لو تكون فيروز هذه في نصف جمالها فقط! كان يقول لي: أمك يا محمد امرأة جميلة، والمرأة الجميلة لعنة! أهز رأسي، غير فاهم، غير عابئ، غير مبالٍ، فيسرح بخياله: آه يا زمن، هل تعرف لمَ المرأة الجميلة لعنة يا محمد؟ أهز رأسي، فيقول: كل الرجال أطفال، يحبون الأشياء الزاهية، لكن الأشياء الزاهية غالية الثمن يا بني، غالية جدًّا، ندفع ثمنها من صحتنا وأموالنا وعمرنا.. وسعل.. ومن كرامتنا.. أهز رأسي، فيقول: لا تتزوج واحدة جميلة، ستلهبك، ستجن حين تتمنع عليك، ستموت حين ترفضك، ستخضع وستجعلها تسوق! أهز رأسي، فيقول: قرنفلة كانت روحها جميلة، وكانت حلوة،

ليست في جمال أمك لكنها كانت ذلك الجمال الذي يجب أن تكتفي به. أهز رأسي، فيقول: هل تعرف حين تزوجت قرنفلة ماذا كانوا يتغنون في الزفة؟ الغراب يا وقعة سودة جوزوه أحلى يمامة! الغراب يا وقعة سودة جوزوه أحلى يمامة. يصفق بيديه، ويلحن، الغراب.. يا وقعة سوووده.. جوزووه أحلى يماااامة..

أهز رأسي.

أذهب إلى الكلية، أدخل مكتب الاتحاد، أدخن مع المشرفين، أمازح موظفة شئون العاملين، ثم أذهب إلى مكتب حرس الكلية، يقول العقيد كلاما كثيرا، أهز رأسي، ويقول كلاما أكثر، ثم أمد يدي بالورقة، يبتسم، ويقول لي إنه ينتظر مني مستقبلا كبيرًا، وإنه قرر أن يرشحني لرئيس الجامعة كي أكون رئيس اتحاد طلاب الجامعة، كي أمثل الجامعة في لقاء المارشال. أبتسم، وأنا أهز رأسي.

أعود إلى البيت، أسمع أبي يقول لي: أريدك أن تصبح الأول، أضحك وأقول له: يا بابا أنا الأول! يقول سارحًا: المرأة الجميلة لعنة يا محمد! آه يا زمن.. الغراب يا وقعة سودة جوزوه أحلى يمامة. ينوح كامرأةٍ مولولة. وعبد الله يأتي من وقتٍ لآخر، انشغل في التدريس، ويستعد أن يحضر الماجستير فقد كان متفوقا من كليته، يريد أن يربي الأطفال، أن يعلمهم الدين، عليكَ أن تعلمهم الفارق بين ما عندهم وما عند أمهاتهم يا عبد الله كي لا يتعبوا! هذا هو المهم.

الغراب يا وقعة سودة جوزوه أحلى يمامة.

بجوارنا كان بيت على سطحه خن، شممت الرائحة وكدت أقيء أول مرة فتحت فيها النافذة. بط. يربون بط. أغلقت النافذة ولم أحاول فتحها ثانية من يومها.

الغراب يا وقعة سودة جوزوه أحلى يمامة.

قال: قرنفلة كانت يمامة يا محمد، هل رأيت الجناحين اللذين خرجا منها؟ هل رأيتها وهي تطير مع أخواتها اليمام؟ أنا ذهبت لقبرها، وجدت يماما كثيرا يبيض هناك، اليمام لا يبيض غير في الأماكن الآمنة.

وأنا أحضرتها، كانت الكنبة قد خلت من ساكنها، وعبد الله لن يأتي، كانت واقفة أسفل عمود، ليست بالجمال المطلوب، لكنها تكفي على قدر التجربة الأولى. حين دخلنا الغرفة، وبدأنا نخلع ملابسنا ونتبادل القبل، قالت: هل تربون بطا؟ ثم أشارت لأنفها: رائحة البط تملأ المكان. تلفت حولي مرعوبا، هل تكون بطة لعينة من بط الجيران قد أفلتت إلى هنا؟ قالت: جيد أنك تحب البط، ثم ضحكت ضحكة تليق بمن هن مثلها وهي تخلع قميصها المبقع ويظهر تحته فانلتها عديمة الأكمام مرسوم عليها بطة، تتوسط الصدر. وأخذت تهز صدرها بحركاتٍ شهوانية كراقصة وتضحك: البطة عايزة تتزغط، ثم ألقت نفسها عليّ وهي تقول بميوعة: زغطني! امتقع وجهي وأنا أتأمل عينيّ البطة على الفانلة والرائحة بدأت تغزوني، فقمت منفعلًا، وخلعت عنها الفانلة بعنف، قالت متوجسة: براحة يا عم! أخذت أقبلها منفعلًا وقد ألقيت الفانلة بعيدًا، وبدأت تتفاعل هي معي، وحين هممت بها، لمحت عيني البطة على الفانلة ترمقانني، خفت، فانكسرت رجولتي، وأخذت أخور وأنخر والفتاة

تحتي مغمضة العينين تنتظر، لكني قمت، فقامت وضمت شفتيها وحركتهما يمينا ويسارًا وهي تحرك أصابع يديها دلالة الخيبة، فهززت رأسي..

الغراب يا وقعة سودة جوزوه أحلى يمامة.

في مكانه على الكنبة متربعا، قال لي: محمد. هززت رأسي، قال: لقد صَدَقوا.

قابلتني بشعرها الكستنائي الناعم، فهززت رأسي، لم تعيرني انتباها، فقلت في نفسي: غدا تأتين زاحفة. ولم يأتِ الغد ولم تأتِ زاحفة. قلت إنها لعنة! وزميلاتي في الاتحاد مقبولات لكنهن يبحثن عن الزواج، أنا أبحث عن هذه الأثداء والأرداف فقط، وهي وحدها ذات الشعر الكستنائي من تروقني. هي وحدها اللعنة! وزملائي كلهم، أولاد الوسخة، كلهم يواجهونني مبتسمين، وفي ظهري يسبونني، أسمعهم، أتجاهل، أنفخ شتائمهم مع دخان السجائر الرخيصة، أسحق وجودهم في حياتي تحت حذائي كعقب السيجارة. وذات الشعر الكستنائي تحب! رأيتها معه يتجولان في حدائق الجامعة، فهززت رأسي. رأيته يميل فيقبل خدها، فهززت رأسي. وسمعت ضحكتها الصافية من مكاني البعيد، فهززت رأسي. تأملته جيدًا، من كليتنا لحسن الحظ. ليلتان وكان هناك ولم يعد! وما ذنبي؟ أنا فقط أقول ما أراه، كان يدعو الطلبة للقيام بمظاهرات ويريد أن يؤلب النظام الجامعي، ولا يعجبه سياسة المارشال! أنا فقط كتبت ما رأيته، وهم يسألون ويبحثون ويتأكدون، أنا فقط رأيت الورق في حافظته البلاستيكية التي يضع فيها المحاضرات، نعم وضعته بيدي، لكن ماذا؟ أستطيع أن أقسم أني رأيته في حافظته البلاستيكية، وأنهم حين أمسكوه كان معه! فما ذنبي؟ لماذا ينشغل بشعرها الكستنائي ولا يفتش في أشيائه التي يحملها؟

كان يسعل بشدة، وأزيز الكنبة أيقظني، قمت، وجدته يسعل دما، فهززت رأسي، وذهبت إلى المطبخ أحضرت كوبًا من الماء، لكنه ضربه بيده، ووجدت وجهه يسود، ويتكور ويتشنج ويفرد جسده ويثنيه وهو يصرخ صراخا ممزقا، فهززت رأسي.

وأحضرتها ثانية، قلت لها لن ندخل الغرفة، الغرفة هواؤها يخنق، لكن الكنبة جميلة وتتحمل، ضحكت ضحكة رقيعة وقالت: لكن ضعف الثمن! قلت: هذا في حالة أنك لم تستمتعي اتفقنا؟ قالت: سنرى! قلت: لا تحضري الفانلة المرسوم عليها بطة، هاتي شيء مثير! وجاءت، والكنبة كانت قد خلت من ساكنها، ألقاها فوق الكنبة، ولم يمهلها أن تخلع ملابسها أو يخلع حتى هو ملابسه، فك بنطلونه، وأخرج ذكره، وباعد رجليها، وباعد قطعة القماش القذرة التي ترتديها، تخيلها ذات الشعر الكستنائي فتصلب واشتد، وحين ولجها، أطلقت آهات عالية مدفوعة الأجر، فلم يسمع تكة المفتاح، ولم يفق إلا ورجولته تتبدد داخلها وعبد الله يصرخ فيه: كنبة أبوك يا وسخ، أبوك لم يتم حتى الأربعين يا وسخ.

تكوم حول نفسه وانفلت، وانثنى وانفرد، وأخذ ينوح، والزبد يطير من فمه، ويتلوى متألما، وذراعاه يضمران ويسودان، وفمه يستحيل منقارا وهو ينوح من وسط نشيجه: الغراب.. الغراب.. ونعق غراب، ثم آخر، ثم بدأ ضجيج يضرب النافذة، ففزعتُ، فتحتُ النافذة، فوجدت سرب غربان واقفا ينعق والتفت إليه فوجدته قد

اكتمل تحوله إلى غراب، طار محدثا جلبة واصطدم بالحوائط، قبل أن ينضم إلى السرب، نعق نعيقا ممطوطا حزينا، وعيناه في عينيّ، فهززتُ رأسي.

رفقا بالقوارير

كل الأشياء الجميلة

تحتاج إلى مال

وكي تحصد المال

تحتاج لكل الأشياء السيئة

خططتها على ورقة وأخذتُ أرسم حولها ألف دائرة، وأصل الدوائر بذيول ثعابين لا أعرف من أين تجيء ولا إلى أين تروح، وأرسم عيونًا، عيونًا تشبه عيون ليلى. آه ليلى. أليس الشِعر جميلا؟ بلى جميل جدًّا. أليس حقيقيا يا ليلى؟ لماذا لا تردين؟ آه نسيت! زوجكِ لم يمنحكِ الإذن بالكلام! ولماذا يا ليلى نحتاج لكل الأشياء السيئة؟ لماذا يجب أن أصير ثورًا في ساقية، أظل أدور أدور أدور، كي أجلب الكلأ للبقرة؟ وهل يجلب لكِ هو كلأ جيدًا؟ أرجو ذلك! هاها أتذكر يوم قالت لي أختكِ: ليلى غيرنا! أمي تترك لها نصيبا زيادة من الدجاج! ليلى تأكل غيرنا، تتعشى جبنا روميا! أنتَ لن تستطيع تلبية طلباتها! ضحكت حتى قلت يا ليتني أموت من الضحك! اتصلتْ بي في السادسة صباحا يومها، أيقظتني، ولم أتضايق، كنتَ أحسبها معنا، وكنت أظنها ستساعدنا. لا أحد ساعدنا، حتى أنتِ! ظللتِ تنتظرين المعجزة! وأية معجزة قد تجيء في زمنٍ ليس فيه أنبياء؟ والشاعر أليس نصف نبي؟ لكني لم يكن لي حتى نصف معجزة! وأخوكِ مصطفى كيف يسكت على كل ذلك؟ قولي له إنه لن يتزوج عائشة التي يحبها وتحبه إن لم أتزوجك، هل تفهمين؟ قلتِ: أنا لا أفهم شيئًا، لا عندكَ ولا عندنا سيوافقون على هذا الزواج حتى لو وافقتَ أنتَ ووافقتُ أنا ووافق العالم! يا ليلى لماذا يقف آباؤنا في طريق سعادتنا كصخور ناتئة، لمجرد أن يثبتوا فقط لأنفسهم أن اختياراتهم كانت صائبة حين قرروا لأنفسهم شيئًا، وأن حياتهم كلها ليست خطأ في خطأ! لا أعرف يا نادر! أنا أعرف يا ليلى، ليس آباؤنا فقط، بل أصحابنا وإخواننا، كلهم وقفوا ضدنا، يضعون أنفسهم سدودًا في طرق سعادتنا فقط كي لا يحزنوا وحدهم على سعادتهم التي ضاعت، ليتعزوا بفشلنا لأنهم فشلوا فيما نحاول أن ننجح فيه، يحاولون لوم الدنيا بدلا من أنفسهم. لعلهم رغبوا أن يحيوا مثلنا، تمنوا لكنهم لا يجرؤون، ولا يمسك القمر إلا من يجرؤ على القفز، أو تعرفين لعلهم فقط يتصبرون على موتهم بموت الآخرين، فكيف إذًا يعافر الآخرون ويحاربون الموت ويحاولون الحياة؟ لا بُد أن يموتوا! يقتلوننا يا ليلى، يقتلوننا! أصرخ فيكِ كيف تضيعين كل ما بيننا؟ وتبكين، تقولين سأحاول، قلتُ اهربي، قلتِ سأهرب، ولم تهربي! آه لماذا اعتبروكِ بقرة؟ لماذا اعتبرتِ نفسكِ بقرة؟ الثور لا يحب البقرة، الثور يعاشر البقرة، ينكح البقرة، فينجبان عجلا! وأنا لستُ ثورًا، الثور كائن قبيح! هل تعرفين؟ بل العالم كله قبيح!

العالم ليس قبيحا

نحن فقط الذين

نملك عيونا

قبيحة

والعالم أيضًا ليس جميلا

لكنا فقط الذين

نغلق عيونا

ونتخيل.

وما العالمُ إذًا؟ العالم هو عيونكِ أنتِ يا ليلى! ها قد حضرتِ فانساب الشعر مني!

نصف جمال العالم

امرأة جميلة جدًّا

تتأملها

ونصفه الآخر

امرأة تحبك

تغار منها

وكنتِ أنتِ كل جمال العالم يا ليلى. إن لم يكن ما بيننا حبًا فماذا يكون الحب يا ليلى؟ أجلس أتأمل جمالك الوضاء، ببشرتك الذهبية البرازيلية، أتيه في عينيك السوداوين، فتقولين: أين تذهب مني؟ فأقول: أذهب لعينيكِ! فتقولين لا تذهب إلى أي مكان، أريدك معي! هل تغارين من عينيكِ يا عينيّ؟ حاربت الدنيا لأجلك، وضعتُ كل الناس في كفة ووضعتك في كفة واخترت كفتك، صراخ أمي: إن تزوجتها سأعتبر ابني قد مات! سأتزوجها يا أمي! إذًا ابني مات. وأبي قال اذهب ولا تعود تزوجتها أم لم تفعل! آه يا ليلى. تقولين لي إنني عقبة في أحلامكَ يا نادر! أصرخ: أنتِ كل أحلامي يا ليلى. تصرخين: سنتعب، قلت: لا يهم سنكون معًا. تصرخين: سيحاربوننا! فأصرخ: لكنهم لن يقتلونا، سيفي قوي، سأعمل ليلًا ونهارًا! تقولين: ستموت أحلامك، لا أريدك أن تتعب لأجلي! لكني أريد أن أتعب لأجلكِ! أخاف يا نادر، أخاف أن يقتلنا تعبنا في النهاية! أخاف أن تكرهني. أخاف أن نصطدم بالواقع فعلًا ويضيع هذا الحب بيننا، أخاف أن نكون معًا يومًا ما وتفقد شغفك ناحيتي، أخاف أن تندم، وأن أرى برودًا في عينيك. الخوف؟ نعم ومن يُحدِّث عن الخوف غيري؟ أنا الذي حاربت خوفي، أنا الذي قلت لنفسي هي تستحق، أنا الذي قلت لا يهم ألا تملك حق كتابٍ تقرأ فيه شعرًا، لا يهم أن تكون إعلاميًا كما حلمت، لا يهم، أنا الذي سحقت خوفي، أنا الذي طالما قلت: لماذا أتزوج؟ أنا الذي كنت دائمًا أقول ستأتي دائمًا فتاة أحلى، وعلاقة أحمى، فلماذا أتزوج؟ لكني صرخت: هذه الوردة النابتة في قلبي، المروية بدمي، مكتوبٌ عليها ليلى، كيف أقطفها؟ من يحب وردةً لا

يقطفها، من يحب وردةَ يرويها يا ليلى! لماذا شحذتِ أشواك تلك الوردة الجميلة وطعنتِني بها في ظهري؟ لماذا هزمتِني أمام العالم كله وأمام نفسي؟ وخرجتُ يومها من بيت أبي ولم أعد، خرجت ومت، ومات نادر ابن أمي، وولد نادر آخر، نادر مجنون، يكره كل العالم، ويود لو يراه محترقا، لكنه يحبك، هل تعرفين؟ ربما حتى نادر لم يعد يحبك، لعل نادر الذي يحبك قد مات أيضًا، وولد نادر جديد فاقد القدرة على الحب! أنا ....

قال أبي حين سألته

تزوجتها لأنها احتوتني

قالت أمي حين سألتها

تزوجني لأنه أحبني

قال أبي حين سألته

الاحتواء أن يحتملك الآخر دون مقابل

قالت أمي حين سألتها

الحب أن تشعر بالأمان والدفء وأنت في حضرة الآخر

لم يجبني أبي

ولم تجبني أمي

حين سألتهما

هل يمكنني أن أتزوج شجرة السنديان في الحديقة الخلفية؟

... ...

- هل أحببتِ من قبل؟

- لماذا تسأل؟

- عيناكِ حزينتان دائمًا!

- كل العيون حزينة يا نادر.

- لماذا؟

- يكفي أخبار المذابح التي نعلنها كل يوم!

- لا! أقصد لماذا يجب أن تكون حزينة؟

- لأن.. لأن.. أنتَ شاعر وتحس!

- آه، أنا شاعر وأحس.

- مالك؟

- تعبت.

- ممَ؟

- من كل ذلك.

- نادر، أنتَ تقلقني، صارحني هل أنتَ ملحد؟

ضحك حتى دمعت عيناه.

- لا أنا فقط تعبت.

- تعبت من ماذا؟

- من التفكير يا ندى.

- ليس كل التفكير مباح. أنا أخشى عليك!

- آه، دعينا من ذلك، لم تجيبي سؤالي، هل أحببتِ من قبل؟

- نعم. أحببت أبي.

- كلنا نحب آباءنا!

- لا أنا كنت دائمًا أحلم أن أتزوج رجلا مثل أبي، حتى أنا وأنا طفلة كنت أغتاظ منه لأنه ينام جوار أمي ولا ينام جواري فكنت أتصنع الخوف كي يُحضرني لأنام بينهما، فأحتكر حضنه لنفسي، تعرف؟ بالوقت صرت أخاف فعلًا، ولم يعد تمثيل!

- آه، الخوف، الخوف حديثه لا ينتهي أبدًا.

- نعم، مثل الحزن في العيون.

- أنا حين أنظر في عيون الناس حولي، تقودني إلى قلوبهم، لا عين حزينة إلا لقلبٍ منفطر! القلوب يا ندى مصقلة كالقوارير، تلمع، وجميلة، وتحتاج أن نمسح عنها التراب كل حين، نقرأ القرآن، نقرأ شعرًا، نسمع طربا، نختلج، ونرتجف، ونطيب، هذه القوارير ليست صلدة، لكنها صلبة. هل تعرفين الفرق؟

- أعتقد، الصلادة هي قابلية المادة للخدش، والصلابة قابليتها للكسر.

- صحيح، والقوارير؛ قلوبنا؛ ليست صلدة، لذا هي تجرح ببساطة، وتخدش، وتظل الخدوش تملؤها فتتشوه، ولا تعود كما كانت أبدًا.

- كنت أحسب قلوبنا تتكسر.

- إن انكسرت قلوبنا متنا.

سكتا.

سرح نادر قليلًا ثم قال: تعرفين؟ معكِ حق! قلوبنا قوارير تتكسر من كثرة الخدش، تتفتت.

- لكنك قلت إن انكسرت قلوبنا متنا؟

- وما نحن يا ندى غير أموات؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمومة

يا للأسبوع الغريب! يحسب نفسه شهرًا. يمر كل يوم فيه كأنه أسبوعٌ في ذاته، العقارب جُنت والليل والنهار استطالا كما يتراءى لهما. ليل نهار نهار ليل. آه. وأنا واقفة في الحمام أنتظر، نادر هذا موعدها ولم تأتِ بعد! لا تقلقي لا يحدث أبدًا حمل دون إيلاج. لكني قرأتُ أنه يمكن أن يتسرب بعض المني رغم الغشاء وقد يؤدي للحمل! يهز رأسه ويقول: مستحيل. وسألته: لو كنتُ حاملا يا نادر ماذا سيحدث؟ يجيب: لن تكوني لا تقلقي. لكنها تأخرت. هذا موعدها وقد تأخرت. لا تقلقي ستأتي في نهاية الأسبوع. وانتظرت الأسبوع، ولم تأتِ وقلتُ سيكون ولدًا؟ إن كان ولدًا سأسميه أحمد لا سأسميه فارس. سيكون شعره بنيا وناعما وسيشبه الأطفال الموجودين في الإعلانات، وسيأخذ أنف نادر الكبيرة، سأعلمه ركوب الخيل، والسباحة، وسأدخله مدرسة فرنسية كي يتعلم لغة الفن، وحين يخطئ سأترك لنادر عقابه، لن أقدر أن أعاقبه بنفسي، إلا إذا يمكنني أن أضع الشطة الحمراء في فمه كما كانت تفعل معنا أمي. وسيكون متفوقا في المدرسة، سيحبه المدرسون وسأفخر حين أذهب لأسأل عليه هناك. وسيكبر وينهي الثانوية، لن يكون مدخنا وسيكون متدينا في مرحلته المهمة، سيكون مثلي ولن يرث شكوك أبيه المجنونة، سيقصر بنطلونه ويطيل ذقنه الصغيرة التي لم يكتمل نموها بعد، وسيثيره الحماس ليحلق شاربه، وهو يشعر برجولته تتأجج في حنجرته، ويبدأ في ممارستها عليّ: ماما لا تذهبي للعمل بهذا التايير، ماما إذا أردتِ شيئًا من السوق سأشتريه أنا لا تختلطي بالرجال، ماما لا تتزيني وأنتِ خارجة، ماما ماما ماما.. ثم يختار كلية الهندسة، ويصير مهندس ميكانيكا و.... لكن ماذا إن كانت بنتًا؟ حسنًا لو بنت سيكون هذا أحلى، سأسميها حلا، من حلاوتها، آه لا طبعا لن تأخذين أنف أبيكِ، كوني حلوة مثل أمك يا بنت، سأدللها، وسأصنع لها شعرها ضفيرتين ذهبيتين فتكون كالشمس، وسأدخلها مدرسة فرنسية كي تتعلم لغة الدلع، وحين تخطئ سأقرصها في وركها ناحية العانة قرصة قوية فيزرق فخذها فتتعلم ألا تفعل ما فعلته ثانية، وسأذهب معها لرقص الباليه وأعلمها عزف البيانو، وستكون أيضًا متدينة في مرحلتها المهمة، هذا مهم، ويجب أن أحرص عليه فيهم، كانوا ذكورًا أو إناث، وستأتي لتقول لي: ماما هذا التايير أليس مخالفا؟ أليس ضيقا من ناحية الصدر؟ ماما أليست المتزينة أمام الرجال زانية؟ ماما؟ آه سأبكي ساعتها من وطأة السر الثقيل! آه كانت بنتا أو ولدا فماذا سيقولون؟ ماذا سيقول الناس؟ تزوجت اليوم وأنجبت غدًا؟ يا للفضيحة! أهذا ما سأورثه لأبنائي؟ هذا ميراث جدهم؟ وأمي ستضربني على وجهي وتقول لا أريد أن أراكِ ثانيةً. سيتخلى عني الجميع، وأنتَ يا نادر؟ ماذا ستفعل؟ وأسألكَ: لو كنتُ حاملا يا نادر ماذا سيحدث؟ فتجيب: لن تكوني لا تقلقي. لكن أهمس: الأسبوع مرَ وأنا خائفة. آه ساعتها أجبتَ: إذًا لو كنتِ حاملا سنتزوج، لو كان هناك وسيلة اذهبي للصيدلية وتأكدي بتحليل البول. وضحكت حين سمعت سنتزوج أنتَ الذي لم يقلها أبدًا، وقلتُ لك: لكن سأخجل أن أذهب للصيدلية وأنا لستُ متزوجة! قلتَ: ومن سيعرف يا بنتي؟ قلتُ: لا أعرف! بعد صمت قلت: وما العمل؟ لا بُد أن نتأكد! وبدأ القلق يتسرب إليكَ: هل أنتِ متأكدة أنها تأخرت هكذا عن موعدها؟ نعم لا أذكر آخر

مرة كانت عندي لكن هذا موعدها غالبا. وأسبوعٌ آخر مرّ، وبدأت أشعر أن هذا الحمل لو جاء سيكون نهاية كل ما بيننا، وأخذت أطمئنك أنا التي بحاجةٍ إليك: نادر لا تقلق أحيانًا تتأخر بسبب الاضطرابات النفسية والضغوط. تهزّ رأسك، وتقول: إن شاء الله خير.

وهل الحمل خير؟ الأطفال نعمة نعم، لكن كل هذه الآلام المرعبة التي تنتظرني، القيء المستمر، والمزاج المضطرب، وفوق كل هذا انتفاخ البطن، ربما سيأتي نادر ليقبلني فأقيء! سأنتفخ ولا أعرف هل سيحبني ببطنٍ منفوخة؟ وهل يحتمل جسدي أن يطعم جسدًا آخر؟ هل يتسع هذا الحيز الضيق جدًّا ليدخل فيه ذكر نادر أصلًا؟ ما بالي بخروج طفل مكتمل الأركان منه! آه يا إلهي كيف سأحتمل كل هذا، لا لا لا لا أريد أن أحمل يا نادر، لا أريد هذه اللحظة المرعبة وممرضات بوجوه متآكلة يصرخن فيّ اطلقي، ادفعي أكثر هيا، وأنا مفسوخة القدمين ينظر لفرجي كل من هبّ ودبّ في المستشفى، أخاف يا نادر، لا أريد، تلك اللحظة التي تعافني فيها حين يدر ثديّ بالحليب، لا أريدها، هل إذا حملتَ ستكرهني؟ هل ستتركني؟ أنتَ الذي لم ترني قط أمًا لأطفالك! أنتَ الذي لم تقل لي قط أتخيلك أنتِ وابني تفعلان كذا! فقط تقول لي أريد أن أنجب ولدًا وأسميه آدم، هذا ابنك أنتَ! حلمكَ أنتَ! علامَ تضحك؟ أنا أتكلم بجد! لا يعني أنك تذكر ابنك أمامي أنكَ تريد أن تنجبه مني! لماذا لا تطمئنني؟

آه لا أستطيع أن أتخيل تلك اللحظة التي سأنسلخ فيها من ندى الآنسة إلى ندى المدام! من ندى الطفلة التي تتبجح في وجه أمها إلى ندى الأم التي يتبجح فيها أطفالها! كأني سأصير أخرى! وهذه المأساة الأخرى! ماذا سأزرع فيهما؟ آه الحب طبعا! الحب الذي يجعلنا هكذا نرتكب كل الأشياء الخاطئة التي حسبنا أننا لن نرتكبها! الحب الذي نتخيل أننا سنتخلص به من الخوف الذي بداخلنا لكنه فقط يملأنا بخوفٍ جديد، أن نصير وحيدين من جديد، أن نفقد! ثم ستكبرون! ستكبرون يا أولادي وبناتي فماذا سأقول لكم؟ هل سترون حياتي بهذه الجدارة التي جعلتني أتبجح وأنجبكم وأزرع فيكم شيئًا منها؟ لا أعرف، آلام المخاض المرعبة التي ستعذبني حين أقذفكم من رحمي، لن تكون شيئًا إلى جانب آلام قلبي من النظرة التي ستنظرون لي بها وتقولون حياتك فاشلة يا ماما فلا تحكمي على حياتنا لنفشل مثلك! وإن كانت حياتي فاشلة فلماذا أنجب يا نادر؟ وأي نجاح في حياتي؟ أي شرف؟ أنا لا أعرف إن كان ما أفعله صوابا أم خطأ، قلبي يحدثني أنه خطأ ويدفعني نحوه دفعا، ثم يردني مصفوعة ويقول يا عاصية! وأنتِ أيتها اللعينة ألن تأتي؟

لكنها جاءتْ فزفرتَ أنتَ وتنهدتُ أنا، واتفقنا دون كلام أننا لن نلمس بعضنا مرةً أخرى، لكن في ليلةٍ تالية، أطلقت واءات طفلٍ صغير، وقلتَ لي ضاحكا: ماما أريد أن أرضع! فتركتك تفعل وأنا لا أعرف إن كان قلبي يخفق نشوةً أم ندما!

الغرق

يأسرني أن أترك كل شيء وأجلس إلى أوراقي فأخط إليكِ رسالة جديدة يا ليلى. أن أتكلم وأن أبوح حتى ولو على ورقة، حتى لو لم يسمعني أي أحد. أن أرحل عن ندى

وعن الأخبار وعن مآسي العالم وأرتحل بين ضفاف الأوراق، أكتب إليكِ عن ذلك كله. هل ارتحالنا عن الناس وعن العالم فيه خيرٌ لنا؟ أوليس هذا خيانةً لإنسانيتنا التي ننادي بها أصلًا؟ ألسنا حين نفعل ذلك نترك كل مبادئنا قبل أن نترك كل الشرور والصراعات والدم؟ لا أعرف يا ليلى. لا أعرف ماذا كنت لأفعل لولا الشعر والكتب. وكأن الشعر ينقذني في ليالي الصمت والوحدة، في ليالي البؤس، في ليالي الذكريات وفي لياليكِ التي تجرين فيها عليّ تعانقيني في قلب شوارع نَهَر كلها. وأفيق من أحلامي. أفيق على بؤس جديد، وعلى مذبحة جديدة، وعلى جسد مسجٍ جواري لفتاة تحبني ولا أعرف إن كنت أحبها أم فقط أستعيض بها عنكِ. وأود لو أهرب، أريد أن أهرب يا ليلى، لكن إلى أين؟ إنني كلما مشيت في مكان وكلما فكرت في فكرة وجدتني في النهاية أرحل إليه. هذا الكيان الغامض الأسود الأبيض المهيب الغليظ الرقيق الذي يحيط بي وفكرت أنه الله. إننا مراقبون دائمًا، والسعادة خيانة لإنسانيتنا لأننا حين نسعد نتناسى كل المعذبين وكل المتألمين وكل المظلومين. كيف نسعد وهناك في كل لحظة إنسان يتأوه ويتعذب ويئن؟ أريد أن أهرب من هذا كله. أحاول كل يوم أن أهرب إلى الشعر، لكن الشعر يتمنع، يغضب، يجأر، يزأر، ينوح، ويتركني وحدي، يتركني أستجدي الونس من نجوم الليل البعيدة، ومن ضوضاء الشوارع، ومن صخب النهر الكبير. وندى تجيء إليّ هاربة يا ليلى، وأنا الذي أود الهرب، تقول لنهرب معًا. فأقول لو كانت ليلى فعلتها. ثم أثور. أين ليلى هذه؟ ليلى ليلى ليلى! ليلى في بيت رجل آخر! تتغنج تحت قضيبه، وتترنح بالنشوة لكلماته، وتلتهب بالشوق لأولاده حين يذهبون عنها إلى المدرسة. أنادي الشعر فيهرب، صديقٌ خائن، وأقول لنفسي: وهل رُزقنا الشعر إلا كي نجن؟ وهل عجيب أن يتهم الناس دائمًا الأنبياء بأنهم شعراء مجانين؟ الشعراء مجانين. وأنا أحاول أن أكون مجنونا كي أصير شاعرًا! لكن جنوني يعتمد على آخرين والآخرون يحبون العقل. يحبون المجتمع ويحبون القواعد ويحبون القيود. وأنا أريد أن أهرب من كل ذلك، أريد أن أرسل لكِ رسالة. ماذا سأقول فيها؟ آه ربما أقول: كل الأشياء الجميلة ميتة! مآلنا كلنا إلى الموت. هذا لا يفقدني معنى الجمال لكنه يجعلني أشعر بأسىً دائم شجنا على كل الموتى! كأن الحياة موتٌ، أو لعل الموت حياة؟ لا يهم. كفى أسئلة. سئمتُ الأسئلة، وسئمت الرسائل. إلامَ ستؤول في النهاية؟ قد امتلأت أدراجي بالرسائل. محبوسة كسيل يهدر، أتساءل كيف سأضع رسالة جديدة معها؟ أتخيل الانفجار. أتخيل الرسائل تندفع من الأدراج كمياه ملتهبة، كعين حممٍ انبجست من تحت الصخر، أسهم ترشق في جدران غرفتي، تختفي تحتها الجدران تمامًا، والسيل لا يزال يندفع من الأدراج، ويصم آذاني صوت الرفرفة، لا مكان هنالك سيبقى على الجدران، وستمتلئ الغرفة بأمواج الرسائل، بالأظرف البيضاء والأوراق والحبر الأسود، سترتفع وترتفع وترتفع حتى تبلغ رقبتي، ثم تغمرني، تبتلع وجهي وتغرقني، ولا يتبقى سوى يدي تقاوم فوق السطح، يدي التي تحمل هذه الرسالة الأخيرة كعلم يأبى الانكسار، كيد غريق تبحث عن القشة، ودوي الرفرفة لا يزال، والسيل لا يتوقف، ستغرقني الرسائل وأنتِ.. أنتِ تشاهدين! لا لا! أنتِ حتى لا تشاهدين! وأنا في النهاية أدرك أن كل الأشياء الجميلة ميتة، وأتساءل: إلامَ ستؤول

رسائلي إن كنتِ أصلًا لا تقرئينها لأني أبدًا لم أرسلها إليكِ؟ لكني لا أعرف عنوانكِ يا ليلى، لا أعرف عنوانكِ. أين أنتِ؟

الهزيمة

كل الذنوب سواء، القتل مثل الخيانة، مثل الهزيمة. كان مستلقيا على سريره وإبر الجلوكوز تخترق كف يده وآخر ذراعه. وهل الهزيمة ذنب؟ أوه نعم؛ ليس بعد الهزيمة ذنب! مهزومٌ في الحب، ومهزومٌ في القضية.

الهزيمة؟ شعورٌ سيء الهزيمة. لكن الأسوأ أن تهزم دون أن تحارب، أن تُهزم هكذا، وأنت في غفلة، وأنتَ لم تُمنح حتى حق سن سيفك، ولا تدعيم درعك، ولا شد رسن حصانك المربوط وسط الكتب، أن تُهزم هكذا وأنت كنت تحسب نفسك ستحارب، أن تهزم بنفس السيف الذي كنت تحسبه سينصرك، أن تأتيك الطعنة من النقطة التي لم تعمل لها حسابا.

الهزيمة؟ أسوأ شعور في العالم هو الهزيمة، سواء حاربت أم لم تحارب. إن حاربت وهُزمت فعلى الأقل ستلقي اللوم على نفسك، ستعرف أين أخطأت، ستدرك الخطأ والخطيئة وستقاوم وتقوم وتحارب من جديد. لكنك إن لم تحارب، فأين الخطيئة والخطأ؟ دعنا نغير كلامنا إذا، أسوأ شعور في العالم هو الغدر، الخيانة.

آه الخيانة، أن تهزم من قبل أن تبدأ الحرب أصلًا! أن تأتيك قذائف الطائرات من فوقك وأنتَ واقف حاملا مسدسك تنتظر الاشتباك! أن تهزم من حيث لا تدري من أين جاءتك الهزيمة، كأنها أتتك من كل مكان!

ألا يُذبح حلمك، بل أن تسفك حرمة هذا المكان في نفسك الذي تأتي منه الأحلام، فلا تستطيع أن تحلم ثانية أبدًا.

أن يهزمك الضعف فيقض كل قوتك، وتفقد كل أمل، كيف تقوم وتحارب من جديد؟

لملم جراحك المثخنة، بعثر كنانات أسهمك فقد تحطمت كلها،

وسيفك؟

كيف سقط من يدك؟

وهل يستريح المحارب يا أحمد؟

وهل يُهزم محاربٌ على حين غرة، غير محاربٍ هزيل؟

لا!

بل نعم! الصناديد هم من يخشى الناس مواجهتهم، لذا يفاجئونهم، المفاجأة خيانة! ليست قتالا بشرف!

اخرس! المفاجأة عنصر أساسي في الحرب!

الحرب؟ الحرب فيها قتل، وأنتَ لم تكن تقتل، أنتَ كنت تحيى، تنقذ، كنتَ طبيبا!

وهل يستسلم الطبيب للهزيمة؟ هل يستسلم طبيبٌ للموت؟

لكنك لم تستسلم، لم تنهزم، لقد خنتَ الوعد. خنتَ الوعد يا دكتور أحمد. خنتَ الوعد.

هل كنتَ تؤمن حقًّا بكل ما كنت تنادي به؟

قم إذًا، قم من فوق سريرك اللعين، لا أنتَ لم تهزم، أنتَ لم تخن فقم.

نعم، انزع هذه الإبر اللعينة، ماذا يظنون؟ يحسبونك مريضا بالهزيمة؟ تبًا لهم كلهم، ها أنتَ وحدكَ كما أنتَ دائمًا، وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل*، ألستَ أنتَ؟

هل تسمع أصواتهم في الخارج؟ يضحكون، علامَ يضحكون؟ هيا لا تهتم بالألم الذي أصابك وأنتَ تنزع الإبر، ولا تشغل رأسك بالدم الذي يسيل على ذراعك ولون ذراعك الذي ازرق من أثر الإبر.

هيا انتصر ولو لمرة أخيرة، هيا، قم، لماذا تلهث يا حمار؟ أنتَ قوي، قم، أقوى رجل في العالم هو الذي يقف في الدنيا وحيدًا**، مثلك، هيا، نعم هكذا، استند على أطراف السرير بيديك، وأنتَ تنزل قدميك إلى الأرض، ازرقت الدنيا وغام بصرك؟ لا، لا تقلق، هذه ليست الهزيمة، هذا ضغطك فقط قد انخفض، هيا، ها قد اعتدلت الأمور، تحرك، انزل من فوق السرير، اخرج إليهم فجأة، نعم ليتوقفوا عن الضحك ويلتفتوا إليكَ، اصرخ فيهم: أنا لست مهزوما، أنا لست خائنا، أنا لست قاتلا.

يلتفتون بكل أجسادهم، على وجوههم تلك النظرة الثابتة، والابتسامات التي تحفظها جيدا، وفي عيونهم شرر. ومصطفى وحيدًا وسطهم نظرته عابسة، يحيط وجهه إطارٌ أسود، يبدو كأنف وسط العيون، لا تهتم بنظراتهم المتصنمة في عينيك، أعد صراخك فيهم، تجاهل هذه الأقزام التي برزت من حيث لا تدري، أوه إنهم قادمون من غرفتك، كانوا يختبئون أسفل السرير، يدورون حولك، ويصفعونك على مؤخرتك، كأنهم يلعبون الكراسي الموسيقية، ابتعد عنهم، لا تهتم بمطاردتهم لك، يحاولون تشتيتك عن معركتك الرئيسية، هيا إنهم الآن – الطلبة – يقتربون منك..

أنتَ خائن! هل سمعت ذلك الذي قال؟ نعم هو هذا الذي على اليمين، اصفعه هيا، أوه جيد، صفعة ممتازة.

أنتَ مهزوم! هو الذي في المنتصف، نعم، رائعة هذه اللكمة.

صنعوا دائرة حولك، والأقزام لا تزال تتشبث بقدميك، وتطلق صأصأة مخيفة، كأصوات العِرَس، أقزام مخيفون سود الوجوه كالحة شفاههم، لهم عيون تبرق ولا ترمش، وأنوف غليظة، وأسنان

*: "وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل" بيت شعر للطغرائي.

**:من مسرحية (عدو الشعب) لهنريك إبسن، وردت الجملة على لسان الدكتور توماس ستوكمان في نهاية المسرحية.

مشوهة بارزة كأنياب الضباع، يرتدون ثيابا مبهرجة مهلهلة مرقعة بكل الألوان. والطلبة خارجون من البراويز، بثيابٍ بيضاء ورؤوس حليقة، إذًا هؤلاء الملائكة والشياطين؟ وهل تفرق معكَ يا أحمد؟ أنتَ قاتل! من قالها؟ ها من قالها؟ أنتَ قاتل! إن كنتَ رجلا أفصح عن نفسك.

وأنت تدور حول ذاتك وسط دائرتهم الكبيرة ودائرة الأقزام الصغيرة، تصرخ فيهم، ثم يتقدم مصطفى خطوة، ثم يتقدم الآخرون بعشوائيةٍ خطواتٍ مثل خطوته، أحكموا غلق الدائرة وصاحوا من جديد بهتاف رجل واحد: قاتل! اصرخ فيهم: تريدونني قاتلا؟ سأقتلكم جميعًا، سأقتلكم جميعًا. هيا، اركض نا... تبًا، هذه الأقزام اللعينة، تمد أقدامها لتتعثر وتقع، قم، أنتَ ستنتصر في هذه المعركة الأخيرة، أحضر سلاحك، الآن تدرك الحرب وستحارب، ستقتلهم، قم، الأقزام تركض فوقك، وتطلق صيحاتٍ همجية، وأخيرًا تحاملت على نفسك ودفعت الأقزام عنكَ وقمت، هيا اركض ناحية المطبخ الصغير، أين هي؟ أين هي؟ لا بُد أن تتذكر، أخرج كل ما في جوف هذه الأدراج، قاوم الأقزام الذين يفتحون الأدراج كلها ويبعثرون محتوياتها في وسط المطبخ، يا أولاد الكلب، ابتعدوا، لا لن يهزونك، لن يهزمونك، لن يجدوا السكين قبلك، أين السكين؟ أين السكين؟ والطلبة واقفون على باب المطبخ، ينظرون مشفقين، علامَ تنظرون مشفقين يا أولاد الكلب؟ أنا لست مهزومًا! يضحكون وهم يعيدون رؤوسهم للوراء جميعًا، ثم يردونها للأمام، ضحكاتٍ مخيفة، تخرج من المطبخ، وتتعثر في قدم قزم، فتسقط على وجهك، قم يا أحمد، قم، لا تبكِ، البكاء هزيمة! لا تبكِ لا تبكِ.. تبًا، لماذا هذه الدموع يا حمار؟ أنتَ لم تهزم، وليس كل ما آمنت به هراء! لا لست من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. أوه لماذا رفعت رأسك إلى الطلبة بهاتين العينين الباكيتين وسألتهم: أليس كذلك؟ لماذا؟ الأقزام الملاعين، يتسلقون ظهرك، ويتعلقون بكتفيك وذراعيك وصدرك، تقاوِم وتقوم، لن أهزم، السكين ربما تكون في غرفتي، ستهزمهم، بالكاد تصل لسريركَ، أنفاسك ثقيلة، والأقزام تعض وجهك وأذنيك وصدرك وظهرك، إنهم يأكلونك حيا، لا لن تهزموني، قاومهم، قاومهم، يلقونك على سريرك فتنفرد فوقه، تلهث غير قادر على الحركة وهم ينسلون من كل حدبٍ وصوب، يقفزون فوقك، ويمصون دمك وينهشون لحمك، تشعر بآلام لا تطاق، وتنخر وتشخر وأنتَ تلتقط أنفاسك بصعوبة، وتلمح بعينيك طلبتك وهم واقفون أمام السرير صفوفا، يتقدمهم مصطفى ويصلون، هل يصلون عليك؟ لكنكَ لم تمت! أم أنكَ مت؟ نظرات طلبتك الخاشعة الناظرة إلى نقطة بعينيها في الأرض أمامهم، وهمسات الصلاة الخافتة، والترانيم التي تصدح من لا مكان، والأقزام اللعينة، تطلق صرخاتٍ همجية، ويتعالى صوت حسيس امتصاص الدم، آه منار، لماذا تتذكرها الآن؟ ندى، رشا، لماذا تتذكرهم كلهم الآن؟ ذكرى الهزيمة ليست سوى هزيمةٍ جديدة! يجلس قزم ضخم على صدرك، يمد يدين غليظتين إلى رقبتك ويخنقك، ترفع يديك لتقاومه لكن قزمين آخرين يمسكان بهما ويمصانِ دمهما وينهشان لحمهما، غشاوة تملأ عينيك، أين الهواء؟ كان مصطفى ينظر لكَ بعينين حزينتين، وتسقط منه دمعة لا تعرف كيف شعرتَ بها تسقط فوق وجهك ثقيلة، فأغلقتَ عينيك خشية الرذاذ.

بنكهة الفراولة

تموج واستعاد هيئته الحقيقية، واختفت البذلة وظهرت حرباء خضراء ضخمة لوهلة، ثم تموجت واتخذت لون الكرسي، وامتد لسانها الطويل تصيد به حشرةً من هنا أو هناك.

قال محمد جمعة له: جيد، أريدك الفقرة القادمة، سيتفق معك الإعداد.

بحت السحلية: لا! أنا أريد أجر الفقرة السابقة أولًا!

غضب جمعة: - منذ متى يكون الحساب هكذا بيننا؟

فحت السحلية: من الآن، أنا بذلت مجهودًا هذه الحلقة، ولا تنكر ذلك! لقد قلت كلامًا كبيرًا! ثم إني مطلوب!

ضحك جمعة هازئا: لا تحسب أنك الحرباء الوحيدة التي تستطيع أن تتموج! السحالي كثيرة في هذا البلد! يمكنني أن أحضر عشر سحالي من الغد إذا أردت!

نخرت السحلية: لكنهم لن يكونوا في مثل كفاءتي!

ضجر جمعة: يا إلهام! تعالي أخرسيه!

جاءت إلهام وفي يدها نقود، مدت الحرباء لسانها، أمسكت به النقود، وأخذت تعدها بيدها، وكان الأستاذ هيصة، قد قام من على الكرسي، وفرد جسده، ومد رجله اليمني يصافح محمد جمعة، الذي قال له شرفت يا أستاذ هيصة، سلامي للمدام والأولاد، شكره هيصة وهمهم، فقال جمعة وهو ينظر لأوراقه:

- إلهام!

التفت إلهام عن حساب الحرباء، وأخرجت مظروفا منتفخا، وضعته في جيب بنطلون الأستاذ هيصة، وسمعته يقول بصوتٍ كالفساء: ليس له لزوم والله!

وتأملته وهو يخرج ماشيا على يديه، وقدماه لأعلى يحيي المصورين والمخرج بهما.

- إلهام!

- نعم يا أستاذ محمد!

- هل حضر ضيف الفقرة الثانية؟

- نعم! إنه جاهز!

- هل هو....؟

- نعم! نظيف!

زفر وقال: أرجو ألا يتعبنا!

... ...

أعزائي المشاهدين مرحبًا بكم من جديد،

(من جديد نفس كادر الأستوديو يظهر فيه جمعة متوسطًا رجلين)

دعوني أقدم خالص عزائي أولًا لكل أهالي شهدائنا الأبرار، ضحايا التفجير الإرهابي الذي حدث في السوق العمومي للعاصمة.. وقبل أن نخوض في تفاصيل الحادث، أعرفكم بضيفيّ:

(ينتقل الكادر إلى اليمين، ويرتكز على السحلية وقد تلونت في صورة رجل أصلع سمين قليلًا، ويرتدي بذلة سمنية وقميصا أبيض، ونظارة شديدة التقعر)

الأستاذ سبانخ المحامي ومدير مركز البطيخ الحقوقي والخبير الاستراتيجي والجغرافي في الجماعات الإرهابية.. مرحبًا أستاذ سبانخ.

- مرحبًا أستاذ محمد، خالص تعازينا لكل شعب نَهَر بعد هذا العدوان الغاشم.

وإلى يساري، اليساري (وضحك نصف ضحكة محمد جمعة لهذه الدعابة) الأستاذ عصفور الناشط الحقوقي، مرحبًا أستاذ عصفور..

- مرحبًا، العزاء لكل أهالي المظلومين في بلادنا أولًا، وشكرًا لاستضافتي ثانيًا..

(يعود الكادر إلى الخارج قليلًا فيظهر ثلاثتهم)

اسمح لي يا سيد سبانخ؛ لكن متى في رأيك سينتهي حمام الدم الذي تجره في أذيالها الجماعات الإرهابية في كل مكان!

- والله يا سيد محمد، هذا سؤال صعب جدًّا، فالجماعات الإرهابية المتطرفة، كالثعابين، لا بُد أن تقطع الرأس كي تموت الحية، وأرى رجال الأمن الشرفاء يبذلون كل قصارى جهودهم، في القضاء على هذه الأفاعي السامة، لكنهم رغم ذلك لا يقطعون سوى ذيولها التي لا تلبث فتنبت لها ذيولا غيرها!

- ولكن أين هي الرؤوس يا سيد سبانخ؟

- الرؤوس هناك تأتينا عبر الحدود، من الشرق والغرب والجنوب، ولا أستبعد أن تأتينا عبر البحر أيضًا.. عبر الأنفاق الخبيثة التي تحفرها أيدٍ خبيثة، تديرها رؤوس مظلمة في دول مظلمة.

(يمد سبانخ لسانه الطويل فيلتقط ذبابة كانت تهيم)

- يا سيد سبانخ نحن في بلاد حرة فقل ما تريد.

- نعم، إنهم يأتوننا من أفغانستان والشيشان وباكستان وإيران وغزة.

- هذا كلام خطير يا سيد سبانخ! هل تعتقد أن الذين قاموا بالتفجير قد جاؤوا من غزة؟

- هذا أمر واضح جدًّا، إن هذه التقنية المستخدمة تشبه العمليات التي يرتكبها هؤلاء الخونة في بلادهم في غزة فيقتلون بها الناس باسم الدين والمقاومة لكنهم في الحقيقة

إرهابيون.

- اسمح لي سيد سبانخ سأنتقل للأستاذ عصفور، هل توافق على ما قاله الأستاذ سبانخ؟

- طبعا لا! هذا محض هراء وكلام عائم لا رأس له ولا ذيل، بأي دليل قال إن من قاموا بالتفجير قد جاؤوا من غزة؟ أو من أي مكان أصلًا؟ على حسب تعريفك الأستاذ سبانخ مدير مركز حقوق إنسان لم أسمع به أصلًا وليس مدير المخابرات!

- هل تشكك في ضيوفي يا سيد عصفور؟

- لا، لا أفعل، لكن بعض الاحترام للعقول، إن كان المدبرون جاؤوا من غزة، أو من غيرها، فلماذا قُبض على كل هؤلاء الشباب النَهَريين وتم تعذيبهم في أقبية مباني الأمن وبعضهم لا نعرف عنه شيئًا حتى الآن وربما يكونون قد ماتوا!

- هذا كذب! لا يوجد حالة واحدة وصلت لمركزنا عن تعذيب أو اعتقال! نَهَر لا يوجد فيها معتقل سياسي واحد! لا تحاول كسب شهرة وتتاجر بدماء الناس!

- سيد سبانخ اهدأ...

- لمن تقول هذا الكلام! أنا لا أتاجر بدماء الناس، أنا أسعى لحق هؤلاء الناس!

- اهدأ سيد عصفور.. في النهاية نحن بصدد حادث إرهابي بشع، ونخشى على بلادنا من تكراره!

- بالقانون يا أستاذ محمد، ليس بالطوارئ وبالاعتقال والتعذيب، بقوانين شفافة وواضحة، لكنا نعرف طبعا لماذا لا توجد قوانين! كي يتم تبرير كل شيء، فكل شيء ممكن في العتمة، وكي يصبح كل المعذبين إرهابيين، ويتم تلفيق قضايا كثيرة، ليعيش الناس في الخوف!

- هل تقصد أن الحكومة هي من تفتعل هذه التفجيرات يا سيد عصفور؟ هل تقصد أن رجالنا الشرفاء قد يفعلون ذلك في أهلهم؟

- يا أستاذ محمد، قل لي لماذا لا يقبضون إلا على معارضين؟ اصنع تفجيرا واقتل مقابله ممن يعارضوك حفنة، ولن يحاسبك أحد، هكذا تتخلص من معارضيك، ويعيش الشعب في الخوف، بالخوف والعصا وحدهما يحكم الفاسدون!

- سيد عصفور، هذا كلام خطير، وتشكيك لا أقبله في برنامجي، إنني ودعني أقولها بشكل شخصي، لا أفهم كيف يفكر شخص مثقف مثلك هكذا، كيف يظن أن رجل البلاد وحاميها فاسد؟ هذه إهانة لا أقبلها في برنامجي!

- انتظر يا أستاذ محمد، يا عصفور أنت هل معك أدلة؟ أم هكذا علموك في صفوف المعارضة الوقحة؟ أن تلقي الاتهامات جزافا؟

- إنني....

- دعنا أولًا نأخذ هذا الاتصال الهاتفي من الحاخام سنقر الأستاذ الدكتور في الشريعة..

- السلام عليكم ورحمة الله، تحياتي لك أستاذ محمد ولضيوفك الكرام..

- وعليكم السلام يا حاخام سنقر، تفضل..

- أولًا اسمح لي لقد سمعت أحد ضيوفك الكرام، يتهم سيادة المارشال عظمه الله وفداه، دون بينةٍ أو دليل، وإنني أدعوه كي يستغفر الله لذنبه، فالخروج على ولي الأمر إثمٌ كبير وفتنة، والفتنة أشد من القتل، فاحذر يا أخي، هذا أولًا، وثانيًا، فإنني أهيب بكل رجال الأمن الشرفاء ألا يألوا جهدًا في تطهير بلادنا من هذه الجماعات المتطرفة، التي لا ترقب في المؤمنين إلا ولا ذمة، هؤلاء الخوارج الذين ارتدوا عن دين الله ويقتلون الأبرياء، هؤلاء يجب محاربتهم وقتلهم واجب شرعي، وإن من يموت من رجالنا في سبيل ذلك فهو بإذن الله شهيد مع الصحابة الكرام..

- هذه فتوى مهمة يا دكتور سنقر، ونرجو أن يتم طرحها على نطاق واسع، شكرًا لمشاركتك المفيدة دائمًا..

- سعيد بمشاركتي في برنامجك يا سيد محمد، وأرجو أن يصلح الله حال البلاد..

- سيادة الحاخام؛ سؤال إذا سمحت قبل أن ننهي الاتصال: هل المستحب أن نرتدي الواقي الذكري أثناء الجماع من خلف؟

- اختلف العلماء يا أستاذ محمد، لكن الأرجح أنه ليس في ذلك ما يضر، خاصة إن كان بنكهة الفراولة، فقد أجمع العلماء أنها تحبها النساء،

- ألا تنفع الشوكولاته؟ (تساءل سبانخ)

- طبعا تنفع! لكنها مكروهة عند بعض الأئمة، أما الفراولة فلا بأس، المهم أن يتم ذلك بمعرفة الزوجة..

(كان عصفور يغادر المكان)

- ديننا دين يسر يا أستاذ محمد، لكن هؤلاء المتطرفين هم الذين يريدون للعالم أن يسير على هواهم ويعملون وفقا لمخططات هدفها السلطة وقتل الأبرياء باسم الدين، والدين منهم براء..

- نعم يا دكتور سنقر، كل الشكر لك لهذه المشاركة..

أعزائي المشاهدين انتهت حلقتنا اليوم، وكما لاحظتم قد غادر الأستاذ عصفور لأنه لا يتقبل الرأي الآخر، ولا يريد أن يسمع غير رأيه فقط، وهذه أبسط قواعد الديمقراطية وحقوق الإنسان، لكننا بسعة صدرنا في برنامجنا وبرنامجكم نقبل كل الآراء ونعرضها جميعًا، في مناخ ديمقراطي حر تحت قيادة مارشالنا البار، ألقاكم في الحلقة القادمة....

(تظهر على الشاشة، صورة جنود وهم يرفعون علم نَهَر فوق تبة، وجنود وهم يركبون عوامات ويعبرون قناة السويس، وأغانٍ وطنية تصدح: يا حبيبتي يا نَهَر يا حبيبتي يا نَهَر..)

(التتر)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليلة الحناء

- ولماذا لم تتزوجي يا....؟

- اسمي ندى.

- اسم الله عليكِ. ما شاء الله جسمك يؤكل أكل.

- قولي لها، العرسان يطرقون على الباب ليل نهار هي التي ترفض.

- ليه كده؟

- آي.. لم يحضر صاحب النصيب.

- لكن لا تغلقي الباب!

- آي.. براحة يا أم حنان.

- قولي لي تحت نظيف؟

- تحت فين!

- تحت فين يعني يا ست ندى؟

- لا لا أنا لست العروسة!

- وماله!

- لا لا لا يصح!

- قومي قومي..

- لا لا معلش.

- ما المشكلة؟

- لا أريد!

قالت أم حنان الكوافير: على راحتك!

... ...

- الست ندى أختك؟

- نعم يا أم حنان.

- ولماذا لا تبدو سعيدة؟

- طوال عمرنا وهي تغار مني دعكِ منها!

- تغار من أختها ماذا جرى للعالم!

- هل تعرفين كم عمرها؟ ولم يأتها عريس واحد يوحد ربنا!

- يا خبر! مع أنها حلوة!

- حلوة من بره بس! لكن أنا يأتيني بدل العريس ألف، وسأتزوج وأنا لا زلت طالبة من رجل يحسدني عليه كل البنات!

- طيب خذي حذرك منها إذًا ولا تدخليها بيتك، هي أختك نعم لكن العين فلقت الحجر!

ما كان لها

الأيام الأخيرة قبل الفرح، كانت متعبة على الجميع. كان الحاج رزق، يطمئن على كل شيء، لكنه كان مشغولا ببعض العمل المهم كما قال. عمل لا يمكن تأجيله. كان الفرح في قاعة نادي المحامين، وكان الحضور ضخما، واستغربت ندى أنه سيكون هناك فرح، والحاج رزق لا يخجل من دعوة الناس إليه! بدا إليها أنها الوحيدة التي لا يعجبها ذلك! بل بدا أن العالم كله موافق ما عدا هي! تذكرت أباها، قالت لو كان هنا! كان التعب قد أنهكها، منذ آخر مرة حاولت فيها تحميمه، طلبت من عم السيد البواب أن يتابع أباها إن احتاج شيئًا وأن يطل عليه من وقت لآخر لأنها ستغيب يومين نظرًا لفرح أختها. وناولته المفتاح.

... ...

قال عم السيد:

البقاء لله يا ست ندى، حدث كل شيءٍ بسرعة، وأنا لا أعرف لكم تليفونا ولا عنوانا!

... ...

كان الحاج رزق يرتدي بذلة أنيقة وقد صبغ شعره للأسود، فلم تظهر سنوات عمره التي عبرت عقدها الخامس على أقل تقدير، كان يتجول في القاعة كملك، وكانت هناك فتيات كثيرات جميلات مدعوات غير صديقات العروس، ورجال في أزياء عربية، بالجلابيب البيضاء والعقال العريض والخفيف وتحته تلتف أقمشة بيضاء ومنقطة بأناقة. ورجالٌ آخرون عرب أيضًا لا تخطئهم العين أبدًا رغم بذلات السهرة الرسمية التي يرتدونها. والفتيات الكثيرات كن يضحكن، وكانت هناك موسيقى هادئة تطوف بالمكان، وكانت منار تدور كملكة حقيقية، ترتدي فستانها الأسود، الذي صغر من عمرها الكثير، وإن بدت تجاعيد وجهها لا تغيب، كانت مصرة على أن يكون الفرح في قاعة نادي المحامين، وزعن لها الحاج رزق إرضاءً، رغم أنه كان يريده في دار الدفاع الجوي. كانت منار تسير شامخة برأسها، وكن عضوات النادي اللاتي دعوتهن يتلمزن ويتغامزن. كانت تنظر لهم منتصرة فالفرح فخمٌ، والحاج رزق رجل ذو شأن كبير ومال كثير!

... ...

قال عم السيد:

كنتَ أطل عليه يوميا والله، لكن يوم الجمعة أنتِ تعرفين، أنشغل بنظافة السلم، وشراء طلبات البهوات السكان من السوق، فلم أطل عليه..

... ...

كانت رشا جالسة وسط صديقاتها، بفستانها الأبيض، وندى جالسة بعيدًا وسط صديقتين تعرفهما معرفةً سطحية. لم يكن لها أصدقاء، حتى فاطمة وحنان ليسا صديقتين بالشكل الذي يرضيها. وفجعتها هذه الحقيقة فجأة. إننا لا نشعر بحاجتنا إلى الأصدقاء إلا حين نحتاج لوجود الأصدقاء! اكتشفت كم هي وحيدة! آه.. ورشا تبدو متألقة، ولامت ندى نفسها على كلماتها السخيفة، لامت نفسها كثيرا واعتذرت، وقبلت رشا أسفها وانتهى الأمر، لكن في نهاية ليلة الحناء قالت رشا: لماذا لم تفرحي لي مثل الأخوات؟ لماذا جلستِ هكذا في مكانك؟ أعرف أنه يضايقك أنه اختارني أنا ولم يخترككِ أنتِ! فعرفتْ أن الأمر قد انتهى هكذا من فوق السطح، لكن تحت في القاع، شيءٌ قد انكسر للأبد.

... ...

تخيلتْ كيف سيكون شكلها هي في فستان الزفاف؟ والعريس؟ أحمد! آه! الكفن أيضًا لونه أبيض! لا داعي لذلك الآن، إنه فرح أختك!

... ...

قال عم السيد:

ونسيت وقلت أكيد الست هانم حضرت، أنا حتى لا أستطيع فهم هذه الأشياء المعلقة في يده ربنا يعافينا، أنا رجل أفك الخط، ما أفهم في الطب، وقلت لا أحد سيترك أباه في هذه الحال!

... ...

تقدم الحاج رزق إلى ندى، وطلب منها أن تأتي ليعرفها إلى مفاجأة.

... ...

وكانت قد غابت أسبوعا!

... ...

رفضتْ فقال إذًا سأحضرها إلى هنا. وذهب وعاد معه محمد جمعة، قال: الأستاذ محمد جمعة تعرفينه بالتأكيد. هزت ندى رأسها بابتسامة مجاملة: ومن لا يعرفه! قال محمد جمعة: هل التقينا من قبل؟ قال الحاج رزق: الآنسة ندى أخت زوجتي، وهي تقدم نشرة السادسة في القناة الرسمية. قال محمد جمعة محاولا إضفاء الجاذبية لابتسامته: أها هكذا إذًا نحن زملاء! ولا تعرف ندى لمَ شمتْ رائحة بيض مسلوق متعفن فجأة.

... ...

قال عم السيد:

فجأة كانت الرائحة قوية، رائحة نتنة ربنا يعزك، لا مؤاخذة سامحيني، لكن أنا الدنيا علمتني الصراحة، كانت الرائحة قوية جدًّا، واشتكى البهوات، قلت رغم إني غسلت السلم بنفسي ورششته بالمطهر، وقلت لهم إن هذا آخر رمي القمامة في المسقط، المسقط أصبح مزبلة! لكن إلقاء القمامة لم يتوقف يومًا ولم تظهر أبدًا هذه الرائحة. كنت أستعيذ بالله في الليل والرائحة كرائحة جيف، أو حيوان ميت.. آه لا مؤاخذة.. والله لا أقصد.. سامحيني.. قلت في البداية إنها رائحة فئران ماتت، وقلبت الدنيا بحثا، وحين عبوري جوار باب المكتب، وجدت الرائحة أقوى من كل مكان آخر، استعذت بالله من الشيطان الرجيم ودخلت. وجدته الله يرحمه على سريره وذراعاه ملقيان جواره، أزرق كدجاجة مخنوقة، كانت الأشياء التي تدخل في جسده خارجة منه وقلت لعله نزعها لأنها آلمته، وضربت نفسي بألف حذاء وقلت كيف تنسى أن تطل عليه؟ لكني حتى وإن كنت فعلت فأنا لا أفهم في الطب يا ست ندى، لا أفهم في الطب، وبرغم ذلك أستطيع أن أعرف الميت حين أراه.

... ...

وسط المقابر وقفت ندى تتلفت حولها بائسة، تبحث عن قبر أبيها وسط القبور الكثيرة ولا تعرفه، تحمل وردة بيضاء مبللة بدموعها الغزيرة، وصوت عم السيد يصدح في أذنها:

طبعا على الفور، اتصلت بالمغسلاتية وغسلناه، ورحت لأحضر تصريح الدفن، قالت الحكيمة إنه مات - ربنا يعافينا - بسكتة دماغية، غالبا يوم السبت، سمعتها تقول إن ذلك سبب الزرقة وانسداد وتجلط وكلام لا أفهمه، فقلت لها: أنا يا ست هانم لا أفهم في الطب، فقالت: لا عليك، المهم أن تدفنوه بسرعة، أين أهله؟ وأنا لا أعرف لكم عنوانا حتى، وإكرام الميت دفنه يا ست ندى، صلينا عليه الظهر في المسجد ودفناه هناك في مقابر الصدقة.. أنا ذاكرتي ضعيفة ولا أستطيع أن أحدد القبر بدقة، لكنك ستجدين تاريخ اليوم مكتوبا عليه، لن يدفنوا عليه أحدًا قبل مرور فترة لا تقلقي.. الميت له حرمة.. الله يرحمه.. تعيشي وتفتكري، تعيشي وتفتكري يا ست ندى.. أبوكِ طول عمره رجل محترم، والناس كلها تشهد له بالخير.. الله يرحمه..

كانت واقفة وسط المقابر الخيرية، التواريخ مكتوبة بالحجر الجيري على الأسمنت ليجف بها، تتلفت بحثا عن التاريخ،

وجدت قبرًا،

ثم لمحت آخر، فثالث....

كانوا ثلاثين قبرًا عليهم نفس التاريخ!

نتفق

من أين جاءت تلك البطة؟ قام ملسوعا من البانيو الممتلئ فانزلق الماء العكر على البلاط. يا مديحة يا مديحة. نادى بكل ما فيه من عزم. بدا له أن ثمة ثقب أسود يبتلع

صوته، وأنه يدور في فراغ لا نهائي. أين صوتي؟ يا مديحة يا مديحة. لا يجد صوته، في هذا الفراغ معدوم الهواء، والبطة تقترب، ببطء وحفيف وتطلق خوارًا كثور صغير. اتخذ ركنا وحاول أن يبتلعه الحائط، سمع طرقا على الباب، مديحة، مديحة، ادخلي بسرعة. دخلت مديحة، حاول أن يعتدل حين رآها في كامل بهائها، في فستان بلدي، يلتف حول جسدها، ويصل لركبتيها، يُظهر ثدييها الأبيضين نافرين، وحلمتاها تبرزان مشدودتين أسفله. قالت: أوامرك يا باشا. لا تتصنع دلالا هي عاهرة في ذاتها. تلك الأنثى التي تولد وبداخلها عاهرة ولا تعرف أن تكون شيئًا غير ذلك. جميلة، لها عينان تبدوان دائمًا شبقتين، تشعر حين تنظر إليها أن عينيها تناديانك، وأنها دائمًا في حالة انتشاء، نظرتها كأنها دائمًا في لحظة رعشتها، أو مشتاقة لها. أول مرة رآها قال لنفسه: هذه تريد في عينها! جاءته هاربة قالت له: نتفق. قال: نتفق. قالت: أكون خادمتك المخلصة، لكن لا أريد أن أذهب معهم. من هم؟ يومها تعرف إلى الحاج رزق لأول مرةٍ. هاتفه: أستاذ محمد مرحبًا، أنا ولي أمر مديحة التي جاءت عندك في الصباح. إذا نتفق! قال محمد جمعة. ضحك الحاج رزق: يبدو أننا سنتفق فعلًا يا أستاذ محمد فأنت لم تسألني كيف عرفت أنها عندك أنتَ بالذات ولا من أين أحضرت رقم هاتفك! أشاح محمد بيده ناسيا أنه يتحدث عبر الهاتف. لماذا أنا بالذات؟ كان جوابها بسيطا لكنه ليس كافيا، هي من نفس قريته القديمة، ولا تعرف أحدًا في العاصمة غيره. في ذلك الوقت وضعه كان غريبا بعض الشيء. وفاة أمه وزوجها وربما وفاة عبد الله أيضًا بعدها بفترة. خطب فيروز ثم مات أبوها، سعت أمه – التي كتب لها زوجها الراحل نصف ثروته – كي يتم الزواج بأسرع وقت، قالت له فيروز: أنا أعرف لماذا تريد أن تتزوجني، وأنا غير مهتمة، لكن دعنا نتفق. قال: نتفق. قالت: لن نتزوج، سأعطيك ما كنت تبحث عنه في مقابل ألا نتزوج! ماتت لؤلؤة، وجدوها في مسبح الفيلا تطفو على وجهها، ترتدي مايوه قطعتين. رفض عبد الله استلام الميراث، كان لا يزال محمد في العشرين من عمره، وكان عبد الله وصيا على الميراث. قال إنه لا يريد ميراثا مشبوها. جُن محمد، كيف ترفض ذلك؟ قال: سأرفضه يعني سأرفضه. ارفض نصيبك لكن خذ نصيبي. أنت صغير لا تعرف شيئًا. وهذه الخطبة لا بُد أن تتخلص منها، أنتَ لا تملك أي شيء كي تتزوج بنت مليونير. كان حتما عليه أن يتصرف بسرعة؛ وتصرف. كان تصرفا صعبا لكنه كان الوحيد المتاح، يقول لنفسه ذلك بعد ربما عشرين سنة. يقول لنفسه كان ذلك لأجل الوطن. يقول لنفسه أشياء كثيرة. لم يكن هناك تحقيق، كانت القضية جاهزة، وكان عبد الله يليق عليها تمامًا. مدرس تربية دينية، ينتمي لجماعةٍ محظورة، يصنع ميليشيات مسلحة من الأطفال ويدربهم على القتال، ويزرع فيهم أفكارًا متطرفة بهدف هدم المجتمع وقلب نظام الحكم. كل شيء جائز في نَهَر. في المسجد الذي كان يصحب إليه أطفال المدرسة، قبضوا عليه. قالوا ضاحكين قبضنا عليه متلبسا. كان يحدث الأطفال عن قوم موسى، يحكي قصة السامري، قال لهم: لا تعبدوا الذهب. إياكم أن تعبدوا الذهب. كان يعلمهم السباحة ويحفظهم القرآن، حين دخلوا عليه، سمعوه يقول: فرعون! قالوا: هل سمعتم إنه يذكر المارشال! وقالوا ضاحكين في الهاتف لجمعة: لقد قبضنا عليه متلبسا.

المحامي صار وصيا عليه وعلى فيروز حتى أتم محمد واحدًا وعشرين بعد ستة أشهر، وصار من حقه استلام ميراثه. فيروز التي كانت تدخل العشرين من باب صغير لا تظهر ملامحه في جسدها أو وجهها المنمنم، قالت له: نتفق! قال: نتفق. واتفقا. تزوجا كي يتخلصا من وصاية المحامي. وتطلقا دون أن يتماسا، واتفقا على أن تظل المصانع تدور والشركات تنتج ويبقى الحال كما هو عليه، في مقابل أن تكون النسبة الأكبر من الأرباح لمحمد جمعة بزيادة طفيفة. اتفقا أيضًا على أن يظلا أصدقاء. يتحادثان عبر الهاتف كل فترة، يتابعان أخبار المصانع والشركات، تخبره فيروز عن رحلتها الجديدة في أوروبا، تقول له اخرج لف العالم. يضحك ويقول: أنا إعلامي، أنا أخدم الوطن. آه إعلامي. وشايته بأخيه، جعلت له اسمًا مرموقا في الحزب، خصوصا بعد دوره الملموس في الجامعة. وجاءه هاتفٌ: ألو ازيك ياض يا محمد؟

- من معي؟

- ألا تتذكرني يا خول؟

- من أنتَ يا ابن الوسخة؟

- أنا النقيب أكرم يا بأف!

- النقيب أكرم؟ أكرم من؟

- أكرم ابن الحاج (....)

- ياه! أكرم؟ أكرم النذل؟ واحشني يا جدع والله وبقيت نقيب.

- كيف حالك ياض يا محمد وما أخبارك؟

- أهو خلصت كلية الحقوق وماشي الحال.

- أنتَ ستقول لي؟ أرسلوا يسألون عنك.

- ما الحكاية؟

- بعد حكاية أخيك؛ اللواء (....) يريدك أن تكون مسئول حملته الدعائية في الانتخابات!

- أنا؟

- نعم أنت وجه جديد، والجميع يرى لك مستقبلا باهرا.

- وكيف عرفت؟

- أقول لكَ النقيب أكرم في الأمن الوطني وتقول كيف عرفت يا بأف؟ كلفوني بجمع المعلومات عنك.

- ظبط أخوك بقى يا عم أكرم.

- لا تقلق كله تمام، حزنتُ والله على ما حدث لعبد الله، لماذا مشى في هذه السكة؟

- أهو بقى.

- وأنتَ كيف حالك؟ فيمَ تزوجت وطلقت؟ شكلك لا زلت تتناك كما أنتَ؟ فاكر يلا لما كنتُ أنيكك في بيتكم وفوق السطح؟ فاكر؟

ونجح نجاحا ساحقا في الحملة، اعتمد أفكارًا جيدة بالتنسيق مع أكرم، أحضر عصابات من السيدات، وقفها أمام اللجان، تتحرش بالرجال والسيدات الذين جاؤوا للانتخاب. وذهب إلى المناطق المدقعة الفقر في الدائرة، منحهم خمسين جنيها على أن تكون هناك خمسون أخرى بعد نجاح الباشا.

نجح الباشا.

وكان يصرخ: ابعدي البطة يا مديحة، البطة ستقتلني. تلفتت مديحة حول نفسها تبحث عن البطة، رمقته بعين ساخرة، تطلع إليها مليا، كان بؤبؤاها صفراوين!

لما جاءته، عرف أنه لن يفرط فيها أبدا. هذا الجسد البض الشبق لا يمكن أن يضيعه. على الأقل سيريحه من عناء التخفي كل يوم في طريقه لبيت من هذه البيوت. لم يعد الناس يتركون أحدًا في حاله هذه الأيام. آه، أيام الكنبة السعيدة، بعد اختفاء عبد الله، قرر أن يعتبر أنه لم يكن لديه أخ من الأساس، ورسم بدقة عالم كيمياء خطة مستقبله واضعا كل العوامل الحفازة في جانب واضح من عقله، ومستنتجا المركب الذي سينتج، اليوم يضحك، لو كنت دخلت كلية العلوم لكنت صرت أحمد زويل. كل المعادلات التي وضعها والخطط التي استخدمها، جعلته ينتقل من الكنبة الصغيرة، إلى السرير الوردي الواسع، ومن سجائر الفرط إلى السيجار الفاخر، ومن أمين لجنة الشباب في الحزب، إلى المتحدث الإعلامي باسم الحزب، ثم إلى الإعلامي الكبير محمد جمعة. نعم، إنه هو من صنع وحده هذا النجاح. ومديحة جاءت بكل شهوتها لتمنحه ما بحث عنه طويلًا. لا تذهب بفكرك بعيدًا، فأنا دائمًا حولي نساء، لكنهن – تعرف – يحمن دائمًا حول مصيدة الزواج، يمنحن بشروط، لا أحد يمنح مجانًا اليوم في هذا العالم. العاهرات هن الجميلات، لكن الإعلامي الكبير لا يليق أن يذهب لبيوت الغواني، حين تصبح مشهورًا، تصير بؤرة الضوء مركزة عليك، فيصير أقل خطأ جرما كبيرا في حق المجتمع والناس. كان الحاج رزق يريد أن يزوجها برجل أعمال خليجي، هذا ما قاله لي، قال لي إنها عبيطة وترفس النعمة برجلها. قلت: لكن رجلها الشهية هذه حقها أن ترفس، هذه الرجل لم تخلق ليتحسسها رجل ويفضها ويلتهمها ويلقيها في بطنها عيل. قال: أعوذ بالله، نحن شغلنا نظيف يا أستاذ محمد، البنات اللاتي نرسلهن يتزوجن على سنة الله ورسوله، والطلاق أبغض الحلال، لكنه حلال، والبنات يكن حريصات دائمًا على تناول هذه البلاوي التي تمنع الخلف. إنني أمنحهن فرصة عظيمة، ينزفن دمًا من أسفل عاناتهن ويُقذف داخلهن بدلا منه بترولا أسود ذهبي يمنح الحياة لكل الخلايا الميتة. هذه سمعة الوطن يا أستاذ محمد! سألت: ولماذا هربت منك مديحة إذًا؟ قال: لا تسألني، هي عندك فاسألها. أبوها أرسلها إليّ كي أرسلها لصاحب نصيبها، لكنها فقرية. لم يسأل نفسه كثيرا لماذا جاءت إليّ أنا دون غيري، هو إنسان محظوظ ومجتهد في عمله، يخدم البلد والناس، هذه مكافأة سماوية له.

عيناكِ يا مديحة! عيناكِ يا مديحة! ووجهها يصير أسود وتنتفخ شفتاها فتصيران منقارا، وتفح وهي تتحول ببطء إلى بطة كبيرة ذات عينين صفراوين مشقوقتين طولا. تمد عنقها وهي تحاول عضه، ويقاوم بكل ما لديه من قوة، لكنها أطلقت بحة مرعبة، وانقضت بمنقارها على رأسه، واستيقظ.

أبيض وردي وأزرق شبحي

دعني أنا أحدثك عن الأزرق يا أحمد.

"أوه.. سنعود لذلك!" "ألا تملين الموت؟" "لقد ضقنا بزيارة المقابر!" "في الأخبار موتى، وهنا موتى، وفي كل مكان موتى" "والآن ستقف تحدث نفسها كالمجانين!" "يا حمير، اتركوها إنها في لحظة شجن" "شجن مانجو!" "هي هي هي حلوة"

الأزرق لون الموت يا أحمد، الأزرق لون الموت، ولا لون يمثل الفرح. دعني أنا أخبرك عن الأزرق الذي يجثم على أنفاسي كوابيس طوال الليل. أنام، فيأتيني أبي، يعاتبني، يمزقني عتابه، ووجهه منقسم نصفين، نصفٌ بلونه الطبيعي، والآخر أزرق. أرتعب، لكنه يبتسم لي. أعتذر، لكنه يعبس في وجهي، يعبس في وجهي وقد ترك لي ميراثه الثقيل؟ كل هؤلاء القتلى يكلمونني في أذني، يراقبونني، وكأني ينقصني يا أحمد. لو تراني الآن ستدرك كم تغيرت، آه عمر طويل مر. كم؟ سبعة أعوام؟ لكني لا أنسى يوم أرسلت لِي رسالتك، السابع من نوفمبر سنة 1995، آه التاريخ، كان هنا مكتوبٌ على قبركَ يا أبي، من دفنوا معك؟ ولم يكن بيدي يا أبي، قلت أنقل رفاتك، لكني لا أعرف قبرك. أأنبش ثلاثين قبرًا يا أبي؟ لماذا كان الموت كثيرا يوم مت؟ هل مات كل الطيبين معك؟ هل كان الثاني عشر من يوليو 1997 هو يوم نهاية الطيبين؟

"اتركوها" "ولماذا تدافعون عنها؟" "نحن نؤمن بحقوق الإنسان" "نعم من حق أي إنسان أن يحزن وأن يترك وشأنه" "الأمريكان يقولون ذلك! هأ!" "نعم الأمريكان يقولون ذلك؟ هم يقتلوننا ويعطوننا الحق كي نحزن!" "نعم هل تعرفون غسان كنفاني؟ إنه من عندنا، يقول: يسرقونك ثم يعطونك رغيفا ويريدونك أن تشكرهم، يا لوقاحتهم!" "لا نعتقد أنه قالها كذلك!" "هل ستعرفونه أفضل منا؟" "أنتم تأتون لتتعلموا في جامعاتنا في نَهَر، بالتأكيد نعرف أكثر منكم" "هيء هيء في تل أبيب وعندنا أفضل جامعات في العالم" "اخرسوا يا أمريكان يا أصدقاء الصهاينة" "أنتم يا أمريكان تكيلون بمكيالين، تحبون أولادكم وتبكون لفراقهم وأنتم ذاهبون لقتل أولاد الآخرين!" "نحن لم نقتل أحدًا، نحن كنا نعمل في البرج حين فجرتموه أنتم يا إرهابيين" "انتظروا دعونا نشاهد المراسم الأسبوعية" "هي هي هي نعم الآن ستوزع الورد على المقابر" "بماذا ينفع الوردُ الميتين؟" "لا نعرف!" "وماذا تعتقدون أننا نحتاج؟" "لا نعرف، ربما نحتاج أن يذكرنا أحدٌ فقط!" "نعم، أن يذكرنا فقط، بالخير أو بالشر!" "نعم ساكنو هذه المقابر محظوظون!" "نعم محظوظون!" "لا يموت الناس إلا بالنسيان!" "لماذا لا تجلب لنا نحن أيضًا وردًا أبيض؟" "وماذا سنصنع به؟" "نعم ماذا سنصنع به؟" "نصنع به أي شيء!" "أي شيء مثل ماذا؟" "سنصنع منه حليًا أو سرابيل" "نعم نحن موافقون" "سنصنع أشياءً نخفي فيها

أشلائنا الممزقة" "نعم سئمنا من حملها طوال الوقت" "نعم سنصنع أشياء" "أي أشياء" "ستكون أشياء جميلة" "نعم؛ سنحول كل شيء لأبيض وردي!"

لم تكن وردةً تكفي يا أبي، فآتي بثلاثين وردةً بيضاء كل أسبوع، أوزعها على الثلاثين قبرًا، لكن كل يوم يمر، ينبش قبرٌ جديد، ويدفن فيه ميتٌ جديد، هل هذه مقابر الطيبين يا أبي؟ لماذا لا يعرفهم أحد؟ عشت تتكلم يا أبي، فلماذا حين تموت تموت صامتا؟ تموت صامتا وتترك لي كل هذا الصخب؟

"هل تقصدنا؟" "هاي أنتِ، نحن أصلًا لا نحبك ونريد الخروج من هنا" "نعم نعم، نريد الخروج من هنا"

"نريد الخروج من هنا"

"نريد الخروج من هنا"

"نعم إنها الثورة.. نريد الخروج"

"نعم نحن نكره بعضنا، علينا أن نخرج"

"هيا نهتف.."

"الخروج الخروج"

"الخروج الخروج"

"الخروج الخروج"

"أيوه.. الخروج الخروج"

"الخروج الخروج هيا مع اللحن"

"نريد.. تن.. الخروج.. تن تن.. من هنا"

" نعم هيا نصفق: نريد.. تن.. الخروج.. تن تن.. من هناااااا"

"الله يا فنان.. نريد الخروج نريد الخروج نعم نعم"

" نرييييييد الخرووووووج"

" أوه أوه نعم نعم"

"الخروج.. طاك.. طاك.. نعم مع التصفيق"

" نعم نرقص.. وصو وصو.. هيا يا جميلات"

"طاك.. طاك.. الخروج.. نريد.. تن.. "

"من هنا"

"هنا"

"هنا"

"الخروج الخروج"

"الخروج"

"الخروج"

"الخروج.. نريد"

"الخروج الخروج"

"هنا هنا هنا!!!!!!"

لم تعد تزورني في أحلامي يا أبي، وأنا وحيدةٌ في هذا العالم الجديد، وحيدةٌ تمامًا، وحيدةٌ وسط الخوف الذي يحكم العالم، الخوف الذي تلاطمني أمواجه المستعرة كطوفان بركان محموم انفجر غضبان على البشر. لا أعرف يا أبي، هل أنتَ غاضبٌ مني لأجل نادر؟ ألم تطلب مني أن أحب؟ وماذا كان يمكنني أن أفعل؟ أحب وأخاف الفقد، والخوف يجعلنا نتنازل، يجعلنا نقدم أشياءً قد لا نرضى عنها، هل تعرف؟ كل الرجال يقدمون الحب لأجل الجنس، هل كنتَ مثلهم يا أبي؟ والخوف جعلني أتيح جسدي له! وأتذكر خوفي وأنا أقول له كلما تأخر الطمث: هل سأصير حاملا؟ فينظر لي وعيناه مجنونتان: كيف يا ندى؟ الحمل لا يأتي إلا بالإيلاج! فأقول له: قرأتُ أن أحيانًا يمكن أن يتسرب مني الرجل عبر الغشاء ويحدث الحمل! فكان يهز رأسه ويقول: مستحيل! لكني كنتُ أقرأ الخوف في عينيه وهو يسألني كلما تأخر الطمث، ويصيبني الرعب أنا أيضًا! ونقرر ألا نفعل ذلك ثانيةً لكنا نفعله! جنون! هل كلما كبرنا كلما تنازلنا أكثر خوفا من أن نظل وحيدين في النهاية؟ ألم تزرع فيّ هذا الخوف اللعين يا أبي؟ على كل حال هذه لغة العالم الجديد يا أبي؛ الخوف. والخوف يقتل يا أبي، قلت لي يومًا الصمت يقتل الحب، لكن لا، الخوف هو الذي يقتل الحب، يقتلنا من الداخل، يقتل كل شيء.

"نحن لا نخاف"

"نعم، نحن لا نخاف"

"نريد أن نخرج"

"هيا أخرجينا"

اخرجوا من عقلي! اخرجوا!

"ماذا؟"

"هل قالت اخرجوا؟"

"نعم قالت اخرجوا!"

"فعلًا قالت اخرجوا!"

"نعم سمعناها قالت اخرجوا!"

"هذا رائع سنخرج"

"نعم ممتاز سنخرج"

"هيا هيا سنخرج"

"وماذا ننتظر؟"

"ننتظر أن نخرج!"

ميراث ثقيل يا أبي. هل كانوا يحدثونك بكل هذه الكراهية بينهم؟ ألهذا حاولت تغييرهم؟ ربما هم ضحايا مثلي ومثلك يا أبي، ضحايا مدفونة في مقابر خيرية لا أحد يعرف عددها، لعلهم هنا بجوارك يا أبي، أو في نفس قبرك! لماذا لا يموت السيئون يا أبي؟ لم تعد تأتيني في أحلامي وأنا بحاجةٍ إليك. هل رأيت ما يفعله الحقير زوج رشا؟ كلما رآني ينظر لي نظرة تخيفني، يريد أن يزوجني لذلك المذيع المشهور محمد جمعة، يقول لي ذلك بابتسامة سمجة صفراء، وآثار الدخان والأكل محشورة بين أسنانه وفوقها، ويقول إني أعجبه، فأنظر له محتدة فيقول ببرود أقصد الأستاذ محمد. يقول لي كم عمرك، فلا أرد، تقول أمي إني خلاص سيفوتني القطار وسيميل بختها فيّ، تطلب مني أن أتزوج هذا المذيع، إنه نقيضك يا أبي، إنه إنسان حقير ووصولي ورأسمالي بشع! أبكي، أروح لنادر، نادر بطل، مثلك، ربما هو أيضًا رجل، ويبحث عن جسدي، لكنه يقول إن الرجال يعبرون عن حبهم بالجسد! هو ليس مثل هذا البغيض جمعة، أصرخ فيه يا نادر، لماذا يفعلون بنا ذلك؟ لكن نادر لا يرد. نادر خائف. نادر يخاف. هل تعرف يا أبي، نادر لا يخاف، يحكي لي حكاياته في المظاهرات العمالية، وإيمانه بحلمه منذ كان يحلم بأن يكون مذيعًا في الإذاعة المدرسية، وكفاحه في القسم الثقافي حتى ينتقل مراسلا في قسم الأخبار، لا يتحدث عن عائلته كثيرًا، وأكاد أتخيل كيف قسوا عليه، نعم نادر لا يخاف، لكنه يدعي الخوف معي فقط! نعم! أستطيع قراءة ذلك فوق جبينه! ورزق، ذلك القواد، استغل حمل رشا، استغل انشغال أمي في المستشفى معها، استغل أنه قام بتوصيلي لإحضار بعض الأغراض لهما من البيت، استغل ذلك، ووجدته ورائي في غرفة النوم، تقدم مني، قال: أنا في البداية أردتك أنتِ لكني عرفتُ أنكِ سترفضينني. ولاحت تلك النظرة المجنونة من عيني فجعلته يتراجع، لم يضف شيئًا، وتوقف للحظة كأنه يحسب الأمر، ثم ابتسم وغادر. وغادرت أنا أيضًا، وأنتَ يا أبي ترى كل ذلك! فلماذا تخاصم أحلامي؟

"إنها تكلم أبوها الميت!"

"هيء هيء إنها مجنونة!"

"نعم مجنونة!"

"مجنونة!"

"مجنونة!"

"مجنونة!"

"مجنونة!"

"مجنونة!"

"توقفي عن هذا الجنون وأخرجينا!"

"نعم أخرجينا!"

"لماذا لا يأتي أبوها معنا؟"

"غريب فعلًا! لماذا لا يأتي أبوها معنا؟"

"نعم لماذا لا يأتي أبوها معنا؟"

"لأنها هي التي قتلته!"

"نعم لقد رأيناها تقتله!"

"لم تهتم به!"

"لم تهتم بأبيها وتقول أحب أن أفعل كل شيء بشكل صحيح!"

"كاذبة!"

"مهملة!"

"لن يسامحها أبدًا!"

"تركته لهم!"

"نعم لقد رأيناها!"

"قاتلة!"

"قاتلة!"

"قاتلة!"

"قاتلة!"

"قاتلة!"

"لماذا يصير لونها أزرق كأنها تختنق؟"

"لا! هذا فقط لون شبح أبيها ينتقم منها!"

"نعم! الأشباح لونهم أزرق!"

"نعم! لونهم أزرق!"

"نعم! أزرق!"

"أزرق! أزرق! أزرق!"

"أزرق! أزرق! أزرق!"

"أزرق! أزرق!"

"أز.."

"..رق"

"!"

بروتوكولات العالم الجديد

غفا وهو يستجم في البانيو الواسع، أصابه الماء الدافئ بخدر، ودخان السيجار غشي عينيه، فنعس. لم تكن المرة الأولى التي يغفو فيها وهو مستلقٍ في البانيو، يفيق عادةً على خبطة رأسه في الحافة حين ينزلق جسده لأسفل أكثر، أو حين ينسرب الماء داخل أنفه فينتفض. لم يكن معتادا أن يفيق على كابوس كما حدث اليوم. أصابه الكابوس بقلق مبهم، فعنده اليوم اجتماعٌ مهم، سيعقد فيه بروتوكول تعاون مهم، ويحتاج الموافقة ثم بعض الإمضاءات التي ستحضر اجتماع اليوم في الحزب. ملأت قصبته الهوائية غصة غامضة، كفقاعة صابون، فسعل وهو ينفث دخان السيجار. هل يغير خططه ناحية مديحة؟ لكنها مخلصة، قد أثبتت إخلاصها في كل مرة فتش وراءها. لن يشك فيها الآن، رغم أن الشك هو الذي جعله يصل إلى ما هو فيه الآن، على كلٍ هو يحتاجها في الخطوة المهمة القادمة، سيؤجل الشك الآن. ليس كونها تحولت لبطة في الحلم أن يعني ذلك نهاية كل شيء. لن يجعل البط العكر ابن الكلب يقض يومه. خرج من البانيو، نشف نفسه جيدا، نادى مديحة، دخلت دون أن تطرق الباب، قال لها: أنا اليوم سأصنع بروتوكول مهم، لو حدث ستكونين نجمة. قالت وهي تلبسه البُرنس الأبيض: سيحدث يا باشا. يحب قولتها يا باشا، تضغط على الشين وتطعهما بتاء رقيعة. كأنها تلوك شيئًا في فمها. وحين كانت تنظف عانته داعبته قليلًا، فأغمض عينيه لوهلة منتشيًا، ثم قال: سنحتفل احتفالًا كبيرًا ليلًا، كوني مستعدة. قالت بخفة: أنا دائمًا مستعدة يا باشا.

ارتدى بذلة أنيقة، سوداء اللون، وتحتها قميصا بلون الفئران غامق قليلًا، ولم يشأ أن يخنق نفسه بالكرافتة، يريد أن يكون حرًّا كي يستطيع أن يقنعهم بالفكرة الجديدة.

في تلك المشاوير المهمة، يمنح السائق أجازة ويقود السيارة المرسيدس الحمراء موديل 1998 بنفسه، يوم اشتراها كانت موديل السنة، ورغم أنه الآن قد مرّ عليها ثلاثة أعوام أو يزيد، إلا أنه لا يريد تغييرها. شغل موسيقى يحبها لعبد الحليم حافظ. في تلك المشاوير المهمة، التي يقود فيها بنفسه المرسيدس الحمراء موديل 1998، دائمًا يصطدم برصيف أو بسيارة أخرى، لأن باله يكون مشغولًا بالأمر المهم الذي سيناقشونه في اللوبي. الشك. الشك يجعله مثلهم جميعًا يتخذون طرقًا ملتوية كثيرة، ويبتعدون عن الطرق الرئيسة، حتى يصلون لبيتٍ بعيدٍ في طريق بعيد في صحراء بعيدة. تدخل سيارته المرسيدس الحمراء موديل 1998 لجراج خاص، وتقف خجلى جوار ماركات عتية، ربما لا يوجد غير هذه المركونة في الجراج في نَهَر كلها. سيارات فارهة، تشع منها روائح النعيم. يهندم نفسه في مرآة السيارة، قبل أن

يخرج، ويتقدم نحو البيت، فيفتح له حارس ضخم الجثة البوابة ويتفحصه خوفًا من أي سلاح. يمتثل للإجراءات وكلمات كثيرة تدور في ذهنه.

يدخل قاعة واسعة، تشبه قاعات أفلام هتشكوك التي يعيش فيها الدون دراكولا. دراكولا كان حاكمًا اسمه فلاد المخوزق، لأنه كان يخوزق معارضيه وأعدائه. وما هم هنا غير حكام ومصاصي دماء؟ كانوا يجلسون على مائدة مستطيلة طويلة وعريضة وملأى بشموع منتصبة وموسيقى خفية تترنح ما بين الأضواء المتذبذبة وخفقات الكؤوس الدائرة هنا وهناك. كانوا سبعة وهو ثامنهم، أو ثمانية وهو تاسعهم، أو تسعة وهو عاشرهم، لا يعلمهم إلا قليل. حين اكتملوا وقفوا رافعين كؤوسهم، في صحة المال. جلسوا، غداء عمل، رغم كل هذا الترف هو غداء عمل، قال لنفسه محمد جمعة، لن يمصوا دمك، ستمص أنتَ دمهم. ثم تنحنح وقام واقفا ليقول ما ظل يحضره طوال الطريق: أعزائي؛ أريد أن أصنع معكم بروتوكول تعاون.

ضحكوا: فيمَ نتعاون؟

- نعم فيمَ نتعاون، إذا كنا متعاونين بالفعل!

تنحنح: العالم يتغير من حولنا. وأريد أن أصنع معكم بروتوكول تعاون.

- نحن نسمعك.

- نعم، نحن نسمعك.

- هل تريد أن تغطي أطعمة أوشكت صلاحيتها على الانتهاء، وتضرب بها السوق؟

- أم تريد أن تفجر كنيسة؟ أو تهدم مسجدًا؟ فتشعل نارًا تدر مبالغ طائلة من بيع السلاح؟

- لعلك تريد بروتوكول تعاون في تسهيل قروض بنكية؟

- أنتَ تريد تعاون؟ أنتَ يمكنك أن تطلب، أنتَ رجلنا!

- نعم اعتبرنا مثل الآلهة!

ابتسم: لقد حادثت المارشال ، وأمرني أن أعرض عليكم هذه الفكرة فورًا دون إبطاء.

- نعم المارشال رجل جيد، يحبه الناس، ويعرف كيف يدير الأمور.

- لكنه رغم ذلك يعرف قدره جيدا، هذا ما يجعلنا محافظين على وجوده.

- المارشال قوة، لكن القوة وحدها لا قيمة لها.

- المال يشتري القوة. يمكننا غدًا أن نبدل المارشال بمارشال آخر والآخر بآخر....!

- المارشال يعرف ذلك، ويعرف قدره جيدًا!

- وهذا ما يجعلنا محافظين على وجوده!

- هذا لأجل الوطن!

- هذه سنة الطبيعة، الناس طبقات ويجب الحفاظ على ذلك، هذه مصلحة الوطن.

- وطبعا مصلحة الوطن فوق كل اعتبار.

- نرجو أن تكون فكرتك لصالح الوطن أيضًا.

تحدث مليا عن فكرته، شرح كيف أن العالم بعد ضرب البرجين قد تغير، صار عالما سريعا يقفز قفزات هائلة في التكنولوجيا والاتصال وفي مجال الإعلام أيضًا، وكيف يتم الترويج مثلًا للحرب على العراق وأفغانستان إعلاميا بحجج مثل الإرهاب والقاعدة وأسلحة الدمار الشامل، وتحدث عن علاقاته بالأمريكان ودراسته لوسائلهم الحديثة في الإعلام وتخدير الرأي العام الأمريكي والعالمي بحقن شرجية طويلة الأمد. أخبرهم، عن وجوب تطور بروتوكولات التعاون بين الإعلام ورأس المال، فهما وجهان لعملة واحدة، كلاهما لباس للآخر، وهو عنده فكرة جديدة، سلسلة قنوات إتش بي إتش تشمل كل شيء، قناة ترفيهية سيقدم فيها وجها جديدا على التلفزيون، فتاة اسمها مديحة، مليحة وجميلة وستعجب الناس، ولاؤها للحزب والمارشال ولمحمد شخصيا لا شك فيه. ستخرج على الناس، في مسابقات لطيفة، يتصل الناس عبر رقم على الشاشة وتكون تكلفة الدقيقة غالية، وتكون أسئلة المسابقة تافهة وسطحية مثل مثلًا دولة من ثلاثة أحرف أولها نون وآخرها راء وأوسطها هاء، سنحضر أناسا من عندنا ليتصلوا طبعا، وسيجيبون إجابات خاطئة، هذا يحمس المشاهد، سيجعله يتصل، ونفتح الخط، وهكذا، قال إن لديه فريق جاهز لتجهيز أنواع عديدة من المسابقات، لكن الأمر يتطلب مكافآت مالية ضخمة في البداية، بالطبع ستغطيها وتزيد عوائد الاتصالات فيما بعد. القناة الثانية تكون رياضية، يمكننا أن نأخذ حق إذاعة الدوري النَهَري وتحليله، والمعلق مرعي ممتاز وجاهز، وهو من رجال المارشال المخلصين وتحبه الجماهير. وأخذ ينخر وهو يتحدث وبطنه الضخمة تهتز لأعلى وأسفل، والعرق ينضح بقعا فوق قميصه. القناة الثالثة ستكون دينية، سيقدمها الأستاذ الدكتور سنقر وهو رجل علامة وجليل يدين بالولاء للمارشال، وأخيرًا قناة إخبارية، أنقل إليها برنامجي.. طبعا هذه الأفكار الرئيسة، أو لنقل الأعمدة الأساسية في كل قناة من السلسلة، فيكون لدينا إتش بي إتش ترفيه، وإتش بي إتش أخبار، وإتش بي إتش دين، وإتش بي إتش رياضة.. ثم لاهثا أنهي كلامه: هذه بروتوكولات العالم الجديد، ألستم معي؟

سكنوا مليا، ينظرون لبعضهم البعض، ثم وقفوا رافعين كؤوسهم المليئة بالدولارات واليوروات والجنيهات الإسترليني والدنانير والدراهم والريالات والجنيهات وقالوا ضاحكين: في صحة بروتوكولات العالم الجديد!

نظر في المرايا حوله، لم يكن هناك أثر لهم، والذي أسعده أنه لم يجد انعكاسه هو الآخر.

في صحة بروتوكولات العالم الجديد. ردد الصدى.

مسرحية

لم يصطحبني هذه المرة، كان في مكانه جالسا، وكنتَ لا أطيق سماع صوته، جلس فوق كرسيه صامتا ينتظر مني إشارة البدء، جلستُ وحيدًا في المسرح الواسع ذي الكراسي الحمراء المهيبة، وقلت بعسكريةٍ: استعد، فلمعت عيون المارشال..

أخذتُ أقلب القائمة بحثا عن الموسيقى المناسبة لهذا الفصل، جربتُ مقطوعة ثم أخرى ثم استقريتُ على Audiomachine – Usurper شغلتها فابتدأ العرض:

الجماهير العريضة تجلس القرفصاء صامتة وعلى وجوهها خواء ثابت، منقسمون إلى ثلاث مجموعات يرتدون منامات صفراء وخضراء وزرقاء، ظهورهم للجمهور، ووجوههم متجهةً صوب ثلاثة مربعات خشبية مطلية بالأسود، فتجلس كل مجموعة بنفس لون المنامة أمام مربع بعينه، ويظهر في هذه المربعات النصف العلوي من مديحة، مرعي، سنقر، على الترتيب: مديحة ببلوزة حمراء قانية تبرز منها حلمتاها وتصل بالكاد إلى حزام بنطلونها الجينز الأزرق السماوي الضيق جدًّا، ومرعي ممسكا بكرةٍ صغيرة في يده وهو يرتدي (ترنج) رياضي عليه شارة المنتخب، وسنقر يقف ممسكا بمسبحة وهو يرتدي عمة وقفطان.. والثلاثة مربوطون بأسلاك نحاسية صفراء رفيعة إلى ست قطعٍ من الخشب، كل اثنتين مصلوبتين إلى بعضهما، ويمسك محمد جمعة بها وهو يظهر في مربع يعلو المربعات الثلاثة يرتدي بذلة أنيقة بنية بقميصٍ سماوي، وتخرج منه أسلاك نحاسية تصل إلى الصليب الذي يمسك به المارشال، ويحركه يسارًا ويمينا ولأعلى وأسفل، فيتحرك جمعة فيتحرك الواقفون في المربعات برؤوسهم وأيديهم دميً، فتتحرك معهم بنفس الحركات الجماهير العريضة الجالسة متصنمة أمامهم..

ونور ببنطلونه البني وقميصه السمني، يقف وحيدًا أمام دكانه يرفع الكتب بيديه، وينظر حوله، يبحث عن أحدٍ ما، يرمق حبيبته التي جلست أمام مديحة ويحاول أن يناولها كتابًا، فيلتفت بحدةٍ الأربعة في الصناديق المربعة، فتتلفت الجماهير العريضة بنفس الحدة، فيجفل نور، ويتراجع والإضاءة تخف ببطء، حتى يدخل إلى دكانه ويبتلعه الظلام.

إظلام.

بين الجدران والدم

في شقته المليئة برائحته، تناوبوا اغتصابها.

دموعٌ تنسرب من بين يديها وتركض أخاديدَ جسدها ثم تذوب في محيط الدم.

رجلٌ ذو إصبع قوي جاء من بعيد جدًّا، خلع بنطلونه، ألقاها على الأرض، فسخ رجليها، ولم يكلف نفسه عناء خلع قطعتها السفلية، أزاحها قليلًا وولجها.

طأ طأ طأ صوت ارتطام اللحم.

انتهى.

بصق.

والتصقت بصقته بعانتها وسالت ببطء مختلطة بملح الدموع. لكنها لم تذب في المحيط، أخذت تطفو على سطحه.

جاء أحمد، معه فرشة وألوان، لون صدرها بالأصفر، لون وجهها بالأسود، ولون فرجها بمنيه، ولجها.

طأ طأ طأ صوت ارتطام اللحم.

انتهى.

بصق.

وبصقته كانت ملونة، اخترقت أذنها صارخة: أين نادر؟ مزقها الصفير.

في شقته المليئة بالرائحة، وقف نادر يتأمل جسدها العاري الملون، فتح سحاب بنطلونه، بهدوء باعد رجليها، ولجها.

طأ طأ طأ صوت ارتطام اللحم.

انتهى.

بصق.

تهرب دموعها صامتة، تخشى أن تُسمع، تخشى أن تقض متعتهم.

غادروا.

لماذا نمزق أنفسنا باسم الحب؟

ودخل الحاج رزق يكشر عن أسنان كالضبع. لم تجد في نفسها القدرة على المقاومة، لكنه فقط نظر لعريها شبقا، وجلس يمارس عادته السرية ثم بصق.

وتتذكر حين دخلتْ الأستوديو. كانوا ينظرون نحوها، وتحولتْ عيونهم إلى أيدٍ ونظراتهم إلى مقصات، أخذوا يشقون بها ملابسها، تشك تشك تشك وهي تتلفت حولها محاولة الهرب من كل هذه المقصات الحادة، وأصوات التقطيع صاخبة صاخبة صاخبة، وصارت عاريةً تمامًا، عارية عارية عارية، ووحيدة.

ثم تحولت ألسنتهم إلى أعضاء ذكورية، واغتصبوها جميعًا بسؤالٍ: ماذا حدث لنادر؟

لا! نحن نمزق أنفسنا باسم الخوف!

لملمتْ أطرافها المبعثرة بنظراتهم، وهي تبحث عن إجابةٍ لسؤالهم تستر بها عريها أمامهم.

ليلى ليلى ليلى ليلى

هذه هي الإجابة التي إن نطقتها ستعريها أكثر. وصدى الصوت يملأ شقته المليئة برائحةٍ نتنة. ليلى ليلى ليلى.. كلمته الأخيرة.

غادروا، جميعهم، وتركوها على الأرض عارية ملونة الجسد باهتة العينين. تحفر الدموع أخاديد سوداء فيها.

لا شيء غيرك كان داخلي، امتلأت بكَ وها أنت تخرج دون إرادتي، فتتركني فارغةً أسمع صدى أنفاسي في هذا الفراغ المميت، هذا الفراغ الذي كان برحيل أحمد لم يملأه أحدٌ غيركَ يا نادر، وقلتُ سأحويك كما حويتني، قلتُ سأمنحك كل شيء كي تمتلئ بي، لكنكَ ترحل وتتركني فارغة خاوية كبرميل صدئ.

ويأتون هم، يأتون بطبل ومزامير، وهي مستلقية تعريها الحقيقة، لا تقدر على أن تقوم، دقوا طبلهم وزمرهم وأخذوا يتغنون، عيونهم تلمع وأمروها أن ترقص، لكنها لم تقوَ غير على هز رأسها. "الآن تتصنعين علينا الشرف!" "ألم يكن ينكحك يا عاهرة؟" "ألم تتركي له نفسك وهو ليس زوجك؟" "ألم ترتكبي الكبيرة؟" "ألم يهرب منكِ في النهاية؟" "هيا ارقصي" "ارقصي" "ارقصي" "على الأقل نحن لم نهرب منكِ مثلهم جميعًا!" "نعم هيا ارقصي أم تخافين أن تفشلي في الرقص أيضًا؟" "ارقصي" "ارقصي" "ارقصي" وشدوها من يديها.

ونادر قد قدم طلبًا للمغادرة، ولم ينتظر، وكأن المغادرة، كأن الغدر، كأنه بطلب. لكنه لم يطلب منها، ولم توافق على طلبه. لقد رحل حتى دون وداع! دون رسالة. إياكَ أن تمنح كل ما لديك، امنح دائمًا بمقدار، هذا إن كان باقيًا لديكَ ما يُمنح، هذا إن لم تُستنزف كلك، تمامًا، وتعلق من قدميكِ فوق جبل، وعرق رقبتك الضخم مثقوبٌ يتساقط منه دمك ببطء كزخات مطر رقيقة، حتى تجف بالكامل. امنح دائمًا بمقدار، واجعل بعضًا من دمكَ باقيا، كي تجذب دائمًا إليكَ مصاص الدماء!

لماذا ننزف دائمًا باسم الحب؟ نتنازل ونتنازل ونتنازل ثم نموت!

لماذا نحب؟ الحب قنبلة موقوتة تنفجر فينا كالحقيقة، كمذبحة. كهروبي إليكَ، كهروبي لعالمكَ المزيف، هاربة للجدار الذي بقيت عليه قطرات دمك حية، تغلي، وتسيل من نبع ما تحت الأرض، فتندفع نهرًا يغرق شقتك، ويغرقني. وأسمع صدى كلمتك: ليلى ليلى ليلى.. وأبكي، أبكي، والدم يرتفع حتى يصل إلى عنقي، فأنتفض، أسبح فيه ككلب.

ماذا حدث لنادر؟

ماذا حدث لندى؟ هذا هو السؤال الحقيقي. ندى البعيدة الطالبة في الثانوية بإسدالها الأسود الطويل، وحجابها المهندم ووجهها الخالي من كل تبرج، التي تذهب للدروس الدينية في المسجد وطلب يدها الداعية الكبير. رآها مرةً في درس العصر وجن. طلب من أمه أن تطلبها، لكنها هي رفضتْ ولا تعرف لمَ.

نادر خائن! هذا ما حدث لنادر.

ماذا حدث لندى؟ ندى التي كانت تريد دراسة الشريعة، لكنها اقتنعت بكلام أبيها واتجهت لدراسة الإعلام، وخلعت أيضًا هذه العباءة السوداء الطويلة وارتدتْ فستانًا جميلًا طويلًا وحجابًا ملونًا. ندى التي كانت تبحث عن الله في كل شيء، تؤمن بالله

في كل شيء، ندى التي رفضت هدية أحمد لأجل الله! ندى التي تعلقت بالله لماذا تذوق الآن مرّ التعلق؟

وتقوم بين أيديهم في إضاءةٍ باهتة والدم يئز من العمود وينهمر، فيكاد يغرق الشقة ويحطم الباب والنوافذ ويغرق فيختلط بكل دماء المذابح بالخارج.

ما كل هذا الدم في العالم؟ كوكبنا الأزرق! كوكبنا الأحمر!

هذا ما حدث لندى، ندى التي لا تستطيع الحفاظ على رجل تحبه! ندى التي آمنت كل يوم بالحب، ندى التي حفظت كلمات أبيها صمًا. الحب هو كل شيء في الدنيا يا ندى. الحب هو كل شيء. وأين أنتَ يا أبي؟ أين أنتَ؟ وأنا هنا وحيدة بين الدم والجدران.

ندى! وما ندى؟ ندى فاشلة! هل تسمعين يا ندى؟ أنتِ فاشلة! وكلام أبيكِ كله هراء! كله هراء. لا حب، الحب لا يجوز في زمن المذابح، لا حب في زمن الدم.

تتمايل بحركاتهم، بدفعاتهم، عاريةً لا مبالية غير خجلى، وهم يتدافعونها، يمينا ويسارا أعلى وأسفل، ثم يتعاركون.

"هي لي"

"بل لي"

"بل لي"

"بل لي"

"لي أنا"

يتجاذبونها من يديها ورجليها وشعرها، وكل واحدٍ يريدها له، يجذبها ناحيته.

يشدونها،

وهي تستجدي صرخةً لا تخرج،

داخلها تصرخ،

تصرخ،

تصرخ،

ولا صوت يعلو في شقته المليئة بالكلمة: ليلى غير صداها.

ليلى ى ى ى ى

ويزداد الشد قوة..

يزداد..

يزداد..

تتمزق.

الهروب

وحدة وحدة وحدة جرسٌ جرسٌ جرسٌ طويل طويل طويل كل الأجراس طويلة وكل جرس طويل وكل الطوال أجراس والدليل الدليل الدليل الممزق هناك في ركن الغرفة وكل غرفة فيها ركن وكل ركن فيه دليل وكل دليل ممزق وكل ممزق في ركن غرفة دليل وأنا أحب ليلى أحب ليلى أحب ليلى من تكونين أنتِ؟ لستِ ليلى وليلى تركتني وهي هناك الآن بعيدة بعيدة بعيدة والجرس طويل طويل طويل ممتد وله صدى وصوتها جاء من بعيد وصوت طفل يبكي وصوت رجل يتجشأ من معي؟ من معي؟ أنا زوج ليلى ليلى من؟ ليلى ليلى! قالت إنك ستعرف! ليلى مريضة بمرض مميت سرطان سرطان سرطان سرطان من أين أتى؟ يا إلهي! لا أحد يعرف وليلى تريد أن تراني ليلى يجب أن تراني بعد عشر سنوات يجب أن تراني الدليل الدليل أمسكته أبحث فيه عن هشام عبد القادر ووجدت خمسة خمسة خمسة والهاتف الهاتف الهاتف يعطي جرسا جرسا جرسا طويلًا طويلًا وكل الهواتف تعطي أجراس ولا أحد يرد السرطان السرطان أكل الأسلاك آه العنوان أين العنوان وأعدو أعدو أعدو لا بل أركض لا أعدو تبدو أسرع أطير أنهمر وأتدفق وأسيل وهناك لا يا ندى لا يا ندى لا أستطيع وأنتِ لا تفعلي ذلك لشخص مثلي لا يستحق ونعم يجب أن أطير سأحرك ذراعيّ نعم أنا حر حر جدًّا وحبي حرية يا ندى حبي حرية وهناك هناك لا لم أصل هذا البيت بيتهم القديم ماذا أريد؟ لماذا جئت إلى هنا؟ صوت الكمان العابث أمل دنقل أسير مع الناس في المهرجانات أصغي لبوق الجنود النحاسي بيب بيب بيبب أفسحوا الطريق أضرب رأسي أضرب رأسي هاها يا نادر يا مجنون مجنون ليلى أنا أحبك أحبك هل تريدين أن أصرخ في وجه كل العالم أني أحبك؟ مجنون! أحبببببببك يا ليلى يملأ حلقي غبار النشيد الحماسي No زحام زحام زحام بيب time for goodbye he said as he faded away بيب بيب أفسحوا الطريق الطريق القديم لم يتغير ندى لن يصير شيئًا أبدًا كما كان أنا آسف أنا آسف السرطان يأكل الناس يأكل الناس والناس يأكلون الناس والأكل يأكل الناس كل شيء يأكل الناس ولا شيء يشبع والدليل الممزق في ركن الغرفة وهو يتجشأ في التليفون: رد يا حمار وأنا لا أرد ومدير المراسلين يسألني: هل أنتَ متأكد من طلبك هذا يا نادر؟ لكني داخلي أصرخ العنوان العنوان والجرس طويل طويل ممتد وليس له صدى وطفل يفتح الباب ورجل و.. ليلى! هي لا تقول شيئًا منذ شهر ولم تنطق سوى باسمك طوال الشهر don’t put your life in someone’s hands they about to steal it away الطريق الطريق زحام زحام أغادر السيارة أتركها وأركض لا أعدو تبدو أسرع لكنني فجأة لا أرى فجأة تتلاشى الصفوف أمامي ليلى! في سريرها شاحبة الوجه تخفي رأسها بحجاب ووجهها ذابل لا حياة فيه أقول: ليلى! ليلى من؟ هل قلتُ ليلى؟ نعم يا نادر قلت ليلى لا لم أقل لا بل قلت هاها إنها إذًا لحظة الحقيقة الحقيقة الحقيقة دليل والدليل ممزق في ركن الغرفة يأكله سرطان السرطان الذي يأكل الأسلاك والناس والناس تأكل الناس الناس سرطان والحقيقة سرطان الحقيقة نعم الحقيقة don’t hide your

هشام mistakes cause they will find you burn you then he said عبد القادر هشام عبد القادر هشام عبد القادر هشام عبد القادر هشام عبد القادر لا لم أعد قادرًا على تحمل المزيد الحقيقة تحرقني يا ندى والجرح ملتهب يومها يوم جلست في بيتي أمام الجدار أضرب رأسي فيه دم كثير دم كثير سال ليس في وجنتك دم يا ليلى ماذا جرى لكِ؟ وتقولين نادر أوحشتني أشاهدك كل يوم في الأخبار وأخبر الأولاد عنك وأمسك بيدك لكن كيف أمسك يدك يا ندى وأنا لا أعرف كيف أنظر في عينيكِ؟ كيف تنظر في عيني امرأة أنت لا تستطيع حمايتها؟ حمايتها من نفسك! أركض أركض أركض أهلا نادر كيف الحال لم نركَ في الحارة من زمن وينسرب الصوت مبتعدا ليلى لم يبق أحد من أهلها ولا نعرف لها عنوانا ورويدا ليلى تزوجت من سنين رويدا مهندس اسمه هشام عبد القادر يعود إلى القلب صوت الكمان لا صوت لا صوت الليل أسود كالجرس طويل كالجرس وأنا ممزق كالدليل أركض أركض أركض if you wanna get out alive ooh run for your life أطير أهيم بل أركض أركض أركض if you wanna get out alive ooh run for your life ويعيد سؤاله هل أنتَ متأكد من طلبك هذا يا نادر؟ فأجيب: نعم نعم أريد أن أنتدب للعراق للمشاركة في تغطية الحرب يقولون ليْلى بالْعِرَاقِ مَريضة ٌفَمَا لَكَ لا تَضْنَى وأنْتَ صَديقُ صديق حين يسألني الأولاد أقول صديق قديم آه صديق قديم قابلني وأنا أحوم عند بيتها القديم وكنتُ أول مرة أعرف اسم زوجها ركضت للسيارة إلى الطريق الزحام الزحام بيب بيب بيبيبيب أفسحوا الطريق وصلت وكان الدليل هناك فوق الرف ينتظر كصديق قديم آه صديق قديمِ يا ليلى! ماذا فعل المرض بكِ يا.. يا.. يا صديقتي؟ لم يفعل المرض بي شيئًا بعُدكَ هو الذي فعل البعد البعد البعد البعد يمزقنا يسحقنا ويمحقنا ويدهسنا ويفرمنا ويأكلنا البعد سرطان البعد البعد أنتِ من ابتعد يا ليلى تسعل يدخل زوجها يضع لي كوبا من الشاي يتنحنح ويغمغم بلا شيء يقف ساكنا ثم يخرج وأقول لليل لا تمر والليل طويل طويل والبعد البعد والصخب هل تسمعين؟ نادر ماذا تقول؟ أقول ما سمعتِ يا ندى أقول الحقيقة الحقيقة الحقيقة التي تحرق الدم يحرق الجرح يحرق ضربت رأسي بالجدار هشمت جبهتي لم أنزل المظاهرات لم يضربني أحد ندى الحقيقة الحقيقة أنا أحب ليلى ومن ليلى؟ ليلى ليلى! قالت إنك ستعرف! ليلى مريضة بمرض مميت سرطان سرطان سرطان this is my last time she said as she faded away الصحراء والليل والنجوم وعواء الذئاب وقمر بعيد بعيد بعيد أركض أركض أركض it’s hard to imagine but one day you will end up like me then she said وسيارات تمرق بسرعة البرق واشتد المطر وقالت ليلى نادر أنا آسفة لا أعرف كيف تراني لكني آسفة نادر أنا... أنا أركض أركض أركض if you wanna get out alive ooh run for your life منذ اليوم الأول لمجيئي هنا في بيتكَ لمحتُ ذلك في عينيكَ يا نادر لمحت الخوف لمحت ذلك الشيء الذي يحيط بك you stole a kiss and stole my heart أركض أركض أركض في داخل خواء كبير أسود أبيض يراقبني يحاصرني وأنا لم أفعل ذلك سوى لأني أحبك made me a fool from the startوأنا أحب ليلى وزوج أختي اللعين يتحرش بي وأنت تعرف وأنت قلت تعالي

أنا قلت تعالي تعالي تعالي سقى الله مرضى بالعراق فإنني على كل مرضى بالعراق شفيق if you wanna get out alive ooh run for your life if you wanna get out alive wooh wooh run fooooooor لماذا يا ليلى؟ عشر سنين مرت أسأل نفسي هذا السؤال الأسئلة سرطان يا ليلى لكني أستطيع شم ذلك من عرق إبطيك حين تلتقي عينانا وأستطيع أن أسمعه في كلمة أحبك التي تقولها مضطرًا على كلماتي المحبة if I were you I'd dare not speak أنا لست غبية لست غبية أنا فقط كنت أخاف تخافين يا ليلى؟ كل هذا العمر ضاع لأنكِ تخافين؟ وكل هذا الجرح لأنكِ تخافين؟ أخاف أن أفقد يا نادر أخاف أن أفقد لماذا لا نحب دون أن نفقد نحن لا يجب أن نحب نحن يجب أن نركض I'd run like hell in hopes of seeing tomorrow أركض أركض أركض أركض والطريق الطريق يافطة تخرج لسانها: بغداد 1230 كم طويل طويل طويل ليلى هِشْ اصمتي فإنْ تَكُ لَيْلَى بالْعِراقِ مَريضَة ً فإني في بحر الحتوف غريق استريحي يا ليلى إني أسامحك الآن فهمت كنت أحسبك تخاف مثلي قلت لنفسي سنحارب مخاوفنا معًا لكنك فقط كنت تملأ بي فراغا تركته فيكَ أخرى أسامحك يا ليلى لن أسامحك يا ليلى أسامحك يا ليلى وليلى تستكين تخدل رأسها على المخدة وتغمض عينيها برقة وأرى روحها طيفا أزرق يخرج من فمها المفتوح ويركض عبر النافذة لا لا لا لن تموتي وقد وجدتك لن تموتي أخرج أهرول على السلم أنزل للشارع الطيف الطيف هناك أزرق أزرق أركض خلفه سأمسكه وأعيده إليكِ يا ليلى أنا أسامحك يا ليلى أسامحك يا ليلى لن أسامحك أبدًا يا نادر think you can just break my heart and leave me

لن أسامحك لن أسامحك الطيف الطيف well, you better run أركض أركض أركض أزرق أزرق أزرق انتظر يا طيف ليلى انتظر لا تذهب الطريق الطريق زحام زحام زحام الطريق الطريق طويل طويل توقف عن مراقبتي أهرب أهرب أهرب وأركض فيه في الثقب الأسود الذي يبتلعني ويبتلع حياتي أركض أركض على جنب الطريق أبراج الضغط العالي ترقص على وقع أقدامي ترقص ترقص ترقص فأركض أركض أركض أركض أركض ألهث ألهث ألهث ألهث أمشي أمشي أمشي أمشي ترقص ترقص ترقص أركض أركض أركض أركض أركض ألهث ألهث ألهث أعرق أعرق أعرق أمشي أمشي أمشي أمشي أركض ألهث أمشي أركض أركض أركض أعرق ألهث أركض أركض ألهث أمشي أركض أمشي ألهث أمشي أركض شمسٌ قمرٌ قمرٌ شمسٌ شمسٌ قمرٌ ليلٌ ليلٌ ليلٌ ليلٌ ليلٌ شمسٌ شمسٌ ليلٌ ضغطٌ ضغطٌ ضغطٌ أركض أركض أركض أركض شمسٌ ليلٌ أركض أركض أركض ليلٌ ليلٌ جرسٌ جرسٌ جرسٌ جرسٌ أسمعه: رد يا حيوان فأركض أركض أركض أركض oh man on the run يا أخ إلى أين أنت ذاهب؟ أهِيم بأقْطارِ البلادِ وعَرْضِهَا ومالي إلى ليلى الغداة طريق تريد توصيلة؟ أركض أركض أركض ألهث ألهث أسقط أسقط ترقص ترقص ترقص أركض أركض أركض ليلى ليلى ليلى أزرق أزرق أزرق ليلى أزرق أركض أركض ألهث ليلٌ جرسٌ جرسٌ صوتها هي ليلى صوتها: من؟ وصوته: واحد حيوان يعاكس! الدليل الدليل خمسة خمسة خمسة خمسة هشام عبد

القادر ألو ألو أركض أركض أركض فيه وحوله ومنه وإليه أهرب أهرب أركض أركض أركض لكنه يأسرني يحاوطني إنه خوفي وَهمِي سرطان طيف أزرق خوفي وَهمِي سرطان طيف أزرق أركض أركض ألهث أمشي فووو فووو سيارات تمرق تمرق تمرق وأنا أركض أركض أركض طريق طويل طويل طويل بيب بيب هل تعطلت سيارتك؟ إلى أين أنت ذاهب؟ وَقد صِرْتُ مَجْنُونًا مِنَ الْحُبِّ هَائِمًا كأَنِّيَ عانٍ في القُيُودِ وَثِيقُ الطريق خطر جدًّا ليلًا يا رجل! وأنا أركض أركض أركض أعرق أعرق أعرق أعرق ألهث ألهث ألهث ندى ندى قلت الحقيقة ونزلت إلى بيت ليلى القديم أبكي أبكي أبكي أريد ليلى أين أنتِ ليلى صديق قديم قابلني هشام عبد القادر الدليل الدليل ليلى ليلى والسرطان وهمٌ عقلي يتوهم أحاديث وأحداث وأغوص فيها وأصدقها فأملأها وتملأني ولا أصير أميز الحقيقة من الوهم أين الحقيقة وأين الوهم؟ كل شيء وهمٌ الحياة وهمٌ كله وهمٌ وهمٌ وهمٌ وهمٌ خوفٌ خوفٌ خوفٌ ومراهقٌ مهزوم داخلي يريد أن يصير بطلا رأسي رأسي رأسي دمٌ دمٌ دمٌ أضرب رأسي في الحائط هل رأيتِ النظرة في عينيكِ يا ندى؟ كنتِ أراني في عينيكِ بطلا! If I stay it won’t be long till I’m burning in the inside أركض if I go I can only hope that I’ll make it to the other side أركض فووو فووو تمرق تمرق ليلٌ ليلٌ ليلٌ ليلى ليلى ألهث ألهث أمشي أمشي أمشي أمشي أمشي أمشي أمشي والأبراج ترقص ترقص شمسٌ ليلٌ ليلٌ شمسٌ قيظٌ بردٌ بردٌ قيظٌ أسقط ويافطة تصرخ: بغداد.

- هل تعرف ما هي أسوأ لحظة ممكنة؟

- نعم أعرفها فلا تقلها!

- أسوأ لحظة ممكنة حين يجافيك النوم والقلم معًا!

- وكأن قلمك ذو قيمة!

- تحاول بشتى الطرق أن تكتب كي تنتهي من كل هذا الصخب لكنك تفشل!

- لأنك أصلًا فاشل يا سيد ميسرة!

- تستجدي الحروف لكنها تأبى.. كأنها لفظتك!

- لأنك فاشل.. كاتب.. فاشل.. إن كنت كاتبا أصلًا!

- الأسوأ أن يمر الليل وأنتَ معي!

- هذا شرف لا يناله كثيرون... يا فاشل!

- أنا لستُ فاشلًا.. أنا فقط أصابني حالة تصيب كل الكتاب!

- حالة ماذا؟ هل ستدعي الجنون؟

- لا إنها فقط تسمى Writer’s Block. هل تعرفها؟

- قلتَ لي! هكذا إذًا!

- نعم!

- ولماذا أصابتك؟

- هي تصيب كل الكتاب عموما! حتى الكتاب الكبار!

- هل لا زلت تقارن نفسك بالكتاب الكبار؟

- .....

- إبراهيم نصر الله بتاعك هذا إلى متى ستظل تقلده؟

- أنا لا أقلد أحدًا!

- حقًّا؟

- نعم!

- وأحمد الصافي؟

- ماله؟

- والجنرال الذي لا ينسى كلابه؟

- هل قرأتها؟

- هيء هيء.. أنتَ سطحي جدًّا!

- ماذا تقصد؟

- أنا أقرأ كل ما تقرأه!

- وهل أعجبتك؟

- لا! الجنرال لم يعجبني!

- لماذا؟

- وما شأنك؟

- أحب أن أعرف، رأي مارشال في جنرال!

- ولماذا تحب أن تعرف؟

- لا تقودنا لحديث لماذا السخيف هذا ثانية!

- رغم أني اعتدت القيادة لكني لن أقودك له.

- شكرا..

- هل رأيت كم أنا طيب؟

- فعلًا..

ً

- الكتابة ليست فعلًا صعبًا بالمناسبة!

- حقًّا؟

- نعم! لا شيء صعب على المارشال.. وإن كان جنرال نصر الله كتب مقالًا فأنا أعلى منه رتبةً وأستطيع أن أكتب!

- المارشال الكاتب.. فكرة جيدة!

- ها! أرأيت! تقلد! فاشل!

- لا! أنا لا أقلد أحدًا!

- فاشل!

- أنا أريد أن أقرأ.

- وماذا ستقرأ؟

- لا يهم، أقرأ أي شيء، القراءة وقود الكتابة!

- ألا تحفظ غير هذه الكلمة؟ عموما كلم صديقك عمرو!

- لماذا؟

- أليس هو من يجد الكتب الجيدة دائمًا ويخبرك بها لأنك فاشل؟

- لا! عمرو محظوظ الكتب هي التي تجده!

- تعلق فشلك على الحظ؟

- لستُ فاشلا!

- لماذا لا تكون على الأقل مثل طاهر الصديق؟

- لا تقل هذا الاسم أمامي!

- لماذا هل يضايقك كاتب ناجح لأنه يذكرك بفشلك؟

- هذا شخص باع القضية!

- لا تقسو عليه، الأيام التي قضاها في الحبس الانفرادي تجعل المرء يغير رأيه بسرعة!

- هل تهددني؟

- لا أنا فقط أعرض عليكَ صفقة، ألا تريد أن تنال جائزة ال.....

- اخرس! اخرس!

- ماذا؟ هل آلمك أنك تريد الفوز بها لهذا الحد؟ صاحبك طاهر فاز بها لأننا أوصينا بذلك، ألا تعرف؟

- .....

- كاتب ذكي، عرف كيف يجعل موهبته في خدمة الحقيقة! ليس مثلكَ! يحلم بأحلام المجاذيب! اسمع، أنا لا أريد منكَ أن تنبح لي كأحمد الصافي، لكن فقط تخلَّ عن الحماقات التي برأسك!

- وإن كانت حماقات فلماذا تخشاها؟

- أنا لا أخشى شيئًا، أنا إله طيب، وكنت أتمنى أن تدخل جنتي بدلا من ناري، أردت أن أجعلك من كهنتي المخلصين! أتعرف ساعتها سيأتيك فيض الإلهام وستكتب بغزارة!

- لا! أنا سأكسر قلمي إن بعت مبادئي!

- هيء هيء، لا تتصنع البطولة هكذا، أمامي أنا بالذات!

- اسمع أنتَ، الكاتب لا يُهزم إلا من داخله وأنتَ لن تستطيع أن تهزمني! هل تفهم؟

- وأنا قبلتُ التحدي!

* : إشارة إلى اسم رواية "الحلم والأوباش" لمويان، وهي إشارة للعنوان فقط.

** - يعجبني ذلك! يعجبني جدًّا!

- .....

*** : عبارة مشهورة على لسان رئيس الحكومة الألمانية الأسبق فيلي برانت عن إعادة الاتحاد بين ألمانيا الشرقية والغربية.

**** : صوت البط لا صدى له.

***** : - ليس طاهرًا! هيء هيء!

- على الأقل ليس مثلك!

القسم الثاني الكراهية

"إن قال أحدٌ إني أحب الله ويبغض أخاه فهو كاذب. لأن من لا يحب أخاه الذي أبصره، كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره." (1 يوحنا 20:4)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"إن العالم لا يواجه صدام حضارات ولكن يشهد صراعًا بين الأمم لتطبيق قيم مشتركة تقوم على الحد من نفوذ الدولة وسلطتها واحترام النساء والملكية الخاصة وحرية التعبير والعدالة للجميع والتسامح الديني وعلى الولايات المتحدة أن تساعد الدول الأخرى على تحقيق هذه القيم."

جورج دبليو بوش الرئيس الأمريكي الثالث والأربعون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طك

طك

طك

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"من يريد أن يأخذ الحكم من أيدينا؛ فسنسلمه العراق أرضا بدون ناس."

صدام حسين

من خطاب توليه الرئاسة 1979.

.....

١

أزيز الصواريخ يتبعه ضجة الرصاصات ككؤوسٍ تصطلي، كمردة هربت من الجحيم لتصب جم غضبها صراخا عاتيا مريرا على أمهات فتثكلهن، وزوجات فترملهن، وأطفال فتيتمهم، ورجال فتعجزهم. صخب في كل مكان وصراخ، والكل يعدو يركض يهرب من كل مكان، وأراهم بعيني ينبثقون من الظلمة، أحتضن سلاحي أكثر، أتشبث به أكثر، وأراهم يتدافعون وسط الدخان والعويل والعواء والطائرات الإف 16 والسي 130 التي تطلق مردتها نحونا فنرد بالتكبير. هدير التكبير يخترق كل شيء لكن حنجرتي جافة ولا أستطيع أن أكبر. أظل فاتحا فمي كأني أكبر، وأشعر بدفءٍ هائل يخرج من جسدي عبر فمي، فأود لو أغلقه لكني لا أستطيع. هل كان الجو باردًا مثل اليوم؟ لا أذكر، لكن بالتأكيد كان كل شيء ثابت مثل هذه اللحظة بالذات. عندما كانوا يقذفوننا بقنابل عنقودية وحشية يطلقونها من عقالها من أقفاصها من مؤخرات ومن أعناق ومن أفواه وبطون طائراتهم، يطلقونها من كل مكان، فتنهمر علينا كألف شمس، وعندما تصل إلى بيوتنا تتمزق فتنطلق منها وحوش صغيرة تقتل وتسفك وتذبح وتدمر وتحرق، يطلقون القتلة علينا من السماء. الله أكبر الله أكبر سنمزقهم بصياحنا، وأتشبث بسلاحي أكثر، أشم رصاصاته وأنتظر.

.....

"أعطونا كلاشينكوف فقط لا غير، لم يعطونا أسلحة دفاع جوي، وقلنا لهم هل يمكن أن تعطونا قنابل تطلقها الصواريخ؟ وقبل أسبوعين فقط من سقوط بغداد كانت القاعدة الجوية قد فقدت اتصالها مع الرئاسة التي لا تبعد عنها أكثر من عدة أميال."

الجنرال كريم سعدون

قائد سلاح الجو العراقي.

"لم تكن لدينا أوامر ظللنا باقين في القاعدة، وفكرت أننا فقدنا بلادنا، لماذا لا يصدرون لنا الأوامر؟ لم يكن قادة القاعدة يعرفون."

العقيد ديار عبد الرازق

قائد جناح بجنوب بغداد.

.....

- قال يونس بن عبد الأعلى المصري: قال لي الشافعي: يا أبا موسى دخلت بغداد؟ قلتُ: لا. قال: ما رأيتَ الدنيا! إي والله.. الرصافة والكرادة والكرخ والأعظمية والمنصور والصالحية والفردوس وأربعتاش رمضان والجمهورية كلها تمر أمام عيني الآن. قال علي حزينا.

- أثناء الموت وتتذكر بغداد وأحياءها وشوارعها؟ قلتُ.

تأملني قليلًا على وهج الصواريخ الكاشفة التي كانت تتنزل علينا من السماء، وكنا مستترين خلف بيتٍ مهدم نحمل أسلحتنا وننتظر. لم أرَ عينيه سوى لومضةٍ فبدا تداخل أخضر الصواريخ مع سواد الليل وأحمر النيران الملتهبة في كل مكان والبركان المتفجر فينا يعكسون جميعًا لونًا مجنونًا لعينيه. وتذكرت أني لم أنتبه قط للون عينيه.

قال وهو يشيح بوجهه عني: وهل أتيتُ إلى هنا إلا لأجل بغداد؟

... ...

الناس ثابتون كأصنام صدام حسين القديمة، أتأملهم بطرف عيني، وكأنهم يلاعبونني لعبة قديمة، كنا نلعبها قديما في الفلوجة ونحن صبية، يُغمي الواحد منا عينيه ويسند وجهه على الحائط، ويبدأ في العد من واحد إلى عشرة، غالبا كنا نسرق في العد، ونرفع رؤوسنا بسرعة لنرى أين يختبئ الآخرون ونمسكهم، لكن حين كبرنا، وحين حدث ذلك كله، حين أمسكونا وأوقفونا ووضعوا وجوهنا إلى الحائط وطلبوا منا العد من واحد إلى عشرة، كانوا هم الذين يسرقون في العد ويضربون النار على رؤوسنا قبل أن نصل إلى عشرة.

... ...

"إن من حق الولايات المتحدة أن تسدد ضرباتها الوقائية إلى أي أمة تعتقد أنها تمثل خطرا عليها.. إن أمريكا تملك قوة عسكرية غير خاضعة لقانون المنافسة، وترغب في الاحتفاظ بهذه القوة، وهذا يجعل سباقات التسلح التي عرفتها حقب ماضية غير واردة."

من خطاب ألقاه جورج بوش في يونيو 2002 أمام حشدٍ من العسكريين الأمريكيين في كلية ويست بوينت.

"إن بلدانا مثل العراق أخطر من التعامل معها بسياسة الاحتواء فقط.. وإن الردع هو الرد العنيف والجبار ضد الأمم لا يعني شيئًا بالنسبة لشبكات ليست لديها أمم أو مواطنون تدافع عنهم، أما الاحتواء فإنه غير ممكن حينما يملك الطغاة من الحكام أسلحة الدمار الشامل ويستطيعون إطلاقها بواسطة الصواريخ أو تسليمها سرا إلى المنظمات الإرهابية الحليفة لهم."

... ...

ثم قمت واقفا ملهوفا، يشدني علي ناحية الأرض ويقول: انخفض انخفض بالله. لكني أدفع يده وأنا أرفع الآلي الذي أحمله وأطلق بغزارةٍ وقد وضعته على الوضع الأوتوماتك. يصرخ: ستكشفنا، ستكشفنا. أصرخ بالمثل: ألم تجيء لأجل بغداد؟ قم ودافع عن بغداد. فيرد بصراخٍ أعلى مجابها أصوات المدفعية الثقيلة والرصاصات المعدنية التي تصطدم بالعواميد فترن في الأفق، ويظل رنينها عالقا في الهواء يحمله الصدى مع صرخات المجروحين وأرواح الشهداء: أدافع عن بغداد وأنا واقف أضرب في كل مكان كالمجانين؟

... ...

خليل، يناديني شيخي حفظه الله، رأيت لك رؤيا وعقدنا اللواء، ستصنع أمرًا جللا، أبدل النقطة تحت الحاء فتصير جليل! وأقف هنا، أتأملهم في لحظتنا - معًا - الأخيرة، لحظتنا الجليلة، فيبدون لي كالتماثيل، وتمر عليّ كل الذكريات كومضات سريعة، لا كفيلم متسلسل كما تخيلت أنها ستمر، الذكريات تأتي بلا قواعد محددة، والزمن يثبت فجأة كأنه حلم طويل لكنه في الحقيقة لا يلبث غير ثوانٍ معدودة.

... ...

الزغاريد تملأ ساحة البيت، وأبي الذي حارب، أبي الذي حمل جثث رفاقه في إيران ثم الكويت، أبي المهذب الذي ربانا على المثالية في القول والفعل والعمل. أبي يومها كان يحاول أن يكون سعيدا. وكنت أنا أحاول أن أكون سعيدا، وأمي كانت تزغرد، أمي التي كانت مقهورة على أخيها، الذي راح من سنين في الاثنين وتسعين حين أعدم رجال صدام تسعين شابا منا في ليلةٍ واحدة. أمي كانت تحاول أن تفرح، وعروسي وحدها في خدرها ونقابها الأبيض الذي يخفي تحته شبقا ومودة ورحمة، كانت تحاول أن تكون سعيدة. وكانت هناك الزغاريد، وكان هناك شيوخ ورجال العشائر، الجبور والبوعيسى وشمر وزوبع والدليم والجميلات، ورجال من كل ناحية يؤدون الواجب ويحاولون أن يكونوا سعداء.

... ...

البروفيسور وهيب الكبيسي أستاذ علم النفس في جامعة بغداد يقول في دراسة نشرها في 2003 إن 50 % من العراقيين يعانون من الاكتئاب.

... ...

وأبي يرحل عن الفلوجة، ويذهب لبغداد، يقول تجنبا للفضيحة، وكأننا لم نكن كلنا في بغداد، نبيع كل شيء كي نعيش. وأراه وهو واقف محني الظهر، يبيع قنباز وسيف جدي الذي حارب به الإنجليز، وهو يميل على كل واحد يمر في السوق في بغداد ويقول هامسا: هل تشتري سيفا حرر بلادنا من الإنجليز؟ اشتري سيفا اشتري سيفا. أرمقه من بعيد وأنا واقف أبيع فستان جدتي، وأهمس للمارين: فستان أثري، فستان أثري يقولون إنه مسروق من قصر الأميرة ديانا، وجدناه مع مخلفات الحرب. اشتري سيفا اشتري سيفا. أو اشتري رجلا. أعمل في أي شيء وفي كل شيء، أبيع أي شيء، وفي لحظةٍ ما فارقة، حين مات أبي، كنت عائدا من السوق فوجدت رجلا يميل على أذني يهمس لي: هل تشتري شيئًا يطيب معه السهر وينعم مع الغنج؟ ويضع في يدي سروالا داخليا نسائيا، رفعت عيني لأرى الرجل في غبشة المغرب، وعرفت يومها أن أبي مات حين لم يعرفني فباعني سروال أمي.

... ...

"إن الممارسات الغربية بصدد العقوبات المفروضة على العراق؛ عنصرية غربية توجه ضد هذه الأمة، وتمهد لصعود قوة مدمرة جديدة، في ضوء حجم الإذلال الذي يمارس على العراقيين أسوة بما حدث في ألمانيا قبل صعود الرايخ الثالث، إن هذه

العقوبات تدمر الأساس الإنساني وحقوق الإنسان الأساسية التي أقيم عليها ميثاق الأمم المتحدة."

دينيس هاليداي

منسق برنامج النفط مقابل الغذاء، في نقابة الصحفيين في مصر محاضرا في الخامس من يوليو عام 2000 مبينا أبعاد الحصار على العراق، الذي استمر عشر سنوات منذ حرب الخليج الثانية، ومبينا ما دفعه للاستقالة من منصبه عام 1998.

... ...

طك

طك

طك

... ...

- هل تسمع؟ سأل علي.

- ماذا أسمع؟ سألتُ.

أشار لأذنه وهو يصيخ السمع. الليل هادئ جدًّا، والصمت، الصمت الطويل الذي استمر تسعين دقيقة كاملة، كنت أحتضن سلاحي وأشعر معه بدفءٍ يغزوني كأنه ابني الذي لم أحمله إلا مرة. تلك القطعة الغضة الطرية الحمراء التي سقطت من قذفي في رحم زوجتي. حين ولد بكى، قالوا يبكي العراق، وقلت يبكي جدوده، يبكي سيف جدي وفستان جدتي وسروال أمي. والليل والصمت كانا يشبهان الليل والصمت الآن، والناس المتصنمة الواقفة تلاعبني لعبة الأصنام، وأنا أتأملهم كما تأملت علي ليلتها وهو يدمدم لنفسه: هذا الصوت! ثم يعود فينام على ظهره واضعا سلاحه تحت رأسه ويتأمل نجوم السماء، التي كشفت حجابها قليلًا خجلى من بين الدخان والعويل فأقول له: علي! فيجيب: نعم! أقول له: أنا لا أسمع شيئًا! فيصمت.

... ...

"نتيجة للجهود الحثيثة التي بذلها الحزب، وبعد الاتصالات والمفاوضات التي جرت وتجري مع الجهات الأمريكية المعنية، ولغاية صباح اليوم تم الاتفاق على إيقاف العمليات العسكرية المتبادلة في الفلوجة وما حولها اعتبارا من الثانية عشرة ولمدة 24 ساعة."

بيان الحزب الإسلامي.

"لا يوجد اتفاق على وقف إطلاق النار... لا اتفاق بين المتمردين وقوات التحالف."

مارك كيميت

نائب قائد القوات الأمريكية.

"إن تعليق العمليات العسكرية انتهى، ولم يستغرق سوى 90 دقيقة"

الكولونيل برينان بايرن

قائد الفرقة الأولى لقوات المارينز التي كانت تقود الحصار والهجوم على الفلوجة.

... ...

"العمليات تجري في الفلوجة على ما يرام". "التقيت المسئول عن العمليات الميدانية أمس الجنرال كايسي وقال: إن الأمور تجري على ما يرام في الفلوجة وأنهم يبذلون جهودا جيدة لبسط الأمن في البلاد."

جورج بوش

في الأربعاء 10 نوفمبر 2004.

... ...

"حينما وصل الأمريكيون إلى بغداد واقتحموا المطار بدأ الجنود في الهرب، وقد هرب نصف رجالي أما النصف الثاني فقد اختبأ في مبانٍ قريبة من المطار" "هرب كثيرون من اللواءات، وكان ذلك أمرًا مزعجا، الحرس الجمهوري لم يكن راغبا في القتال" "لم نكن مقتنعين، ولذلك لم نقاتل، وذهب الجميع إلى منازلهم".

العميد حسن القباني

قائد فرقة دبابات في الحرس الجمهوري.

... ...

طك

طك

طك

... ...

قال فاضل السوري: قال لي: ليتنا سيفنا على الحدود.

قلتُ: ماذا كان يقصد؟

ابتسم ابتسامة باهتة تبخرت مع دخان الشاي الدافئ وهو يتناول من علي الشاي الذي أحضره لنا رجل طيب من بيت قريب من مسجد عبد العزيز السامرائي. كنا متمترسين حول المسجد بمسافة نصف كيلو تدور ناحية الشرق حيث كنا القوة الخلفية المتمركزة وتصلنا أصوات الاشتباكات القريبة، وأصوات القذائف تنهمر كأصوات محركات نفاثة تتحشرج، فتصفر آذاننا ونصمت حتى يروح الصفير ثم نعاود الحديث.

أكمل فاضل بصوتٍ حزين: يقصد إنهم عملوا save وبالتالي كانوا ساعتها سيعملون load فيرجعون إلى النقطة التي بدأوا منها عند الحدود، كأنهم يلعبون لعبة أطفال حاسوبية يا خليل!

لم أعلق ورشفت من الشاي ببطء، وأنا أتذكر طفلي الوليد الذي يبكي في حضن أمه في بيتنا البعيد في المنطقة الغربية وأتساءل هل حين أعود سأجده مات مع القصف؟ أخاف أن أذهب إلى هناك فأكتشف أن كل شيء راح، البيت، الدكان، الزوجة، الطفل، الأب، الأم، الأخت، وشعرت أن كل شيء له قيمة عظيمة فجأة، أو ربما لم يكن له أي قيمة، المهم أني لا أريد أن أعود فأجد كل ذلك قد تبخر، قلت موجها كلامي للا أحد: أريد أن أستشهد لا أريد أن أعود.

قال علي: ومن لا يريد الشهادة؟

قلت: لا أنت لا تفهم، نحن بالفعل موتى، رباني أبي على المثالية والشرف والضمير فكبرتُ لأجد عالما مليئا بالزيف والخداع والعهر فمتُ وأموت كل يوم! أنا لن أستطيع أن أزرع في ابني هذا الزيف، وربما لن أستطيع أن أخدعه فأزرع فيه الشرف! بل إني حين أعود لطفلي وزوجتي سأجدهم موتى، فلماذا أعود؟ أريد أن أنهي كل ذلك، لدي فرصة لأموت شهيدًا وأدخل الجنة وأتزوج الحور العين فلماذا لا أفعل؟ هل تفهم ما أعنيه؟

قال بأسى: نعم! تحسبه طريقًا سهلًا للجنة! رصاصة وتحلق وسط الحور العين على أنهار اللبن!

قلت وأنا أنتشي من صورته: نعم نعم! هكذا بالضبط! موتٌ يرضي الله!

قال: وحينها؟

قلت: ماذا؟

قال فاضل ضاحكا: يقصد ساعتها لن يكون هناك load!

ضحكت بلا معنى وقلت: لن أحتاجه! لماذا أعود إلى هنا؟ ثم أنتَ لم تكمل قصة صاحبك.

رفع سلاحه وأسند ذقنه على الدبشك وغرس السونكي في الأرض وهو يقول: في معركة المطار تم إغلاق المطار بماء مخلوط بمواد لا علم لمن أخبرني بها. لكنها لم تكن ماء عادية. ثم في هذا المستنقع تم كهربة هذه المياه بوجود آلاف المقاتلين المدافعين عن بغداد فماتوا من فورهم في أرض المطار، التي هي أرض منخفضة ممكن إغراقها بالماء إلى فوق الركب دون أن تتسرب المياه إلى الخارج. فأما المقاتلون المحتشدون في المطار فمات أغلبهم وهم ألوف لا يُعرف حتى عددهم الدقيق في ظرف دقائق أما الباقون المنتشرون في باقي المطار فانسحبوا في اتجاه بغداد تحت القصف العنيف.

وسمعنا صوت القذائف كأنه الرعد، وألوانها الزرقاء تتخطفنا، ودوي الاشتباكات يصطخب أكثر، ورأيناهم في ثيابهم المنزلية يعدون هاربين يصرخون، أطفال

ونساء وشيوخ وعجائز ورجال أثقلهم الجبن والجزع والعجز، أشرنا لهم أن يتوجهوا إلى مسجد عبد العزيز السامرائي القريب، ورحنا نركض أنا ومجموعتي، محاولين تأمينهم ضد مجموعات المارينز والبلاك ووتر التي لا نعرف من أين جاءت، أدخلناهم بسرعة إلى المسجد، وكان صراخ النساء يثير في أنفسنا غضبا شديدا، ومرت زوجتي أمام عيوني وهي نائمة في سريرنا في ليلتنا الأولى، وأنا أنزع نقابها الأبيض وألتقم شفتيها لأول مرة، وتنهيدة دافئة تخرج من فمها على خدي، وأطلقت الرصاص.. رصاص رصاص رصاص وقذائف من كل مكان. صُمت أذني ومزق عقلي صوت الصفير. كل ما كان يهمني: لن يدخلوا المسجد، أصرخ: لن تدخلوا المسجد، والتكبير يعلو من المسجد مؤذنا لصلاة لا أعرف إن كانت العشاء أم الفجر، ثم تراجعوا، أخذنا نلوح بسلاحنا فرحين مكبرين مع الأذان، وأشار قائد المجموعة أن نعود إلى مواقعنا السابقة تحسبا لأي هجوم جديد آخر، سألناه: ومن يحمي هؤلاء؟ فأشار للسماء.

... ...

"يتضرعون ويبكون، لكن لا أحد يجيب. الحروب ستظل في كل مكان دون أن يستطيع أحد إيقافها أو إشعالها سوى مشيئة الجنرالات، الرؤوس ستجز كل يوم كالأناناس الكبير، اليتامى سيتسولون إلى الأبد صغارا وحفاة ومشعثين على عتبات بنايات البنوك الجميلة والبورصات ذات الأبواب المصفدة بالدم، العجزة والمرضى سيموتون تباعا على الأسرة، النسوة سيبكون إلى الأبد، والرجال الذين يقولون: لا، سيقتلون في وضح النهار، أمام السماء الصافية، على مرأى من الله. لن ينقذ الله أحدًا كما نرى، لن يمسح الدموع الكبيرة التي في عيوننا، لن يساعد بزورق صغير في الفيضان. لقد تخلى عن العالم."

الشاعر المغربي محمد بنميلود.

... ...

"إن طائرة أمريكية من طراز كوبرا قامت بقصف مسجد عبد العزيز السامرائي في مدينة الفلوجة للقضاء على المتحصنين بداخله."

"إن أكثر من أربعين من الأشرار قتلوا داخل المسجد."

الكولونيل برينان بايرن

"بحسب المعلومات الأولية التي تلقيناها أصيب خمسة من المارينز بإطلاق نار مصدره المسجد مما أدى إلى قصفه بالطائرات."

بروس فريم

الكابتن في مشاة البحرية.

... ...

"إن العالم لا يواجه صدام حضارات ولكن يشهد صراعا بين الأمم لتطبيق قيم مشتركة تقوم على..... العدالة للجميع والتسامح الديني."

... ...

طك

طك

طك

... ...

"إن ما يجري الآن في بغداد في أحياء الأعظمية والكاظمية ومدينة الثورة والشعلة والنجف الأشرف والفلوجة وفي مدن عراقية أخرى من استهداف المدنيين من أبناء وطننا وحصارهم بالدبابات، وقذفهم بحمم الطائرات لهو وصمة عار على قوات التحالف."

بيان السادس من إبريل لهيئة علماء المسلمين.

... ...

"لقد أصدرت أوامري للقادة العسكريين بعمل ما أمكن لاستخدام القوة الحاسمة إذا تطلب الأمر للحفاظ على النظام ولحماية قواتنا."

"إن عواقب الفشل في العراق سيكون من الصعب تخيلها، ففي حال حدوث ذلك فإن جميع أعداء أمريكا في العالم سيفرحون معلنين ضعفنا وتراجعنا وسيستخدمون هذا الانتصار لتجنيد جيل جديد من القتلة في المنطقة."

جورج بوش

في مؤتمر صحفي في الرابع عشر من إبريل عام 2004.

... ...

أعلنت هيئة علماء المسلمين مقاطعتها للأمم المتحدة ما لم تندد بما تقوم به القوات الأمريكية في مدن العراق.

... ...

"نحن أهل عشائر وأهل تقاليد كنا في عهد صدام حسين رغم كل طغيانه وجبروته لا يلقي القبض على أحدنا من قبل مخابراته إلا ويأتي مع قوات المخابرات مختار المنطقة وبعض أفراد الشرطة من المدينة ويستأذنون بداية قبل الدخول، فنقوم بترتيب البيت وإيقاظ الأطفال أو تجميعهم في غرفة واحدة ثم تقوم النساء بتغطية أنفسهن والبقاء مع الأطفال ثم يقومون بالتفتيش دون أن يمسوا طفلا أو امرأة أما الآن فإننا نجد الجنود الأمريكيين بأسلحتهم على رؤوسنا ونحن في غرف نومنا بين نسائنا، ثم يأخذوننا بعد أن يروعوا أبناءنا وأطفالنا والناس شاهدوا هذا المنظر يتكرر على شاشات التلفزة بالليل والنهار، يأخذوننا بعد ذلك فيضعون أكياسا في

رؤوسنا ويهينوننا ونحن شيوخ عشائر أمام الصغير والكبير والنساء والأطفال كما أنهم يعتقلون نساءنا في بعض الأحيان فلا نستطيع بعد ذلك أن نرفع رؤوسنا في وجه أحد وسبق أن دخلوا بيوت المدينة بيتا بيتا وفتشوها وانتهكوا حرماتها ولم يجدوا دليلا ضد أحد كما أن كثيرا من الأسر قد تضررت واعتقل المئات من الناس وقتل كثيرون وبالتالي فلم يعد هناك بيت ليس له ثأر من نوع ما مع الأمريكيين إنهم يصنعون الكراهية في نفوس الكبير والصغير من أهل العراق منذ عام كامل فما الذي تتوقعه من عامة الناس؟"

شهادة أحد شيوخ عشائر الفلوجة.

... ...

" إن العالم لا يواجه صدام حضارات ولكن يشهد صراعا بين الأمم لتطبيق قيم مشتركة تقوم على.... احترام النساء والملكية الخاصة."

... ...

"في الحرب تكون أيام مثل هذه ومن الضروري الاعتراف بذلك."

دونالد رامیسفیلد

وزير الدفاع الأمريكي

... ...

طك

طك

طك

طك

طك

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢

- سقط خمسة وعشرون مليون منشورًا على بغداد من الطائرات: "أيها القادة والجنود العراقيون.. أظهروا أنكم لم تقاوموا الائتلاف." "تعليمات الاستسلام رفع الراية البيضاء... وأن يكون بينك وبين سلاحك مالا يقل عن متر وهو ملقى على الأرض أمام التحالف ولن تصاب بأي أذى." "الدعوة بعدم استخدام السلاح حتى يعود كل منكم إلى بيته وأسرته سالمًا." ماذا يظنون؟ سنترك العراق لهم؟

قال علي.

... ...

أكدت صحيفة "سان فرانسسكو كرونيكل" الأمريكية في عددها الصادر في 25 مايو 2003 هذه المعلومات وأكدت في تقريرها الذي نقلته صحيفة "الحياة" التي تصدر في لندن في 26 مايو 2003 أن اثني عشر عسكريا عراقيا ممن لم يسلموا أنفسهم للقوات الأمريكية قد أدلوا بأحاديث للصحيفة قالوا فيها: "إن أوامر قصي الذي عينه والده قائدا أعلى للقوات المسلحة بلا أي كفاءات عسكرية دفعت بالآلاف من الجنود خصوصا فرقة حمورابي التابعة للحرس الجمهوري، إلى مناطق مكشوفة خارج بغداد ليقعوا فريسة للضربات الجوية الأمريكية التي قضت عليهم وأشاروا إلى أن هذه الأوامر التي يعتقد أنها حظيت بموافقة صدام حسين نفسه أربكت القادة العسكريين وجعلت العاصمة بغداد مكشوفة وبلا قوات دفاع لتفتح الطريق أمام القوات الأمريكية."

"لم نكن نستقر في موقع ونتمترس فيه إلا وتأتينا الأوامر بالتحرك لموقع آخر مما جعلنا هدفا سهلًا للقوات الأمريكية وأذكر أني في لحظة واحدة فقدت أربعة وعشرين دبابة من أفضل الدبابات عندي مع أطقمها بسبب إصرار القائد الأعلى مني على أن أتحرك بقواتي وأجعلها هدفا مكشوفا للقوات الأمريكية، فوقفت أبكي مثل الأطفال من هول ما رأيت، كما أن كل اتصالاتنا انقطعت مع قيادتنا ولم نكن نعرف أي هدف أو إلى مكان نتجه."

... ...

وكنت أغني، أغني بصوت أبي الخشن المحبب، بصوت أبي النحيل الذي صرخ في أم المعارك وفي القادسية، بصوت أبي الذي يصرخ اشتري سيفا اشتري سيفا. منذ ولدت وأبي يصرخ، لذا حين كان يغني كنت أشعر أن هناك شيئًا جميلا سيحدث، فأذهب إليه وأطلب منه أن يغني، فيغني أغنيته المفضلة، التي كانت في خضم أغانٍ كثيرة انتشرت كحشدٍ إعلامي في أم المعارك. لم تكن هناك أغانٍ هذه المرة وبغداد تصطلي بالنيران والدخان والكراهية والاحتلال، لم يكن هناك أي شيء في التلفزيون كأنه لا احتلال ولا حرب ولا أي شيء، يتحدثون عن إنجازات الرئيس القائد فقط، الحياة تسير بهدوءٍ طبيعي، لدرجة أننا شككنا في الأمر برمته، وقلنا ليس معقولا إذًا أن يضربنا الأمريكان، لم تكن هناك "حيوا أم المعارك" ولا "صار

الحصار سنين وأبطالنا يكسرونه" ولا "يابو القيادة الحكيمة" ولا أوبريت "كوم قرر يا شعب" ولا أوبريت "وحدة العراق" لم يكن هناك شيء. لم يكن سوى صوت أبي يغني بحماس كأنما يغني وسط كتيبته:

يا كاع ترابج كافور عالساتر هلهل شاجور

يا كاع ترابج كافور عالساتر هلهل شاجور

كمزت م السطح بزونه كسرت شباج البيتونة كضوها سباع

إي والله وعونج يا كاع

وعونج عونج يا أم ستوري بأورزدي وزعوا فرفوري وانباع بساع

إي والله وعونج يا كاع

يا كاع ترابج كافور عالساتر هلهل شاجور

يا كاع ترابج كافور عالساتر هلهل شاجور

وتذكرتني طفلا نحيلا أصرخ فيه يا أبي ليست هكذا، فيضحك ويقول: أعرف يا خليل لكنا كنا نحبها هكذا! ثم أتذكر ونحن بعد أطفال، نخطف من بعضنا الحلوى في الماجينة أو القرقيعان في ليالي رمضان. وأتخيل ولدي الصغير هل سيكبر وينحل مثلي ومثل جده؟ هل سأراه يومًا يحمل كيسه ويتجول يتناول الحلوى؟ هل سيطلب مني أن أغني له، فأغني بحماس بصوت أبي، جده، بصوت العراق، يا كاع ترابج كافور عالساتر هلهل شاجور فيصرخ بي: ليست هكذا يا أبي! ويظل يدندن بالأغنية الأصلية كما حفظها من التلفزيون:

يا كاع ترابج كافور عالساتر هلهل شاجور

يا كاع ترابج كافور عالساتر هلهل شاجور

عالساتر كلنا تعنينا رجعنا الرادي لاوينه مكسور ذراع

إي والله وعونج يا كاع

دار العدوان نساويها نكلب أسفلها بعاليها هذوله حنا سباع

إي والله وعونج يا كاع

يا كاع ترابج كافور عالساتر هلهل شاجور

يا كاع ترابج كافور عالساتر هلهل شاجور

لماذا أتذكر هذه الأغنية الآن، وأنا على شفا لحيظات من ال... لا أعرف كيف أسميه. فهو موتٌ لا يشبه الموت. وتخيلت أني حين سأذكر ولدي سأعود، وقلت لنفسي كلما جاء بخاطرك فكر في الجنة، في الحور العين، فيما لم يخطر على بشر، ولكني حين أفكر فيه الآن لا أجد في ذلك حنينا، وتلف مقلتاي فأتأمل الحشود جيدا وأبتسم.

.....

"إن أكثر من عشرة ملايين مواطن عراقي يعانون من سوء التغذية."

تقرير وزارة الصحة العراقية في أكتوبر من 2001.

"أربعة آلاف طفل عراقي يموتون شهريا بسبب سوء التغذية، ومجموع الأطفال الذين ماتوا بسبب الحصار حتى أكتوبر 2001 يزيد عن نصف مليون طفل عراقي."

إحصاءات منظمة اليونيسيف المعنية بالطفولة والتابعة للأمم المتحدة.

.....

إن علينا أن نحمي مقدساتنا وميراثنا الطاهر حتى يخرج إلينا إمام آخر الزمان، إمامنا المهدي المنتظر، سيخرج لنا من سردابه العميق من أسفل مقام الإمام علي الهادي رضي الله عنه، ونجليه الحسن العسكري وجعفر الذكي ليقود جيشنا...

.....

كانت في تلك الجمعة الدامية التي لا أذكر تاريخها فتاة ثابتة مثل كل شيء هنا، كنت أراها في حمرة المغرب والشمس كأن قناص قد أصابها هي الأخرى في رأسها. كانوا يسيرون ببطء هاربين من كل مكان، كأنها هجرة جديدة إلى يثرب. مدنيون في ثياب مهلهلة يأكلهم النحول والجزع ويحاولون حمل كل ما يستطيعون خارجين من المدينة صوب بغداد، ورأيتهم، رأيتهم يسقطون في لحظة واحدة برصاصات القناصة، رأيتهم يسقطون وراء بعضهم طابورا، أطفالا ونساءً ورجالا وشيوخا وعجائز، رأيتهم يسقطون صفوفا فلا يتلفت أحدهم للآخر، كأنه لا يراه، ورأيتها، لفت وجهها تحمل رضيعها وترفعه، وكأنها تراني في مخبئي هذا أحمل سلاحي وأحتضنه وأسند خدي على ماسورته الباردة، رأيتها والرصاصة تخترق رأس الطفل الرضيع التي هي حتما أصغر منها، ويتناثر الدم في كل مكان كأن برتقالة فعصت، وأمه التي جمدت وهي تحمله لأعلى كأنها تقول للقناصة ها هو وها أنا ذا، انطلقت ناحية وجنتها رصاصة حتى كدت أتأمل الشرر الخارج منها وهي تمر في السماء بارقة، وقلت لنفسي: الموت هناك فلماذا لا أذهب؟ قمت واقفا وتركت سلاحي: علي أنا سأذهب هناك. كان يبكي كالمجانين وقال: وماذا يمكنك أن تفعل يا خليل؟ قلت: أموت!

.....

"سندخل الفلوجة ونقيم وجودا فيها، وسنميز العدو عن السكان وسندمره."

الناطق العسكري الأمريكي في بغداد في 4 إبريل.

.....

طك

طك

طك

... ...

إن علينا أن نستعد فإني والله لأرى علامات آخر الزمان، وإننا لنحن الجيش الذي تحدث عنه رسول الله، الذي سيخرج إليه المهدي ليقوده، ألا فاستعدوا فابنوا له منبرًا ليرتقيه في المسجد الأقصى، وآخر لمسجد رسول الله وثالثا للمسجد الأموي بدمشق...

... ...

يوم الأربعاء 31 مارس 2004 تعرضت قافلة صغيرة من سيارات الحراس الأمنيين التابعين لشركة بلاك ووتر (وهم من المرتزقة الذين يعملون لصالح القوات الأمريكية) إلى كمين من المقاومة في مركز الفلوجة، أمطر المقاومون السيارة التي تحمل لوحة أرقام خليجية وجنودًا أمريكان بوابل من طلقات الكلاشينكوف فاحترقت. أخذ رجال البلدة يرقصون فرحا وسحبوا الجثث المحروقة من بين الحطام، وأخذوا يضربونها بالرفوش ثم عُلقت جثتان متفحمتان ومقطعتا الأوصال على الحاجز المعدني للجسر الرئيسي للبلدة فوق النهر.

... ...

طك

طك

طك

... ...

"كيف لا تسمع؟" يصرخ علي.

... ...

"إنه عمل وحشي ولن يمر دون عقاب. لن يمر موتهم دون عقاب. الجبناء الوحوش الذين قاموا بهذا التصرف يمثلون أسوأ ما في المجتمع."

السفير الأمريكي بول بريمر الحاكم المدني للعراق.

"قبل الدخول إلى المدينة سنعطي الفرصة للسكان لتسلمينا المجرمين، وإلا فإننا مستعدون للذهاب إلى هناك للبحث عنهم، وستكون عملياتنا مزيجا من قبضة حديدية وقفاز مخملي، بالنسبة للذين يريدون عراق أفضل نحن هنا لمساعدتهم وبالنسبة للذين اختاروا العنف فإننا سنرد عليهم."

الجنرال مارك كيميت في محطة فوكس نيوز التلفزيونية الأمريكية يوم 2 إبريل 2004.

... ...

- خطأ خطأ خطأ خطأ. كان يصرخ من بين بكائه.

لم أرد. قال وهو يحاول تجفيف مقلتيه: إن كنت ستذهب فلا تمت دون سلاحك على الأقل.

نزلت لأحمل سلاحي، فوضع يده على يدي وقال: خطأ يا خليل خطأ. هم يريدوننا أن نموت، الموت ليس بطولة، البطولة أن نعيش، البطولة أن نعيش ونقاومهم وأن ننتصر، يجب أن نعيش يا خليل.

قلتُ: لا، أنا أفضل الموت، أنت لا تفهم شيئًا، أنت من بغداد وربما كنت من أثرياء الحصار، من يعرف؟

قال: سامحك الله! ثم هل تريد أن تموت لأجل القضية أم لأجل أن تهرب من الدنيا؟

- يا أخي مالك ومالي؟ أنا أريد أن أموت في سبيل الله!

- وهل قال الله أن نذهب هكذا إلى الموت بأقدامنا؟ بماذا ستفيد القضية بموتك؟

يومها أيضًا قال نفس الحديث، ولم أكن أنا مستعدا بعد، قلت له: سأقتلهم، سأنفجر في وجوههم جميعًا فيتناثر دمي كسوط عذاب إلهي!

قال مبتئسا: وكم ستقتل؟ جندي؟ اثنين؟ عشرة؟ مائة؟ إن لم تقتلهم اليوم، يمكنك أن تقتلهم غدًا! يمكنك أن تقتلهم وتظل حيًا! ألم تسمع عن نور الدين الزوبعي؟ عن أبو صالح جوبا؟ هؤلاء الأبطال لماذا لم يفعلوا مثلك؟ لماذا لم يفكروا مثلك؟ لماذا ظلوا يقاتلون ويختفون ويجنون الأمريكان؟ هؤلاء يحملون القضية فعلًا ولا يستسهلون!

ثم امتلأ عزيمة وهو يقول غاضبا: اسمع! أنتَ حين تموت، فواحدٌ آخرٌ منا قد مات! هكذا! سيموت واحدٌ كان يحمل القضية، لأجل لا شيء، وسيبقى غيرك ألفٌ يخونوها ويزرعون في أبنائهم خيانتها، وابنك أنتَ؟ من يزرع فيه القضية؟ لا أقول لكَ لا تقاتل، لكني أصرخ فيكَ لا تمت!

أتذكر ذلك الآن وأضحك.

... ...

وإن علينا البدء في تطهير الأرض، علينا البدء في قتل الكفرة والمرتدين تهيئة لخروج إمامنا المنتظر.

... ...

طك

طك

طك

... ...

قال فاضل السوري: هل تصدق أن الدروز يجاهدون في العراق؟

لم أستغرب. ولم أهتم إن كان صادقا أم كاذبا. سأله علي باهتمام.

أردف فاضل: كان زميلا لنا في كلية الآداب، وكانت زوجته. لكنه اختار أن يغترب في لبنان لينفق على أسرته. وبعد مضي زمن عاد لكنه سريعا ما رتب حقيبته لسفر. سألته زوجته عن الوجهة التي يقصدها، أجاب: لا أعرف، ربما فنزويلا، سأتصل بكم حالما أستقر في مكانٍ ما. وبعد مضي زمن اتصل قائلا إنه في العراق يجاهد ضد الأمريكان. كان يرسل مع وصي ما لأهله مبالغ طائلة من المال حتى اشتروا شقة..

وضحك وهو يقول: يا أخي الوزراء وحدهم وأشباههم عندنا في سوريا هم فقط من يشترون الشقق! ثم إنه اشترى سيارة أيضًا!

ثم اكتسى صوته بكآبة: كان متعبا منهارا طيلة يومه يستهلك من العقاقير المهدئة ما لو رمي في بحر هائج لسكن. وكان حينما يسكن يتكلم باكيا ويقص: حينما كنا في الجهاد، كان المشرفون علينا يجوعونا لأيام طويلة، ثم يأخذوننا إلى قريةٍ ما، حي ما، يخبروننا أن هؤلاء القوم خانوا الأمة وأعانوا الأمريكان. ولم يكن هذا كافيا بحال، بل كانوا يقولون لنا كلوهم حتى يكونوا عبرة.

يقول: كنا نقتل بالأسلحة، ونقطع بالسكاكين أجساد الإنس من رجال ونساء وأطفال، ونستخرج قلوبهم نقلبها على النار، نأكل القطع الصغيرة جدًّا خوفا من المشرفين. ثم يقدمون لنا مائدة طويلة عريضة من شهي الطعام كجائزة على فعلنا.

كانوا لا شك يضعون لنا شيئًا ما في الطعام، إذ لا نكاد ننتهي حتى يأخذونا إلى حي آخر قائلين إن رجال هذا الحي خرجوا في مساعدة الأمريكان والنساء هنا تحت تصرفكم. ونحن لا نكاد نفرق بين صغيرة أو كبيرة. نرجع إلى معسكراتنا. وبعد أيام تعود إلينا أنفسنا ونتذكر ما فعلنا ونبكي لشدة العذاب الذي نجده بعد فعلنا، لكنهم – أقسم بكل الأشياء المقدسة – يدسون لنا في الطعام ما يجعلنا في هذا الإجرام. ثم يجوعونا مرة أخرى لنقتل ونأكل ونغتصب ونفظع.

كان علي يجهش بالبكاء وهو يخفي وجهه بيديه، ولم يتمالك فرقد نفسه عند هذا الحد فقام مدفوعا نحو فاضل وهو يصرخ فيه: يا كفرة يا مرتدين يا علوج والله سنقتلكم كما تقتلون أبناءنا، وسنتغصب نساءكم والله سننتقم.. ويندفع ممسكا بتلابيب فاضل ومحتدما معه في معركة بالأيدي، فقام ليث وعلي وحامد بتخليصهم، وقال علي منفعلًا من وسط بكائه: عيب يا أخي، عيب، الرجل يحارب معنا، وهو يحكي حزينا مثلنا. عيب. هذا ما يريدوننا أن نصل إليه، أن نكره بعضنا. هذا هو سلاحهم الوحيد ليهزموننا؛ الكراهية. والكراهية تنقص من عمرك أكثر مما يفعل عدوك.

ثم التفت نحو فاضل الذي كان ينظر في الأرض ولا يرد، وربت على كتفه، فرفع فاضل عينين دامعتين وهو يقول: كفر، معه حق، هذا ما أوصلتنا إليه عصابة بشار وحافظ. هم صنعوهم. هم جاؤوا ليقاتلوا الأمريكان فأرسلوهم ليقاتلوا العراقيين من

كل الأطياف. كان السفير السوري في العراق هو قائد المجاهدين الذي استلم هوياتهم الشخصية منذ معركة المطار أيام سقوط العراق في فندق في بغداد.

... ...

"إن العالم لا يواجه صدام حضارات ولكن يشهد صراعا بين الأمم لتطبيق قيم مشتركة ..... "

... ...

" إن النفط هو أحد أسباب الإعداد للحرب ضد العراق وإذا حاول أي شخص أن يقنعنا بغير ذلك فإنه قطعا لا يحترم عقولنا."

مقال فريدمان في منتصف يناير 2003 نشرته "هيرالد تربيون".

... ...

"إنها قنابل صوتية لا تدمر ولكنها تحدث صوتا عاليا اتضح من خلال بعض التقارير أنها قنابل جديدة كهرومغناطيسية تصيب دائرة قطرية صغيرة وتسبب تعطيل الحواس الخمس وكافة أشكال الحياة ومن ثم الوفاة السريعة لكل الموجودين في دائرتها."

الصحاف وزير الإعلام العراقي في أحد المؤتمرات الصحفية.

... ...

طك

طك

طك

... ...

"إن هذه الصواريخ تتميز بقدرتها التدميرية الهائلة وتتسبب في نشوب جدًّار ناري يستهلك الأوكسجين في المكان بحيث يموت الضحايا اختناقا من دون أن يؤثر ذلك على الأماكن القريبة.. إن الصواريخ والقنابل الحرارية باستطاعتها أن تدمر الطابق الأول على سبيل المثال من البناء المستهدف من دون أي إلحاق أضرار بالطوابق الأخرى، كما أنها مثالية للقضاء على العناصر المعادية المختبئة في المغاور أو الملاجئ المحصنة."

وزير الدفاع الأمريكي دونالد راميسفيلد في جلسة الكونجرس الأمريكي في 14 مايو 2003 معترفا باستخدام صواريخ (هل فاير Hell Fire).

... ...

"..... وعلى الولايات المتحدة أن تساعد الدول الأخرى على تحقيق هذه القيم."

... ...

"ومن ليس معنا فهو ضدنا."

١

- علي. أنتَ سني ولا شيعي؟

سألته.

.....

ثابتون في أوضاعهم كأصنام صنعها نحاتٌ مريض العقل يهوي تعذيب ذاته، أتأمل حالهم ويبدو لي الأمر كأني أفعل ذلك طوال العمر، كأن كل هذه الذكريات التي تمر في لحيظات ما بين طرفة عينٍ وفتحتها، كأنها كلها منذ بدء الخليقة وإلى الأبد!

.....

ومع استكمال عملية الحشد العسكرى الأمريكي في أوائل مارس 2003 كان حجم القوات الأمريكية في الخليج قد وصل إلى ما لا يقل عن 280 ألف جندي أمريكي، و 48 ألف جندي بريطاني، ناهيك عن الأسبان والطليان والبولنديين والكنديين والأوكرانيين.

.....

"كان من المفروض أن تكون أولًا حملة صليبية، ثم أصبحت حرب حضارات وبعد ذلك حربا لا نهاية لها، ومن ثم حرب ضد الإرهاب، والآن صدق أو لا تصدق وعدنا بوش أن تكون حرب شمشون ضد الإرهاب."

روبرت فيسك في عدد الأربعاء 12 يونيو 2003 من الإندبندنت البريطانية.

.....

كما وصل إجمالي القوات الأمريكية وقوات التحالف المحتشدة فى المنطقة، وبالقرب منها إلى حوالي 333ألفًا تضم مختلف التشكيلات البرية والبحرية والجوية؛ ففي الكويت احتشد حوالي 105 آلاف فردٌا من القوات الأمريكية، من بينهم 17 ألفًا من فرقة المشاة الميكانيكية الثالثة الأمريكية، و 45 ألفًا من مشاة البحرية، و 15 ألفًا من قوات التدخل السريع، ولواءان محمولان جوًا، بالإضافة إلى حوالي 1200 فرد تابعين لقيادة الدفاع الجوى ال 32 ، وحوالي 250 فردًا من الفرقة الجبلية العاشرة، بالإضافة إلى فرقة الهجوم الجوى، وفى البحرين كان يوجد 4 آلاف فردٌا يتبعون قيادة الأسطول الخامس الأمريكي، كما تمركز فى قطر حوالي 1000 فرد من القيادة المركزية الأمريكية فى قاعدة السيلية و 3500 فى قاعدة العُديّد، كما انتشرت قوات أمريكية أخرى فى قواعد عسكرية فى سلطنة عمان وقد سمح الأردن للقوات الخاصة بالعمل من داخل أراضيه، وفتحت السعودية ومصر مجالها الجوي للطائرات الحربية بالإضافة لقناة السويس، في حين رفضت تركيا دخول أي قوات أراضيها.

.....

"أنا شفت أسلحة الدمار الشامل بعيني!"

محمد حسني مبارك الرئيس المصري.

... ...

قال العرب: إننا نشجب وندين ونندد ونستنكر ونعترض ونصرخ ونهدد ونرغي ونزبد ونشجب وندين ونندد.....

... ...

"إن أسلحة الدمار الشامل لوصمة عار في جبين النظام العراقي، وإننا نهيب بالعراقيين الشرفاء، أن يتخلوا عن هذا النظام الديكتاتوري جاعلين أملهم في الغد في عراقٍ أفضل وألا ينجرفوا للعنف الذي سيحاول أن يجرهم إليه الإرهابيون. وإننا في هذه اللحظة الفارقة من تاريخ أمتنا نجدد ثقتنا في المارشال قائدنا الذي يحمينا من الإرهاب والأمريكان معًا".

الإعلامي النَهَري محمد جمعة إبريل 2003 من برنامجه الجديد "نَهَر اليوم".

... ...

طك

طك

طك

... ...

إننا نشجب وندين ونندد ونعترض.. إننا نعترض نعترض نعترض ترض ترض ترض...

... ...

"لو أنني خيرت بين أن تكون لدينا حكومة دون صحف، أو صحف دون حكومة، لما ترددت لحظة في تفضيل الخيار الأخير."

الرئيس الأمريكي توماس جفرسون، الرئيس الثالث للولايات المتحدة.

... ...

قال: هل تذكرون أبو طبر؟

قلنا: ياه! وما الذي ذكرك بهذه الحكاية القديمة؟ هل تريد أن تخوف بها الأمريكان؟

ضحك علي. قال: لا هذه الحكاية صُنعت لتخويف العراقيين، وفزاعةٌ واحدة لا تخيف عصفورين مختلفين!

كان أبي يخيفني بأبي طبر هذا، كانت أخباره مفصلة تأتي في الجرائد والصحف والتلفزيون ونحن أطفال، وكان يرهبنا، المجرم الذي يتصل بضحيته قبل أن يذهب

إليها، كنا حين نسمع جرس التليفون نركض فزعا فنختبئ في الدواليب، حتى نطمئن أن المتصل لم يكن أبو طبر. وكنا نحب أن نسمع حكاياته من الجرائد والتلفزيون، وننتظرها رغم الخوف الذي كان يبعثرنا أثناء الحكاية ويجمعنا في الليل نحتمي ببعضنا. كان يبيد أسرًا بأكملها، يغتصب النساء ويقتل الرجال، ثم يمزق الأجساد، الأيدي والأذرع والأرجل والأثداء والقضبان والرؤوس، دائمًا الرؤوس يتركها على باب البيت ليقول: أبو طبر مرّ من هنا. كان يفعل ذلك مستخدما الفأس، دائمًا الفأس. وتصورتُ الموتَ دائمًا أبا طبر!

فيما بعد حين كبرنا عرفنا أن أبا طبر لم يكن يقتل سوى العائلات المعارضة لصدام في أوائل حكمه، العائلات الثرية التي تملك شرفا باقيا من زمنٍ غابر ومراكزَ في هيكل الدولة مهمة.

حين كبرنا عرفنا أن أبا طبر هو الحكومة، وأن الحكومة أبو طبر!

قلتُ: الحكومة أبو طبر، والأمريكان أبو طبر، أبو طبر أبو طبر أبو طبر!

... ...

... يعني إنتاج نمط ثقافي واحد وفق إرادة المنتج المهيمن، ويكون ذلك عبر وسائل السيطرة المختلفة كالتقنية والمعلوماتية والاتصالات، ولا سيما استعمال الأقمار الصناعية. ولا شك أن أخطر مظاهره، هو شيوع ثقافة الصورة بديلا عن ثقافة الكلمة، وانتشار الكتاب الإلكتروني (أقراص ROM CD) – بديلا عن الكتاب المطبوع؛ مما يضع جمهور الأطفال والناشئة أمام الاستبداد التقني الذي يقلل الخيال والإبداع بعد ذلك، ناهيك عن سرقة الوقت، وهدر الطاقة الجسمية، والمشاعر والأفكار، ووضع هذا الجمهور في حالة عطالة ذهنية وثقافية أمام منتجات التنميط الثقافي وقوتها الهائلة.

... ...

"83% من الشبان الأمريكيين لا يستطيعون تحديد موقع أفغانستان على الخريطة، وأكثر من نصفهم لا يعرفون أين تقع إسرائيل."

من استطلاع مجلة ناشيونال جيوجرافيك في عدد ديسمبر 2002.

"إن الأمريكيين هم الأكثر جهلا على هذه الأرض فهم لا يستطيعون تحديد موقع الولاية التي يعيشون فيها على الخريطة، ورغم أنهم فقدوا عشرات الألوف من جنودهم في فيتنام إلا أنهم لا يعرفون أين تقع، وحينما تمت دعوة الأمريكيين للاستفتاء على تعديل الدستور لم يخبروهم بفحوى التعديل وكان أكثر من نصفهم يعتقدون بأن الدستور هو وثيقة شيوعية، كما أنهم لا يملكون وسائل معلومات عالمية وليس لديهم أطباق لاقطة ليعرفوا ماذا يدور في العالم، فكل معلوماتهم يأخذونها من وسائل الإعلام الداخلية فقط، وهم معنيون ببرامج التسلية والترفيه ومتابعة أخبار نجوم هوليود وخطف الأطفال والعلاقات الغرامية للرؤساء وما شابه ذلك، ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية لا يشعر الأمريكيون بأن القضايا الخارجية تهمهم أو لها تأثير على حياتهم."

البروفيسور لارا دريك أستاذة العلاقات الدولية بالجامعة الأمريكية ومديرة المجلس الاستراتيجي لدراسات الشرق الأوسط في واشنطن.

من حوار لها مع الإعلامي أحمد منصور في الرابع من سبتمبر 2002.

"إن أربعة وأربعين مليون أمريكي أميون وجهلة لا يعرفون القراءة والكتابة، وإن خمسين مليون أمريكي آخرين لا يستطيعون قراءة أو فهم ما هو فوق مستوى الصف الثامن أي أنهم لا يعرفون معنى التعليمات المدونة على أي نوع من الترياق أو حتى علبة عادية من علب السم المضاد للصراصير في مطبخك."

من تقرير "أمريكا الأمية" المنشور في مجلة "نيوز ويك" الأمريكية في عددها الصادر في 15 أكتوبر 2002.

.....

طك

طك

طك

.....

"إنهم غزاة عنصريون يسرقون بالليل ويأتون في الصباح يعرضون حمايتهم. هذا الرئيس المخبول ورئيس الوزراء الهستيري. إنهم كقطعان الخراف المقدر لها أن تقتل في العراق. كالأفعى التي تزحف في وسط الصحراء وستقطع إلى أجزاء. هم تخريبيون ولا يستحقون إلا القتل، وإن شاء الله سنقوم بتحرير بلادنا من نجاسة هؤلاء الأوغاد العلوج."

محمد سعيد الصحاف وزير الإعلام العراقي.

.....

إن الرئيس العراقي وقائد القوات المسلحة العراقية السابق صدام حسين لم يكن له أي خبرة عسكرية حيث لم يقبل في الكلية الحربية حينما تقدم لها في بدايات حياته ورُفض طلبه مرتين. عين زوج ابنته السابق حسين كمال وزيرا للدفاع والتصنيع الحربي والصناعة في الوقت الذي كان فيه حسين كمال غير متعلم وشبه أمي وكل مؤهلاته أنه من تكريت بلد صدام وكان أحد جنود الحراسة الخاصة المخلصين لصدام في فترة ما. كذلك علي حسن المجيد أو علي الكيماوي الذي قاد الحرب على الكويت وقاد الحملة ضد الأكراد، والذي لُقب برجل المهمات القذرة، لم يكن سوى ضابط صف لم يحصل على أي شهادة عسكرية، لكن صدام منحه رتبة فريق أول أركان حرب. أما عزة إبراهيم مثلًا فكان بائع ثلج قبل أن يترقى في درجات الحزب ويصل إلى نائب رئيس الجمهورية ثم أحد القادة العسكريين الستة المسئولين عن الدفاع عن العراق. أما طه ياسين رمضان فكان هو أيضًا ضابط صف في الجيش قبل قيام الثورة 1968 وتمت ترقيته بسبب ولائه الشخصي لصدام حسين.

... ...

"تبارك وجهك القدسي فينا كوجه الله ينضح بالجلال"

من قصيدة كانت تغنى لصدام حسين في الحزب.

... ...

ذلك اليوم البعيد، حين رأيتها تستند بيدها على الطاولة، حين أمسكت برأسها، فقامت إليها أمي: مالك؟ قالت: عندي غثيان. وزغردتْ أمي دون فرح.

... ...

"إن شعورًا بالغثيان ساد بين الحاضرين من تصرفات صدام ونجله."

الكولونيل خالد الطائي.

"إن تعيين قصي على رأس الجيش لم يكن له مبررا واحدا واتخذ بالفعل قرارات مصيرية بإرسال الحرس الجمهوري بعيدًا عن العاصمة إلى مناطق قرب كربلاء وغرب الفرات ظنا منه أن القوات الأمريكية ستأتي من هناك، وعندما اكتشف خطأه أمر الجنود بالعودة إلى بغداد، فكان الوقت متأخرًا جدًّا."

الجنرال علاء عبد القادر أحد قادة الحرس الجمهوري.

....

"صدام يابو القيادة الحكيمة

صدام يابو الأفكار العظيمة

رمز الوفا والحنان

وبظله عشنا بأمان

عشنا الحياة الكريمة"

أغنية لحميد منصور سنة 1992.

كلمات: نزار جواد.

ألحان: نجاح عبد الغفور.

... ...

"لم يكن لأحد أن يخبره بأن فكرته لا تصلح، وكان يجود علينا بالجوائز والهدايا."

الجنرال ياسين محمد طه الجبوري أحد كبار ضباط سلاح المدفعية العراقي.

... ...

"إن الزعيم القائد صدام حسين هو هبة السماء إلى حزب البعث وهبة البعث إلى الأمة العربية."

ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث.

... ...

"لم يعد أمرًا مستغربا بالنسبة للأجانب أن ينتخب الأمريكيون، الذين يجدون متعة بالغة في غبائهم، رئيسا نادرا ما يقرأ أي شيء – بما فيه أوراق أوامره أو معلوماته الخاصة – ويعتقد أن إفريقيا دولة وليس قارة، قائد غبي لأمة غبية."

روبرت فيسك في عدد الأربعاء 12 يونيو 2003 من الإندبندنت البريطانية.

... ...

سألني علي: من يدخل الجنة؟

قلت: من يؤمن بالله ويعمل صالحا.

قال: صدقت. ثم استدرك: هذه هي القاعدة: الإيمان والعمل. أنتَ لا تصير مؤمنا بأي شيء إن لم يترتب على هذا الإيمان عمل يؤيده وينبثق منه. إن الإنسان السلبي الذي لا يعمل أي شيء لإصلاح حياته وإعمار الأرض، هو في الحقيقة لا يؤمن بأي شيء مهما ادعى غير ذلك. عملك يدل على ما تؤمن به، فإخلاصك وتفانيك في العمل – أي عمل – إنما ينبعان من رسوخ الإيمان بفكرتك داخلك، حتى لو كنت ستضحي بكل شيء من أجلها إلى أن تبيد. فشتان بين أن تموت هاربا من كل شيء، وبين أن تموت لأجل كل شيء، هل تفهم؟ المؤمنون هم من يغيرون العالم، مهما كان ما يؤمنون به!

... ...

الأربعاء 22 فبراير 2006

قام مسلحون يرتدون زي الشرطة باقتحام ضريح الإمامين علي الهادي والحسن العسكري في سامراء وقاموا بتقييد أفراد شرطة الحماية الخمسة الذين ينتمون بالفعل للطائفة السنية، فالمقام وسدنته وكل العاملين فيه من السنة من مئات السنين، ثم قام المسلحون بزرع عبوتين ناسفتين تحت قبة الضريح وفجروها مما أدى إلى انهيارها.

وأكد وزير الداخلية العراقي باقر الزبيدي أن قرابة المائة كيلوجرام من المواد المتفجرة استخدمت في التفجير وقد استمرت عملية نقل وتثبيت المواد المتفجرة ومعداتها إلى داخل المرقد حوالي من ثلاثة إلى خمسة أيام.

... ...

طك

طك

طك

... ...

تجمع الآلاف من أهليّ مدينة سامراء في الساحة المحيطة بالمرقد وحوله وهم يحملون عمامة الإمام علي الهادي وسيفه ودرعه التي كانت محفوظة في أحد سراديب المقام وأخذوا يهتفون: بالروح بالدم نفديك يا إمام.. بالروح بالدم نفديك يا إمام.

بعد التفجير تعرض أحد المساجد السنية في بغداد لهجوم من قبل مسلحين شيعة غاضبين على عملية التفجير.

... ...

طك

طك

طك

... ...

"إنني أركز على قضية الدول التي ترعى الإرهاب، وأريد أن ألفت النظر إلى أن التركيز على دول لها كيان واضح أسهل من التركيز على جماعات ليست لها ملامح؛ فالدول التي ترعى الإرهاب متجسدة، أما الجماعات الإرهابية فهي مجرد أشباح، وأظن أننا سوف ننجح أكثر فى العمل ضد جسد ولن ننجح بالقدر الكافي ضد أشباح، كما أن الحرب ضد تنظيم القاعدة لا تستجيب بسرعة لإحداث التأثير المطلوب كما أنها حرب يصعب فيها تحقيق نتائج لافتة للنظر بالذات، وأنها حرب لا يمكن أن تركز على هدف محدد،spectacular ؛ لأنها ضد أشباح، كما أنها بالنسبة لأهدافها على فرض التمكين من تحديدها لا تسمح بهذا الانفجار العظيم."

هو تشيني نائب الرئيس الأمريكي.

"هناك دول تعارض الإرهاب ولكنها تتسامح مع الكراهية التي تقود للإرهاب، وهذا أمر لا بُد أن يتغير."

جورج بوش.

... ...

قال علي: إذا اختلط عليكَ الأمر فلا تتردد في الرجوع إلى المسلمات.

ثم ضحك وقال: "هكذا الأمر دائمًا في كل الدنيا، أنتَ تعارض النظام العالمي المادي الجديد الفاشي الدموي، إذا أنت شيوعي أو إرهابي أو متطرف أو خائن أو عميل، أنت على الجانب الآخر دائمًا، الجانب الذي يجب أن يموت. الفراغ الأيديولوجي الذي نَتج عن نهاية الحرب الباردة جعل الفرصة سانحة لاستبدال العدو القديم؛ الشيوعية، بالعدو الجديد؛ الإسلام. هذا هو العالم الجديد باختصار. وكل ما علينا أن نعود للمسلمات؛ الدفاع عن الأرض والعرض والدين ليس إرهابا، الإرهاب أن تأتي أنتَ لتحتل بلادي وتغتصب أرضي بأي مبررٍ كان! ماذا يفرق صدام حسين عن الأمريكان والأمريكان عن صدام حسين؟ هاهاًها الفرق فقط في

أي جيب يصب البترول! ليس لأحد الحق أن يسلبك أرضك فما بالك بمن يريد أن يسلبك حقك في مقاومة السلب بحجة الإرهاب؟"

... ...

"أقول نعم من حق العراقيين أن يقاوموا المحتل حتى لو كانوا جنودا بريطانيين، فلو أن العراقيين هم الذين احتلوا بلدنا بريطانيا لقاومناهم ومن ثم فإن من حق العراقيين أن يقاومونا." "رغم إني لا أتمنى ضحايا في كل الأطراف، لكن نعم ربما يساعد زيادة القتلى في صفوف البريطانيين على خروجنا من العراق."

تام داليل

عضو البرلمان البريطاني والملقب بأبي مجلس العموم البريطاني.

... ...

"وهاجم نصرت الجادرجي الجزيرة: "أقول هذا للإعلام العربي: توقفوا عن تقديم النصائح للعراقيين لمقاتلة الأميركيين". وقوبل ذلك بعاصفة من التصفيق من الحضور ومن بينهم، حسب ما لاحظنا، بعض الصحافيين العراقيين."

من مذكرات السفير الأمريكي بول بريمر الحاكم المدني للعراق.

... ...

"إذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية تريد أن تكون ضرباتها الوقائية فعالة، فإنها يجب أن توجهها قبل نشوب الأزمة حتى تدمر مخزون العدو من الأسلحة والحيلولة دون تمكينه من استخدامها. وربما تكون الضربات الموجهة ضد أسلحة الدمار الشامل التي يملكها العدو هي الخيار الأفضل والوحيد لتفادي وقوع هجوم كارثي على الولايات المتحدة الأمريكية، قد لا تكون الأسلحة التقليدية مناسبة وغير ملائمة للوصول إلى مثل هذه الأسلحة فى مخابئها؛ الأمر الذى يفرض اللجوء إلى استخدام أسلحة نووية."

ميشيل فلورنورى

الخبيرة السابقة فى عدم انتشار الأسلحة النووية بوزارة الدفاع الأمريكية.

"نحن نريد أن نستخدم أقل قدر من القوة لتحقيق الهدف المطلوب إذا كان ذلك ممكنًا أصلًا عن طريق الأسلحة التقليدية، ولا نرغب فى عبور الحاجز النووي إلا فى حالات الطوارئ القصوى إلا أن هناك بعض المخابئ ذات القوة الاستثنائية تجعل استخدام أسلحة ذات إشعاع نووي كثيف أمرًا لا بد منه."

ستيفن يونجو

مدير وكالة تخفيض المخاطر بوزارة الدفاع الأمريكية.

... ...

"إن العالم لا يواجه صدام حضارات ولكن يشهد صراعًا بين الأمم....."

.....

طك

طك

طك

.....

الجمعة 9 إبريل 2004 أعلن عن صلاة جمعة موحدة في كل المساجد بين السنة والشيعة في العراق.

وكانت المقاومة بكل طوائفها تزحف محاصرةً القوات الأمريكية التي تحاصر الفلوجة، فقطعت عنهم الإمدادات النوعية سواء في التسليح أو المؤن الغذائية. واشتدت المقاومة في شتى أنحاء العراق وأبلى جيش المهدي في كربلاء والنجف والكوفة والكوت ومدينة الثورة في بغداد بلاءً عظيمًا مما وضع الأمريكان في موقف حرج للغاية.

.....

"لقد واجهت قواتنا أسبوعا قاسيا.. وأنا أصلي كل يوم من أجل أن تراجع الخسائر."

خطاب جورج بوش في الحادي عشر من إبريل عام 2004 في قاعدة فورت هود في تكساس مخاطبا بعض عائلات القتلى الأمريكيين في العراق.

وفي خطابه الأسبوعي ٱلإذاعي قال: "هذا الأسبوع في العراق واجهت قوات التحالف تحديا ونقلت القتال إلى ساحة العدو، إن إرادتنا الدفاعية سوف تستمر خلال الأسابيع المقبلة."

.....

وخرج العراقيون من كل مكان متجهين في مسيرات ضخمة صوب الفلوجة يهتفون:

لا سنة ولا شيعة والعراق ما نبيعه

وحدة وحدة إسلامية لا سنية ولا شيعية

.....

الدكتور حارث الضاري الأمين العام لهيئة علماء المسلمين في العراق في لقاء في مارس 2004 قال: عدد علماء الدين الذين تم تصفيتهم من أهل السنة خلال شهر واحد فقط زاد عن خمسين عالما منهم شقيقه.

.....

لا سنة ولا شيعة والعراق ما نبيعه

وحدة وحدة إسلامية لا سنية ولا شيعية

... ...

قامت جماعات مسلحة مجهولة بإحراق مساجد سنية وهدمها وحدثت عمليات قتل عشوائي في بغداد والمناطق المجاورة لها حيث تم العثور على رفات 47 مدنيا في حفرة بالقرب من بغداد. وأفاد الوقف السني أن ما يقرب من 168 مسجدا سنيا تعرض للهجوم وتم قتل عشرة أئمة في المساجد وخطف 15 آخرين عقب تفجير الضريح.

في البصرة قام مسلحين بالهجوم على مرقد طلحة بن عبد الله وزرع عبوات ناسفة فيه ثم قاموا بتفجيرها مما أدى إلى تدمير المرقد بالكامل.

كان هناك اتهامات عديدة بجرائم طائفية لعدة فصائل شيعية مسلحة منها: جيش المهدي الذي يتبع مقتدى الصدر وفيلق بدر وعصائب أهل الحق.

... ...

لا سنة...

... ...

كان لتنظيم دولة العراق الإسلامية السني عدة عمليات طائفية بارزة منها: مجزرة سيدة النجاة التي استهدفت كنيسة في الكرادة ببغداد وتفجير البطحاء وكارثة جسر الأئمة وغيرها. كذلك تنظيم يدعى جيش المجاهدين وهو خليط ضم عسكريين سابقين وكان محسوبا على التيار السلفي يقوده عراقي يدعى أبو جندل الشمري، ولم يتبن التنظيم أي هجوم على القوات الأمريكية ونشاطه منحصر ضد المدنيين العراقيين. وكانت تلك التنظيمات ترتكب جرائم في حق حتى الطائفة السنية الذين يخالفونهم وليس الشيعة فقط بحجة أنهم كفار أو مرتدين.

... ...

ولا شيعة...

... ...

طك

طك

طك

... ...

والعراق....

... ...

"إن التطرف الديني هو وسيلة للتعبير عن البؤس، وليس السبب الأساسي فيه."

من تقرير الإيكونوميست يوليو 2014.

... ...

قال العرب: إننا نشجب وندين ونندد ونستنكر ونعترض وننبح.. إننا ننبح.. هاو هاو هاو.

... ...

وهم في كل مكان حولي تماثيل من شمع، ثابتون كأنهم خُشبٌ مسندة، يمسكون بسيوفٍ وسلاسل ويصفعون ويجرحون أنفسهم، مهلهلين العقيدة، سود الوجوه، مغبرين القلوب، مكفرين عن ذنبٍ قديم، وباحثين عن توبةٍ لن تأتيهم أبدًا. وأنا أخطو خطوتي الأخيرة وتمر كل الذكريات، وأتذكر ولدي يضحك، وأسأل نفسي: لماذا لا أشم ريح الجنة؟ ثم تلف عيني حولي عاتبةً وتلومني: وكيف تشم رائحة الجنة في مثل هذا العفن؟

... ...

"إن البث التلفزيوني الحي يجعل كل شخص جزءً من الحدث، لأن كل شخص يرى الشيء نفسه في الوقت نفسه."

جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكية الأسبق.

... ...

"أذعنت الشبكات التليفزيونية الأمريكية للضغط، وعلى رأسها CNN، والتزمت بهذه التوجيهات وهذا التعتيم حتى لا تتقلب إلى قوة مناهضة للعدوان على العراق كما حدث في فيتنام."

"إن المراسلين الذين يختارون ملاحقة الأخبار في الجانب العراقي سيكونون عرضة للقصف الأمريكي.. فإذا كان هناك هدف مشروع إلى جانب مركز التسهيلات الإعلامية فإن ذلك لن يعوق صواريخنا عن الوصول للهدف المشروع بغض النظر عما قد ينتج هذا عن هذا القصف."

كريغ كويغلي نائب مساعد وزير الدفاع الأمريكي.

نشرتْ وكالة الأنباء الفرنسية في 18 أغسطس 2003 تقريرا عن الصحفيين الذين قتلوا أثناء تغطيتهم للحرب والذين بلغ عددهم سبعة عشر صحفيا.

... ...

"قوموا بتغيير هذه القناة التي تبث الأكاذيب!!"

مارك كيميت نائب قائد القوات الأمريكية حين سؤاله على تغطية قناة الجزيرة لأحداث الفلوجة، حيث كان فريق الجزيرة هو الفريق الإعلامي الوحيد الذي تواجد في الفلوجة أثناء المعركة الأولى في إبريل 2004.

... ...

وقاد ذلك السيد محمد بحر العلوم إلى الوقوف حيث قال: "كل تغطيات التلفزيونات العربية للحرب والتحرير غير متوازنة ومنحازة ضد العراقيين"، وقال، وقد ارتفع صوته إلى درجة قريبة من الصياح: "إن وسائل الإعلام هذه ظلت تهددنا منذ أول يوم من بداية الحرب وإلى اليوم"، وحال جلوسه على المقعد كان المزيد من التصفيق مما أدى إلى وقوفه مرة أخرى. "أنتم ممن تمثلون (الجزيرة) و(العربية) وغيرهما، لم تغطوا ألبتة الفظائع التي ارتكبها صدام حيث قتل مئات الألوف من العراقيين! وقضى على العراقيين بالغاز! لماذا لم تعرضوا المقابر الجماعية على مشاهديكم؟"

من مذكرات السفير الأمريكي بول بريمر الحاكم المدني للعراق.

... ...

قال علي لفرقد الغاضب: هل تعرف ماذا يقول الأمريكان؟ يقولون إن أول ضحايا الحروب هي الحقيقة*! يا أخي في كل العالم وسائل الإعلام دورها أن تنقل الحقيقة، وأنت تعرف ماذا صنع الأمريكان! إنهم يرسلون صحفييهم فيقيمون مع الجنود ولا ينقلون أي شيء إلا عن طريق القادة العسكريين الأمريكان، إن علينا أن نشكر رجال قناة الجزيرة هؤلاء الذي يتكبدون معنا عناء الجوع

والسهر والفزع والموت تحت القصف في أي لحظة. لا أحد غيرهم جاء يبحث عن الحقيقة الضحية في الفلوجة!

زام فرقد: أشكرهم؟ إنهم يذبحون الخروف في الليل، ويصورونه صباحا! صحيح؟

*: المقولة لتشرشل.

- ماذا تعني؟

- من أين يأتينا الجنود الأمريكان؟ ألم يأتونا من بلادهم؟

سكتنا ولم يسكت القصف.

... ...

"إن مالكي وسائل الإعلام الأمريكية يقررون إلى حد كبير المادة التي تحتويها وسائل الإعلام . وإذا تعارض المحتوى مع سياسة المالكين، فإنهم يقومون بتقييد المادة الإعلامية وتحديدها. إن المالكين

يذهبون أحيانًا إلى أستوديو التلفزيون ليتأكدوا من أن القائمين على البرامج والضيوف ملتزمون بسياسة المالكين!"

نعوم تشومسكي، الإرهاب الدولي – الأسطورة والواقع، ترجمة: لبنى صبري، 1990.

... ...

"إن مثل هذه المصطلحات من الصعب الالتزام بها في هذا العالم المضطرب، فما معنى الحياد أو عدم الانحياز حينما ترى طرفا ضعيفا يُقتل وطرفا متغطرسا يمارس القتل؟ وما معنى أن تكون غير منحاز وأنت ترى ظلما يقع وانتهاكات تحدث ومظالم تمارس؟ ما معنى أن تكون محايدا في تغطيتك لمثل هذه الأحداث؟ إنك هنا يجب أن تكون منحازا ليس إلى مجرد نقل الواقع ولكن يجب أن ينقل الصحفي الحقيقة، والحقيقة أوسع في وصفها من مجرد وصف الواقع، إن الحقيقة تعني أن تظهر الجوانب المختلفة للجريمة التي ارتكبت، أو المظلمة التي وقعت، ولهذا فإنه ليس من السهل أن يفعل كثير من الإعلاميين هذا، ولكن هذا ما يجب فعله أن يكونوا منحازين للحقيقة."

ديفيد سايمون

أحد كبار المدراء السابقين في هيئة الإذاعة البريطانية بي بي سي.

... ...

"حدد اختصاصيو الإعلام في الولايات المتحدة أن أهم المؤسسات الإعلامية هي ثلاث صحف يومية، وثلاث مجلات أسبوعية، هي على التوالي الصحف اليومية: النيويوك تايمز، الواشنطن بوسط، وول ستريت جورنال. والمجلات الأسبوعية: التايم، نيوزويك، يو.إس.نيوز آند ورلد ريبورت. وبالرجوع إلى المعلومات المتوافرة عن ملكية تلك المؤسسات وإدارتها نجد أنها جميعًا تخضع للملكية الكاملة، والإدارة الكاملة أو شبه الكاملة لليهود."

باسم خفاجي، مصداقية الإعلام الأمريكي، 2005.

... ...

قال علي: أنت ظالم يا فرقد، والغضب والكراهية يعميان بصيرتك، إن هؤلاء الرجال شرفاء، وهم هنا من أجلي وأجلك ومن أجل أن يظهر للعالم جرائم الأمريكان، يرونه الإرهابيين من النساء والأطفال والشيوخ الذين يقتلهم الأمريكان، ويفضحون كذبة أسلحة الدمار الشامل تلك الحجة الفاشلة التي خدروا بها العالم ليحتلوا بلادنا. حتى لو أن بلادهم سمحت للأمريكان بالتمركز في أراضيها، فهم هنا كبشر، كأناس مثلي ومثلك، معرضون للقنص والقتل والسحل، لكنهم مثلنا يحاربون بالصورة والصوت، في حين نحن نحارب بالسلاح، هذا دور الإعلام الحقيقي، وهم مثلنا لا يقبلون الضيم، ولا يستطيعون إخفاء الظلم، حتى لو شاركت فيه بلادهم. أليس هذا هو حال العرب جميعًا؟ كم صدام حسين حولنا؟ وكم حزب بعثٍ يحكم بلادنا، من المحيط إلى الخليج؟ آه.. بيتنا عشرون غرفة به، لكن كل غرفةٍ من فوقها علم، أسرتنا فريدة القيمِ، وجودها عدم، جحورها قمم، لآتها نعم، والكل فيها سادة لكنهم خدم! أوجزها لكَ أحمد مطر! ثم قل لي: ماذا فعل الذين لم يتمركز عندهم الجنود؟ ها ماذا فعلوا؟!

قال فرقد: أنا لا أستطيع أن أفهم هذه الازدواجية! أليست القناة ملك لأمير؟ أمير سمح بوجود مبنى قيادة الجيش الثالث الأمريكي في أرضه، وسمح لهم أن يتخذوا

بلاده قاعدة لقواتهم؟ أنا لا أستطيع أن أفهم!

قال علي: اسمع! لتكن ملك أمير، ملك يهودي، ملك الشيطان. أنا يهمني هذا الذي يُنقل على الشاشة، فلتكن ملك من هي ملكه، المهم أن تنقل الحقيقة! الحقيقة هي فقط ما يهم. وهؤلاء يخاطرون بحياتهم لأجل الحقيقة وعلى قولك؛ يخاطرون حتى بوظائفهم! إن البلاد هي الناس يا فرقد، وليست هذه الأنظمة التي يغنون لها في التلفزيون. الناس الذين هم مثلي ومثلك الذين لم يكونوا يريدون غزو الكويت، الناس الذين هم مثلي ومثلك يُسحقون كل يوم بالكراهية والظلم والفقر والخوف.

... ...

"وتملك جريدتي نيويورك تيمز وواشنطن بوست بصفة رئيسة عائلتان يهوديتان. الأولى يتولى رئاستها ويشغل منصب الناشر لها آرثر سلزبيرغر، وهو يهودي. أما جريدة واشنطن بوست فتعود ملكيتها الى أجين ماير، اليهودي الذي اشتراها عام 1933 ، وما تزال مملوكة من قبل عائلته، وتملك الحصة الكبرى فيها إحدى حفيداته وهي كاثرين ماير. وتملك مؤسسة واشنطن بوست مجموعة ضخمة من الجرائد اليومية والمجلات، أهمها مجلة نيوزويك. وبالنسبة إلى جريدة وول ستريت جورنال التي تملكها شركة داوجونز، فهي تخضع خضوعا شبه كلي لإدارة يهودية ويرأسها اليهودي بيتر كان. أما مجلة التايم، فتملكها شركة تايم ورنر التي يرأسها جيرالد ليفين، وهو يهودي. وتملك هذه الشركة أيضًا شبكة سي.إن.إن وعددا من دور النشر. ويملك أغلب أسهم مجلة يو.إس.نيوز أند وورلد ريبورت اليهودي ماتينمر زوكرمان الذي يرأسها."

يوسف الحسن، البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني، 2000.

... ...

قال علي: سني شيعي مسيحي يهودي كافر! المشكلة ليست في الدين، المشكلة في الناس، في المتدينين الذين يعميهم التعصب وتسوقهم الكراهية.

... ...

تنفيذ حكم الإعدام شنقا في صدام حسين في 31 ديسمبر 2006.

... ...

طك

طك

طك

واليوم، يوم الاثنين المهيب، أسمع هذا الصوت الآتي من بعيد، المختلط بجلبة آهاتهم وأصوات صفعاتهم وترانيمهم الصادحة عبر ميكروفونات موزعة في كل مكان حولي، هذا الصوت الحقيقي جدًّا، البارز وسط كل هذه التأوهات والنحيب

واللطم والعويل، وسط الكاميرات والمراسلين الذين جاؤوا يبحثون عن سبقٍ ما، عن خبرٍ ما، هذا الصوت الحقيقي جدًّا الذي سيندمج حالا بصوتٍ عظيم، بصوتٍ جليل، بصوت أمرٍ جلل!

... ...

"إنهم يكرهوننا ويكرهون إسرائيل، ويهددون أصدقاءنا جيرانهم في المنطقة."

بوش مخاطبا الأمريكيين في 31 أكتوبر من عام 2002.

... ...

"إن دور أمريكا الخلاق هو تحضير العالم ليصبح أمة واحدة تتكلم لغة واحدة."

الرئيس الأمريكي غروفر كليفلاند 1893.

... ...

الاثنين 29 يناير 2007

فلتصرخ صرختك الأخيرة يا خليل.. صرخة الجلل!

أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله

أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله

الله أكبـــ.....

... ...

طك

طك

طك

قال علي والليل مكتمل الأركان: هل تسمعون؟

أصخنا السمع وهمس حامد: ماذا؟

أشار لنا علي بالصمت فكتمنا أنفاسنا، قال: كأنه صوت قطرات تسقط ببطء في بحيرةٍ صغيرة.

فحتُ بحذر: وما ذلك؟

كنا متوترين وقبضت أيدينا على السلاح بعنف، وأوشك قائد المجموعة أن يوزعنا استعدادا لما حسبناه هجوما يتحدث عنه علي لكن الأخير قال واجما:

- هذا صوت العالم ينزف.

- لم أسمع صوتكَ؟

- هل تريد أن يُقال إني أتدخل في شئون البلاد الأخرى الداخلية يا سيد ميسرة؟

ضحكت.

- إن صدام حسين رفيق قديم، وزمالة المهنة حتى تجبرني على عدم التدخل.

- هل تصدق ما تقوله؟

- وهل تصدق أنتَ ما تكتبه؟

- نعم أصدقه!

- هذه أفلام هندية، يبيع قنباز جده وسروال أمه! دراما سطحية جدًّا!

- لا أعرف!

- سنتجاوز عن ذلك الآن! المهم: هل فكرت؟

- فكرتَ فيمَ؟

- في طاهر الصديق!

- لن أرد عليكَ!

- اسمع إن صبري ينفذ، وأنا أخشى عليكَ!

- لن تفلح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القسم الثالث الكذب

"لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه."

(متى 26:16)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الذي أمسك بالمطرقة

بعد أيام وصل نضال، وفي الغرفة الهادئة في الفندق البسيط، وقف يتأملني وقال: كم نحلت يا نادر! قلتُ مبتسما: المشي يا صاحبي المشي. ضحك وقال: القناة كلها تتحدث عما فعلت! لم أعلق، وظللت على ابتسامتي فقال: لكن أجبني بصدق أليست واحدة من مبالغاتك التي لا تنتهي؟ قلت متجاهلا سؤاله ومؤكدا على قولي: أرجو أن تكون رحلتك بالطائرة كانت أخف من رحلتي ركضا. فهز رأسه وسأل عن سريره، ألقى نفسه فوقه ونام.

نزلت أتمشى في بغداد، كنت قد دلني بعضهم على عدة أماكن، ولكن أجمل شوارع بغداد من وجهة نظري، كان شارع المتنبي، مليء بالكتب وبالأدب والفنون والشعر والشعراء، ذكرني بسور الأزبكية عندنا في العاصمة في نَهَر. وجدتُ هناك كتبا كثيرة تتحدث عن تاريخ بغداد، وعن الفلوجة التي كانت مشتعلة تحت الحصار في هذا الوقت، وقرأت عن مقاومة العراقيين طوال الوقت للاحتلال، والثورات العديدة التي قاموا بها على ملوكهم وحاكميهم، ففي عام 1920 قاوموا الاحتلال البريطاني، حتى أخرجوه في 1930، وتعددت ثوراتهم وانتفاضاتهم وانقلاباتهم أيضًا في أعوام 1936 و1941 و1948 و1952، بالإضافة لثوراتهم ضد النظام الملكي في 1958 ثم في 1968. عرفتهم شعبًا أبيا مقاوما لذا حين كنت أجول في الشارع العتيق، وأجد آثارًا لتفجيرات لم تقلت منها حتى الكتب، كنت أسائل نفسي كثيرا. ففي بغداد هنا اليوم، التفجير يكون لمجرد التفجير، فلا تدري من يحارب من، ومن يقتل من، سنة وشيعة وصفويون وأكراد وأمريكان وإنجليز وأسبان وأوكرانيون، وعربات تحمل أرقاما عربية مع الاحتلال ومقاتلون من كل البلاد العربية جاؤوا دفاعا عن بغداد مقر الخلافة العتيقة، وقالوا إنها هجمة تترية صليبية جديدة فهبوا لنصرة دين الله. لا أعرف بالضبط كم تنظيما مسلحا في العراق، لكني بدأت بحثي من وسط العراقيين أنفسهم، أنزل على قدميّ، وقد استعذبت المشي بعد رحلتي إلى بغداد ماشيا من نَهَر، وأثناء المشي أتذكر ومضات ضبابية عن ندى وليلى والنشاط الثقافي وأشياء كثيرة تبدو بعيدة كل البعد الآن، وأبحث عن الفضاء الأسود الأبيض الذي لا كيان له الذي كان يلاحقني، فلا أجده، هل إن كان الله حقًّا قد وافق على طلبي وتوقف عن مراقبتي؟ لن أعرف أبدا.

لكني بعد أن نمت ربما أسبوعا، كنت أجمع كل المعلومات بحماسٍ شديد، وشعورٌ عظيم ينتابني أن تغطيتي للحرب في العراق ستكون بداية جيدة لي كمراسل إخباري، رأيتها الخطوة الأولى في حلمي البعيد. وكنتَ أسمع أصوات التفجيرات من غرفتي في الفندق، فأهرول مرتديا حذائي وحاملا شارتي الصحفية، وأركض ناحية التفجيرات، فأجد آثارًا لعربة مفخخة أو لموقعة اشتباكات بين المقاومة وبين الأمريكان المرتزقة. كنت أرى بعيني في كل مكان أشياء ستكون صورًا عالمية وقد ننال عليها جائزة بولتيرز أو على الأقل صورة العام، وكنت أريد كاميرا، أريد نضال الذي جاء متأخرًا قليلًا بسبب تشديد الأمريكان على منع المصورين، وبِسبب الإجراءات السخيفة التي تحمّلها كي يدخل بالكاميرات. نضال كان عيني ناهيكَ عن

عينه الخبيرة التي تلتقط تفاصيل متناهية في الصغر. فرحتَ حين أخبروني أنهم سيرسلون لي نضال، وقال لي مدير المراسلين ضاحكا: لم نكن نعرف أنك مشتاق للسفر هكذا! يقصد رحلتي إلى بغداد ركضا، فقلت: المهم أن تسرعوا هنا أشياء كثيرة تستحق التصوير.

حاولنا دخول الفلوجة، وقد أثارتنا الغيرة من طاقم قناة الجزيرة الوحيد الذي نجح في الإفلات من الحصار والدخول إلى قلب المعركة، لكننا لم نجد لذلك سبيلا، قال نضال مبتسما بهدوء كعادته: إننا لم نكون علاقات جيدة بعد مع عراقيين. قلتُ له: ربما معك حق. وقتها لم أكن قد أتممت ربما ثلاثة أسابيع في بغداد. قلت لنفسي مطمئنا: لا بأس، هناك بالتأكيد أماكن أخرى ستحاصر، وبلادٌ أخرى ستقاوم، سنكون هناك.

أخذت نضال لشارع المتنبي فأحبه، وهناك تعرفنا على رجل اسمه فهد السامرائي، كان من سامراء كما يقول اسمه، ورحب بنا ترحيبا شديدًا وقال إنه تعلم في نَهَر في الأزهر الشريف. سألناه عن رأيه فيما حدث للعراق وهروب الجيش والخيانات فقال كأنما كان ينتظر أن يسأله أحد: إنما يعدو الذئب على الشاةِ القاصية*******! سأله نضال: وهل ترى العرب فعلًا متحدين ويخافهم أحد والعراق التي قصت! قال فهد شيئًا لا أذكره وتوطدت بيننا العلاقة وتبادلنا العناوين وأرقام الهواتف واتفقنا على أن يخبرنا بأي خبر في الحال ويترك الباقي علينا.

كان ذلك، ربما، قبل أن يرج العالمَ صورُ فضيحة سجن أبي غريب بأيام قليلة.

... ...

يوم الثلاثين من إبريل لعام 2004 اتصل بنا فهد باكيا: افتحوا التلفزيون، افتحوا التلفزيون، شاهدوا الحرية الكاذبة التي جاءت بها أمريكا.

ولم نكن في حاجة لاتصاله، كنا بالفعل جالسين، أنا ونضال ومهندس البث، فاغرين أفواهنا، نتأمل الصور التي بثتها شبكة قنوات سي. بي. إس. الكولومبية، وتداولتها جميع القنوات، لانتهاكات الأمريكان جنودًا ومرتزقة بحق معتقلين عراقيين في سجن أبي غريب الموجود في أطراف العاصمة بغداد. سمعت نحيب نضال والمهندس هيثم، كأنه يأتي من مكانٍ بعيد، وقمت من فوري لأجري اتصالاتي وصفير هائل يضغط على أذنيّ، وشعيرات الدم تلتهب في عينيّ، أردت أن أبكي، لكني لم أستطع، أسمع نحيب صديقيّ وأحسدهما، وأشعر بالدمع يتكوم في عيني ويأبى النزول، شعرتُ أن شيئًا ما داخلي قد تفتت، شعرتُ أن إنسانيتي قد جاء أحدهم بمدية حادة وقسمها نصفين، هذا الأحدهم ربما يكون هو نفس الأمريكية الشقراء التي حفرت اسمها بخنجر في ظهر عراقي معتقل ووقفت تتصور جواره كذكرى، وربما هو نفس الخنجر. أو لعله يكون هذا الذي يمسك كلبا ويوجهه نحو معتقل يجلس مقرفصا عاريا لا يستره إلا ملاكان على كتفيه وربٌ يراه. ربما يكون هو من يكوم الناس فوق بعضهم عرايا ويخفي رؤوسهم بأكياس سوداء، ويقف وراءهم هو وصديقته رافعين إبهاميهما علامة الاستحسان ليأخذان صورة. ماذا يستحسنان؟ ربما تعجبهم مؤخرات رجال مكسورين مهزومين مظلومين تنتهك

إنسانيتهم دون أدنى حرمة لرب خلق كل هؤلاء من طينٍ واحد. الإنسان هذا المخلوق الحقير، الذي يوقف إنسانا آخر ويلبسه شوالا ما أسود، ويغطي رأسه بقماش أسود يشبه القرطاس، يوقفه على صندوق رفيع جدًّا، ويوصل كل المناطق الحساسة في جسده وأعضائه التناسلية، بأسلاك الكهرباء، ويهدده بأنه سيصعقه بالكهرباء إذا سقط من فوق الصندوق، ثم يصعقه سواء سقط أم لم يسقط وهو يضحك قائلا: ضحكتُ عليك! من منهم أمسك بمطرقةٍ غليظة ثقيلة وهشم هذا الجزء الباقي من إنسانيتي البائسة؟ وعرفت التفاصيل، عرفت أن الصحفي الأمريكي سيمور هيرش هو الذي نشر هذه الصور، التي حصل عليها عن طريق تقرير مسرب للواء أنطونيو تاغوبا.

كنتُ أرقد لليالٍ طوال، أتأمل سماءً سوداء نهارًا وليلا بسبب دخان الانفجارات، وثياب الحداد، والعتمة التي ملأت النفوس، وآبار البترول المحترقة أو المنهوبة، والجثث المتفحمة في كل الشوارع، والبيوت المقصوفة، والاشتباكات المدوية في كل مكان في بغداد. كنتُ أسمع صوت الاحتقان والغضب العراقي يتفجر في كل مكان حتى في حروف كلمة بغداد. ولكني لم أشعر بالحماسة لذلك. كان نضال يخرج فيقوم بالتصوير، ويطلب مني الخروج معه ويقول: هيا دعنا ننقل الحقيقة دعنا نصير صوت الغضب الذي يجأر في الشوارع هنا وفي كل مكان. وأنظر له بعينين خاويتين، أتأمل شيئًا بعيدًا لا أدريه، وأسمع أنات المعذبين، وفي عقلي تتحول كل الصور إلى مقاطع مرئية متحركة، وأكملها من خيالي، وأرى نساءً تغتصب ورجالا تقطع أجسامهم، وأسمع صراخا وأنينا وعويلا ونداءً واستغاثات وأشعر بالعجز أكثر، وأغوص في نفسي أكثر فأكثر، وأقوم من على سريري فأنتحي في ركنٍ من الغرفة، وأجلس مقرفصا حول ذاتي، وأنغلق أكثر فأكثر، وأضع أصابعي في أذني محاولا صمها عن ذلك الصراخ المؤلم الذي يمزق نياطي، وأحكمت إغلاق الباب ونضال جاء فاقتحم الغرفة، قال باكيا: لا تفعل في نفسك هكذا، قم وساعدهم. وأتأمله بعينين لا روح فيهما، كبلورتين من زجاج، فيصرخ فيّ: لا تدعهم يهزمونك يا نادر. وكنت أبحث عن صدى كلماته داخلي فلم أجد سوى هوةٍ عميقة لا قرار لها، تبتلع كل شيء.

أصول المهنة

قال ضاحكا وهو يضم مديحة العارية: إن المارشال معجب بكِ يا ملعونة.

قالت متزلفة: أنا ملككَ أنتَ يا باشا.

ضحك وقال: أنتِ أصيلة يا بنت يا مديحة.

ضحكت ضحكة مائعة وتسللت يدها إلى خصيتيه تدلكهما، لكنه أزاح يدها وقال: أريدك أن تستعدي لأني قررت أن أنقلك من القناة الترفيهية إلى القناة الإخبارية، ستقدمين معي برنامجي الجديد (نَهَر اليوم) كي تتعلمي أصول المهنة ثم سأصنع لكِ برنامجا خاصا.

قبلت حلماته وهي تقول: أنا رهن إشارتك يا باشا. مال عليها يقبلها وضحك وقال: المارشال يريدك.

أجابته بهدوء: ما تراه يا باشا.

فهز رأسه راضيا وهو يتأمل جسدها العاري البض الشهي.

.....

ملأت صور سجن أبو غريب كل القنوات، ونشرها محمد جمعة في برنامجه اليومي وهاجم أمريكا بشدة، وندد بهذه الفضيحة المدوية، وقال إن أمريكا التي تدس أنفها في شئون نَهَر محاولةً أن تملي على المارشال إرادتها هي دولة من الكذابين، يقولون إن العراق فيها أسلحة دمار شامل ولم يجدوا فيها شيئًا، ثم هي الآن تحاول التدخل في شئوننا الداخلية بحجة حقوق الإنسان وهذا الهراء كله، فليذهبوا إذًا ويطبقوه على أنفسهم أولًا، أم الإنسان الذي له حقوق هو الأمريكي فقط؟

كانت خطبة عصماء، وسمع المخرج يمدح كلماته عبر السماعة في أذنه، وجاءه اتصالا مباشرًا من المارشال يخبره بأن الحلقة كانت جيدة، وفي غرفة النوم جاءت مديحة للاحتفال، لكنه أخبرها أنه مرهق ولا رغبة لديه، لم تعلق على كلامه ثم قالت: هل يمكنني أن أسأل شيئًا يا باشا؟ اسألي يا مديحة. كيف نشتم أمريكا وهي حليفتنا؟ قال مبتسما: حتى لو وكانت حليفتنا فهذه مصالح مشتركة، لكننا لن نسمح لهم بالتدخل في شئوننا. قالت مديحة: لم أفهم يا باشا. قال لها: إنهم يحاولون إيذاء الوطن بتجنيد عملاء من المعارضة يا مديحة، ونحن دورنا أن نفضحهم ونفضح أمريكا، إن بلادنا تتعرض لأخطار عظيمة من كل الجوانب، هم خبثاء يدعون الصداقة وهم يريدون لنا ألا ننهض وأن ينتزعوا منا مكانتنا الرائدة في الشرق الأوسط، العالم كله يتآمر علينا وعلينا أن نوعي الناس، هذا هو دورنا الوطني، نحن لا نختلف عن رجال المخابرات مثلًا في شيء، هل فهمتِ؟

قالت مديحة: يا حبيبتي يا نَهَر! ثم استدركت: أتمنى لو أستطيع أن أخدم الوطن بشكل أكبر! قال مبتسما: بالضبط لهذا السبب أريدك معي، بهذا الحماس الوطني ستكونين مذيعة ناجحة يا بنت. فابتسمت: تلميذتك يا باشا. فضحك وطلب منها أن تذهب لأنه يريد البقاء بمفرده قليلًا، فقامت وغادرت الغرفة.

تسحب وأغلق الباب برفق، وألصق به أذنه حتى تلاشى تمامًا صوت الخطوات، ثم أدار المفتاح مرتين، وهز مقبض الباب ليتأكد من انغلاقه، ثم خلع ملابسه بسرعة منفعلًا، واستلقى على السرير عاريا، شغل حاسوبه الشخصي، ودخل لملف صور أبو غريب، وفتح صورًا لعراقيات عاريات يتحرش بهن أمريكان، وصورًا بها انتهاكات جنسية، وأخذ قضيبه القصير ينتصب مستثارًا من الصور، ثم فتح فيديو يظهر اغتصاب عراقية على يد الأمريكان مصور بالإضاءة الليلة الخضراء، كان جنديا أمريكيا يمسك امرأة عراقية من الخلف ويضربها على رأسها ويميلها لأسفل ويحاول رفع جلبابها البيتي الذي يظهر أبيض في الفيديو ليغتصبها، وزملاؤه يضحكون، ويدوي صوت طلقات نارية في غرفة قريبة تتجه إليها الكاميرا باهتزاز

ويخرج جندي منها يقول: إنه قد قتلهن جميعًا هاته العاهرات! ثم يصوب بندقيته ناحية رأس العراقية ويهددها بالقتل هي أيضًا، والأمريكي الذي خلفها يخلع بنطلونه ثم يلجها وهي تصرخ مستغيثة، وحين صرخت قذف محمد جمعة منفعلًا مستمتعا، وهو يلهث، ويتخيل أنه هو الأمريكي، وأن العراقية هي ندى. أغلق حاسوبه بضم الشاشة على المفاتيح في حركة عنيفة، وأخذت بطنه الضخمة ترتفع وتنخفض وهو يلهث متعرقا من تحت إبطيه ومن جبهته. أشعل سيجارًا وزفر دخانه في حنق وندى تجول في مخيلته ترتدي قميص نومٍ أبيض شفاف، يصل لركبتيها، ويظهر منه حلمتاها بارزتين نافرتين.

وماذا أفعل إذًا أكثر مما فعلت؟ أرسلت من تحبه إلى الجحيم ولم يتغير شيء! يقول لنفسه. أرسل من يراقبها وعرف بعلاقتها بنادر، وأنها تسكن في بيته، هددها في البداية أنه سيقول لزوج أختها الحاج رزق، لكنها قالت له: اذهب أنتَ وهو للجحيم. قال لها غاضبا: سنرى من سيذهب للجحيم. ثم هدأ وقال ملاينا: أنا آسف، أنا لا أريد غيرك، أنا قلت ذلك من غيرتي، أنا أحبك، وأريد أن أجعلك ملكة. أغلقت السماعة في وجهه. ظل يفكر ليالٍ طويلة، قال: هل يصنع بنادر ما صنعه بذلك الولد زمان، هل يبلغ عنه أصدقاءه في الأمن الوطني فيقبضوا عليه وينتهي كل شيء؟ قال لنفسه: لا، لن أصنع منه بطلا في عينيها. إذًا ما الحل؟ قال: أرسله لأفغانستان. لكن صوت الاشتباكات القادم من بغداد جعل الحل مثاليا، قام باتصالاته المهمة، فعرف أن نادر قدم بالفعل طلبا للسفر إلى بغداد كمراسل، وأن الطلب لم يُوافق عليه بعد، ضحك محمد جمعة وقال وهو يداعب عانته: يبدو أن الأمور تسير في طريقها الصحيح. بهاتفٍ منه تم الموافقة على الطلب، وصدر قرار إرسال نادر كمراسل إلى بغداد.

اتصل بندى محاولا إظهار حزنه لرحيل حبيبها، وسألها بخبث: لماذا لم يأخذك معه؟ ألم تتزوجا؟ سكتت ندى قليلًا ثم قالت له: أنتَ كذاب! نادر لم يرحل! ضحك ساخرًا وقد فوجئ بأنها لا تعرف: إذًا هو لم يخبرك أنه قدم طلبا للذهاب إلى العراق؟ سمع صوتها يختنق ثم قالت بصوتٍ أشبه بطلقات الرصاص: اسمع! سواء رحل نادر أم لم يرحل، سواء قدم طلبا كما تقول أم لم يفعل، وسواء كان لكَ دورٌ في ذلك أم لا، أنا لن أتزوج من إنسان فاسد ووصولي وانتهازي ولا مبدأ له مثلك! أنا لست مثلك ولن أكون أبدًا، وأنا أفضل الموت على أن أشم رائحة فمك الكريهة الذي لا يقول غير الكذب، هل تفهم؟

ثم أغلقت الهاتف في وجهه، كرر لنفسه يومها: إنسان فاسد ووصولي وانتهازي ولا مبدأ له! أكثر من مرة، ثم ابتسم ابتسامة واسعة جدًّا، ياه إنه لم يسمع من أحدٍ مثل هذا الإطراء منذ زمن!

مسرحية

وقفوا ثابتين على خشبة المسرح، وأخذت أجول بينهم، أرتشف من فنجان القهوة الصغير، أفكر في الفصل الجديد الذي سأكتبه في المسرحية، قال المارشال: متى ينتهي هذا السخف؟ قلت: حينما أريد. قال: أنتَ لا تريد شيئًا! أنا فقط أريد! هل تفهم

ذلك؟ لم أرد عليه وجلست إلى الكرسي في منتصف الساحة متأملا وقلت وقد اشتعلت الأفكار في رأسي: هيا هيا ابدأ..

أشعلت موسيقى Audiomachine – Waves of fire وضحكت لتناسب الاسم مع الفكرة المتوهجة في عقلي، أمسكت القلم وكتبت فبدأ العرض:

تتحرك الجوقة بمناماتهم الملونة مغمضو العيون فاغرو الأفواه، يمدون أيديهم أمامهم، ويتحركون بخطوات رتيبة ممطوطة فيصطدمون ببعضهم البعض وبالجدران وتميل رؤوسهم وأيديهم وقد خرجت منها أحبال ثقيلة يمسكها محمد جمعة ومديحة ومرعي وسنقر، فيحركونهم يمينا ويسارا كما يتراءى لهم، وهم بدورهم يحركهم المارشال ممسكا بمقاليد خيوطهم، وفوقه وقف رجال ذوو أنياب حادة وعيونهم مغرقة في الكحل، وشفاههم ملونة بالأحمر الدامي، كمصاصي الدماء، وقفوا فوق كرسي المارشال يمسكون بحبل غليظ كان يحكم رقبة المارشال كمشنقة فيحركونه يمينا ويسارًا كما يتراءى لهم هم أيضًا..

والجوقة تتحرك في كل مكان، عمياء لا ترى، يتخبطون في بعضهم البعض، والمارشال يمسك أيضًا بخيوط جنوده ذوي البذات الحمراء الدموية والخوذات السوداء المعتمة، فيحركهم بخطواتٍ عسكريةٍ رتيبة، يحملون مشاعل متقدة بنار برتقالية وحمراء تتوهج وترتعش، يخرجون بها من جانب المسرح الأيسر ويتجهون صوب دكان نور، فيحطمون الأرفف بأرجلهم وسلاحهم وقبضاتهم، ويمزقون الكتب التي تقع عليها أيديهم، ثم يلقون فوقها المشاعل فتشتعل بالنار، ونور يهرول من دكانه وهو يعدل وضع نظارته فوق عينيه، يحاول إطفاء النيران دون جدوى، والجوقة العمياء تمشي في كل اتجاه وتصطدم بجدران المسرح وتلتفت وتسير على غير هدى، ويعطي المارشال إشارة غليظة فيلتف الجند حول نور في دائرة برتابةٍ شديدة، ويدوي صوت رعدٍ غليظٍ فجأة فيختلط بالموسيقى فترتفع العصي...

إظلام.

حوارٌ جانبي ١

- أنا عندي الحل.

- وما هو؟

- الحل في وجه جديد، وجه جديد تمامًا يأتي ليحاور معاليكم بمناسبة مرور سنةٍ على توليكم الفترة الرئاسية الجديدة في سبتمبر القادم، فنستطيع بذلك الحوار أن نظهر مدى ديمقراطيتكم، من ناحية أنه وجه جديد ليس محروقا، ومن ناحية أنه سيلفت انتباه الناس بجماله أيضًا.

- تعجبني يا فتى، تذكرني بشبابي.

- نحن تلاميذكم يا معالي المارشال.

- ومن هذا الوجه يا محمد؟ لا تقل لي مديحة!

- مديحة احترقت يا فخامة المارشال.

- من إذًا؟

- مذيعة تقرأ نشرة أخبار السادسة اسمها: ندى أحمد علي، وجمالها يحل من على حبل المشنقة!

- سنرى!

كان لا بُد أن أضحك

لم يكن رحيله مفاجئا. كأني اعتدتُ رحيل كل من أحبهم، هكذا، دون وداع. وكنتُ أرى الهرب في عينيه الهاربتين من عينيّ. أشم الكذب الخارج مختلطا ما بين حروف كلمته الأربعة: أحبك، ظاهرًا كاختلاط الزيت بالماء. وكذبت نفسي، قلتُ لأنفي: لا، أنتِ مصابة بالزكام. ثم قلتُ لشفتيّ: أنتما تكذبان، حين قالتا لي إن قبلاته صارت بلا طعم، صارت كريهة. هاهاها.. لا بُد أن أضحك، ولماذا لا أضحك؟ أنا الحمقاء التي فكرتُ وقلت: لماذا يتحول الرجال هكذا؟ وظننت أنه ربما يكون قد رغب في هذه المنطقة المحرمة التي أحميها دائمًا ولا أسمح له بالاقتراب منها إلا من فوق البانتي. أحيانًا كان يزيل يدي وأنا في عمق اللذة، ويداعبني، فألتهب تحت سياط يده، وأمد يده وأدخلها أسفل البانتي فيثيره هذا جدًّا، وينتفض ويشتعل معي كأن كل ما كان منذ دقائق لم يكن، وكأن الدنيا ستولد من جديد بين أيدينا. وأضحك، لا بُد أن أضحك، وأنا أوزع ثلاثين وردةً بيضاء على قبور مجهولة الأسماء، فكأنما أهدي الورد للأرقام، وأتذكرك يا أبي، يا أبي الصامت الذي يخاصمني، يا أبي البعيد الذي ترك لي كل هؤلاء الأموات ينوحون في أذني، وحمّلني هم العالم وتغييره، أنا التي فقط كنت أبحث عن شيء أؤمن به، عن شيءٍ أتشبث به، عن شيءٍ يجعلني أشعر بقيمة الأشياء كلها. وتقول لي يا أبي إنك لا تريد ليدك حين تعجز في ليلةٍ شديدة العتمة عن أن تجلب لكَ الماء، لا تريد ليدك ألا تجد يدي. وأين يدكَ أنت يا أبي الآن، كي تروي ظمأ ابنتك العطشى؟ يدك هناك يأكلها دودٌ حتى العظم، يدك هناك تلوح صامتة بكتاب وقلم، يدك هناك تشعل قداحةً بنزين صغيرة، وتشعل أوراقا كثيرة وعلى وجهك يرتسم الصمت كاملا مهيبا كأنما خلق لك وخلقت له. وكأنه لم يبقَ غيركما في الوجود، أنتَ وأوراقك المشتعلة، أصرخ محاولةً إطفاء النيران، لكنك تدفعني بعيدًا بقوة رهيبة، وثمة خواء رهيب يطل من عينيك يسيل مع انعكاس النيران في وجهك. هل فقدت إيمانك يا أبي؟ هل فقدت إيمانك بكل كلماتك التي جلست ليالٍ طوال تكتبها، كي تقف هكذا في الحمام وحيدًا في منتصف ليلةٍ عرجاء لتحرقها حتى التبدد، حتى تتحول رمادًا باهتًا لا هيئة له؟ ثم هكذا، هكذا أيضًا، مثل أوراقك، ومثل كل شيء، تأتي في ليلةٍ مكفهرةٍ وترحل عني دون وداع! أكنتَ غاضبا مني يا أبي؟ لماذا لا تجيب؟ الصمت يقتل، يقتل ببشاعة ويمزق الأوردة وريدًا وريدًا، والشرايين تنزف قطرةً قطرةً فيصير فعل الموت نفسه أبديا. تخيل أن تعيش عمركَ كله تموت! هاهاها أسمعكم، أسمعكم كما أسمعكم كل ليلةٍ، أصواتكم تصير في خلفية عقلي أتناساها كدقات الساعة، التي ما أن يلبث الصمت يحكم حتى تتحداه وتفر معلنةً ثورةً على طغيانه، أو لعله يبتلعها فتصير هي الأخرى

جزءٌ من جبروته العتيد، وأنتم أيضًا تصيرون جزءً من الصمت بصخبكم. نعم أسمعكم، أسمع هذيانكم، ترهاتكم، شتائمكم، بؤسكم، أسمع موتكم. أنتم موتى موتى موتى موتى!

ولعلي كنتُ أنا أيضًا.. هاهاها اضحكي يا ندى، اضحكي. نعم، سأضحك، لا بُد أن أضحك.. هاهاها هذه الليلة.. هذه الليلة التي كأنها البارحة، حين ذهبتُ إلى شقته وقد قررتُ تناسي كل أحاديث الخوف، وكل الهرب في العيون، وكل الكذب من الشفاه، قررتُ أن أمنح من جديد كي أنتصر ولو لساعةٍ على هذا الخوف الذي يجعل من أحبهم يرحلون دون وداع، وجئته، لا أرتدي قطعة القماش السفلية أسفل البنطلون، وقلت لنفسي سأبدأ معه، وحين سيخلع عني بنطلوني سأفاجئه، سيضحك، وستلتهب ذكورته لأجلي من جديد، وسيصير طعم قبلاته أحلى، وسيلجني، آه هذا مخيف لكن لا يهم، وإن صرتُ حاملا؟ لا يهم سنتزوج، حين يلجني سنكتمل، سنتزوج، لا تخافي يا بلهاء، لا تضيعي كل شيء بسبب هذا الخوف الذي لا ينتهي، الناس الناس والله والمجتمع وأشياء كثيرة، تقف حولي تقيدني بألف طوق حول رقبتي، لكني سأمزق ذلك كله بين فخذيك يا نادر.. هاهاها اضحكي يا ندى، اضحكي.

لأني لم أجد غير الضحك أرد به على كلمات أمي، التي تقذفها في وجهي ليل نهار، كمني نادر الذي بهت لونه وفقد بياضه، فكأنما صار يبول عليّ. أجسادنا لا تعرف الكذب، لكن ألسنتنا تكذب، تكذب دائمًا. وأصرخ في وجه أمي: لا أريد الزواج منه! فتقول لي مصطنعة الهدوء: لماذا يا ندى؟ أضحك. وماذا يمكنني أن أفعل وهي تحاول تقليد أبي غير الضحك؟ أقول لها وقد اكتفيت من كل ذلك: لن تشبهيه أبدًا، لن تشبهيه. وهذا المحمد جمعة الوسخ لن يصير حتى نعلا في حذائه، هو مثل هذا الحقير الذي تقولون إنه زوج أختي. احترمي نفسك يا قليلة الأدب.. فليحترم هو نفسه، متزوج من ثلاث، والرابعة أختي، ورغم ذلك لا يملأ عينه ويتحرش بي! ما هذا الكلام يا بنت؟ هذه هي الحقيقة، الحقيقة التي لا تريدين أن تسمعيها أنتِ أو بنتكِ، أو لعلكما تعرفانها فعلًا لكنكما تخشيان على البنك أن يغلق أبوابه في وجهيكما! اخرسي يا عديمة التربية يا بنت الكلب. أنا بنت كلب؟ هاهاها أنا بنت كلب! نعم الكلب كلب فعلًا لأنه تزوجك يا ماما! هل تعرفين ذلك؟ أنتِ من قتله وليس أوهامه كما تصرين أن تقنعي نفسكِ! أبعد العمر الطويل هذا تأتين أنتِ لتقولي في وجهي هذا الكلام؟ أنا التي.... أضع سبابتي في أذني وأرى شفتيها تتحركان: بلا بلا بلا بلا... ثم بلا بلا بلا بلا... يبدو شكل شفتيها مضحكتين وأنا أتخيلها تتحدث هكذا بالتصوير البطيء، فترتفع شفتاها وتنخفضان وتنثنيان وتنفردان وتتبعجان وتتفلطحان بأشكال كوميدية.. هاهاها اضحكي يا ندى، اضحكي.

وما الذي تنتظرانه من قواد مثل رزق هذا؟ يأتي بالبنات الفقيرات الجميلات ذوات الأجساد البضة اللينة التي لم يطمسها إنس ولا جان، ويمنحها لأصحاب العقال والجلابيب، أو لهؤلاء لابسو البذلات الأنيقة والنظارات الشمسية المذهبة الإطارات. يزن البنت فوق ميزان، ويأخذ مقابلها ذهبًا. لا أعرف لماذا أتخيل هذه الصورة دائمًا، كأنه سوق جواري قديم، لم يصل إليه بعد أننا في الألفية الجديدة، أو لعل ذلك بالضبط سبب وجوده؛ لأننا في الألفية الجديدة، في العالم الجديد. ثم يعلل

عمله بأنه يزوجهن على سنة الله ورسوله، نعم يتزوجن أسبوعا! يتزوجن فقط كي يقتحمهن قضبان تبول بترولا! فقط كي يمسحن دم عفتهن السائل من أغشية بكارتهن الممزقة بأوراقٍ خضراء! أسبوعٌ تلتهب فيه مهابلهن، وترتجف عيونهن دمعًا مكتوما، فقط لأجل هاته الأفواه الجائعة في بيتٍ فقير، فيه أب محدودب الظهر، مرقع الجلباب البني، منبت اللحية، نتن الرائحة. وماذا بعد الأسبوع يا حاج رزق؟ يلقوهن إلى بحر الحياة المضطرم المسجور، المندفع موجه كقطار مسعور يبحث عن مصدٍ هائل ليصطدم فيه، كي ينقلب هو وركابه جميعًا ويحترقون. والحمقاء، الحمقاء فقط، التي ترفض أن ترتكب ذنب القتل! هؤلاء أطفال لا وجود لهم! لا حياة لهم! هؤلاء أطفال جاؤوا ليموتوا، جاؤوا ليكونوا ثمرة العالم الجديد، ولا أعتقد أن أحدًا فيهم سيكون موسى الذي سينشأ في كنف فرعون المتجبر ثم يقضي عليه! بل هم سيكونون فراعين وفراعين، سيكونون نعم الابن، وسيرثون من أبيهم؛ العالم الجديد، كل صفاته البشعة الوضيعة. ولا حتى أعتقد أن ابني كان سيكون موسى الذي سيقض منام فرعون ويحمل شعلة الثورة ويشق البحر. أنادر فرعون؟ وابني؟ ابني! هاهاها نعم سأضحك، لا بُد أن أضحك.. تلك الليلة وأنا أدخل لا أرتدي سروالا داخليا أسفل بنطلوني فأقول لنادر إنني مشتاقة إليك، وأريد أن أنجب منكَ طفلا، تلك الليلة التي انقلب فيها وجهه وقال بضيق: لا أحب الأطفال! لم يكن ذلك متوقعا، لكنه أيضًا لم يكن مفاجئا، هاهاها وناداني ليلى، وسمعت صدى الكلمة الممطوطة في هوةٍ عميقة تبتلعني، كأن الكلمة تمتد إلى ما لانهاية وإلى الأبد، وسألته: من ليلى؟ أنكر. لماذا تنكر يا نادر؟ تلك اللمعة في عينيكَ حين تقول ليلى تعترف بكل شيء! أجسادنا لا تكذب يا نادر. هاهاها وتذعن في النهاية وتقول لي سأخبرك بالحقيقة! وأنا؟ أنا وقفتُ أقول لكَ خطبة عصماء عن الخوف وعن الحب وعن الغباء. كيف بكيتُ ساعتها ولم أضحك؟ كان لا بُد أن أضحك!

آه يا أبي! هل تذكر ذلك اليوم حين قلتُ لكَ إني أريد أن أتزوج من رجلٍ يشبهك؟ اليوم يا أبي لا رجل يشبهك! ابنتك رشا تزوجت من قواد، قواد ترك كل بنات الدنيا وجاءها هي بالذات، ربما لأن نهديها كبيران! لكن أنا وأنتَ نعرف الحقيقة يا أبي، هو فقط تزوج بنت الأستاذ الدكتور المحامي الحقوقي أحمد علي الطاهر، نعم، ينسون دائمًا أن يكملوا، الذي قتله المجتمع والمدفون في مقابر خيرية وسط مجهولين لعلهم هم أيضًا كانوا يغيرون العالم! هل وجدتَ في صحبة المجهولين راحةً يا أبي، أنتَ الذي كنتَ تدافع عنهم في الحياة، ولم ينصفوك؟

آه يا أبي، وآه يا أحمد، وآه يا نادر، تركتموني لهذا الوغد برائحة فمه الكريهة التي تتسلل لي عبر الهاتف، وهو يطلب ودي، وأقول لنفسي إنه لا يشبه أبي في شيء! لكنكَ قلتَ يا أبي المهم أن تحبيه! وأنا لا أحبه، هو إنسان وصولي وانتهازي وحقير، إنسان فاسد من الداخل! ها! يا ندى الذي بيته من زجاج....! ماذا تقصدين؟ أقصد ما فهمتِه! من يتحدث عن الفساد؟ ولياليكِ مع نادر في شقته في عتمة الليل الشاهدة عليكما؟ ماذا كانت؟ آه نسيت! أنتما متزوجان؟ أوه آسفة! أنتما حتى مخطوبان؟ هاهاها اضحكي يا ندى! اضحكي! أنتِ أفسد من محمد جمعة! هل تعرفين ذلك؟

لأنكِ تكذبين على نفسكِ وتعيشين وهم الطهر والصلاح! تكذبين! تكذبين! كاذبة! كاذبة! كاذبة!

آه..

لماذا نفسد يا أبي؟

رسائل

"عزيزي الله؛

لم ترد على رسالتي الأخيرة، التي استفسرتُ فيها عما يغضبك مني، ولم تأتِني في أحلامي، ولم ترسل لي أي بشاراتٍ أو أماراتٍ أو شيئًا يطيب به جرح صدري الغائر.

إنني وحيدٌ! رغم كل هذا الذي يحيط بي من نجاح فلم أرَ فيه بشارة منك، بل شعرت به نقمةً! فهو نجاحٌ أنتَ تعرف سببه جيدًا. إنني كلما أردتُ أن أنسى وأن أنام تنتابني الذكرى ويفر النوم هاربا، ويتجلى لي نضال بجسده السمين قليلًا وهو يبتسم ابتسامة أشعر بها تمزقني ألف مرة. لماذا يحدث كل ذلك يا رب؟ ذلك اليوم البعيد منذ سنتين أو يزيد، يوم اتصل بنا فهد السامرائي، بياع الكتب الذي يقف في دكانٍ في شارع المتنبي، قائلا إن لديه سبقا صحافيا، فهرولنا أنا ونضال كي نبث مباشرا من قلب الحدث، قلنا لن يسبقنا أحد، وانطلقنا تحملنا سيارة البث نحو سجن أبي غريب، في الطريق قال نضال: هذه فرصتنا لنخبر العالم بالحقيقة التي يرفض سماعها. قلت: الحقيقة دائمًا واضحة. قال: نعم ولأنها تحملنا أعباء حمايتها ونشرها ونصرتها نتملص منها ننكرها وندعي أنها غير واضحة ربما كصورة مبكسلة ثم نتعامى عنها لنقول في النهاية: ها! وما ذنبنا؟ المشكلة في الحقيقة هي التي غير واضحة! سكت وهو يتأمل وجوه الجند والناس التي تمر عبر الطريق ثم قال: انظر حولك فالخراء نفسه في كل العالم؛ إنهم يكذبون فلا تصدقهم إن قالوا لكَ غير ذلك! الخراء لا يتجزأ. قلت: أخشى أن يمسكوه قبل أن نصل. قال: ربما جعلوه ينكح ابنه.. يتفننون.. لكن لا بأس هذه الكاميرا لهم بالمرصاد، ستطاردهم، لن نتخلى عن هذا الرجل لأن هذه الكاميرا الحقيقية هي التي ستظهر للعالم خراءه الذي يحاول مداراته دون جدوى.. الرائحة شنيعة والأمر لا يحتمل!

وعلى مسافة كيلوين من الأمتار توقفت السيارة وطلب منا السائق العراقي أن نترجل لأنه لن يستطيع أن يدخل أكثر من ذلك بسبب مرمى النار الأمريكية المتمركزة في أبراج السجن. نزلنا وارتدينا الخوذات الزرقاء المكتوب عليها بوضوح: صحافة. وعلى بعد كيلو مترا وجدناه كما قال فهد: شيخا واقفا وحيدًا يحمل لافتةً بيضاء كتب عليها بخطٍ واضح أسود باللغتين العربية والإنجليزية: أريد ابني. حييته ثم طمأنته واعتدلت ووقفت وهو إلى جواري وظهره إلى الكاميرا ووجهه وظهري أنا إلى السجن الذي يظهر فوق أسواره ومن أبراجه الجنود الأمريكيون الذين ما إن لمحوا الكاميرا حتى أخذوا يشيحون لنا بأيدينا ويأمروننا بالابتعاد. قلت: أعزائي المشاهدين؛ إننا بالبث المباشر اليوم بصدد مأساةٍ جديدة، هذا

الواقف جواري هو الشيخ حسين العراقي الذي رأى صورة ابنه من ضمن صور المعتقلين المعذبين في فضيحة سجن أبي غريب التي بثتها القنوات في الأيام القليلة الماضية، إن الشيخ حسين لم يجد ما يفعله، وسط هذا الصمت العالمي الرسمي، والإذعان العربي المؤسف، لم يجد ما يفعله لإخراج ابنه من هذا المذبح غير الوقوف هنا حاملا لافتة مكتوب عليها: أريد ابني. كان الأمريكان يوجهون إلينا تحذيرا مسموعا الآن وسمعنا صفارات الإنذار تدوي في السجن، تحرك نضال عدة خطوات، ليظهر الشيخ حسين الواقف وحيدًا تملأ وجهه علامات التصميم والعزيمة تتخلل بين تجاعيد وجهه الظاهرة، وسألته: سيدي، ماذا فعل ابنك؟ قال الشيخ حسين: ابني لم يفعل شيئًا سوى إنه عراقي! يعود نضال بسرعة بالكادر إليّ والسجن خلفي وأنا أقول: هذه هي الحرية الكذبة التي جاءت بها أمريكا مبررة حربها على العراق. وبدأنا نرى البوابات تفتح، ويخرج منها جنود مهرولون بكامل عتادهم بكلابهم وبنادقهم. صرخت في الشيخ: هيا بنا يا شيخ هيا سيمسكوننا. قال دون أن يحيد بصره ودمعة تسقط من عينه صلبة: لن أبرح حتى يخرج ابني أو أدخل إليه. التفتُ إلى نضال وقد استبد بي الخوف: هيا لنهرب يا نضال. كانوا يشيرون بسلاحهم إلينا كي نخفض الكاميرا من بعيد وسمعنا صوت محرك سيارة يجأر وهي تندفع من بوابة السجن لتأكل الطريق الرملي، صرخت فيه: سيقتلوننا. صاح نضال: هذه لحظة الحقيقة فاثبت أو اتركني! صرخت: سيقتلوننا يا نضال، ولابد أن يعرف العالم ما يجري. ماج: العالم كله يشاهد الآن على المباشر، وأنا لن أترك هذا الرجل، الكاميرا هي السلاح الوحيد الحقيقي الذي يملكه هذا الشيخ لابنه ولنفسه. صرخت والخوف يملأني: لن أتركك يا نضال. وكنت أرى الجنود يهرعون وقد أخذوا يطلقون طلقاتٍ تحذيرية وسيارتهم تقترب جدًّا، قال نضال: اذهب أنت يا نادر، اذهب ولا تجعلهم يزورون الحقيقة. وما دورنا يا نضال؟ الآن أتساءل ما دورنا حقًّا؟ أن نعرف الحقيقة لنتيقن من.. من ماذا؟ من لا شيء! وما الذي سيحدث، ما الذي حدث فعلًا، غيرِ شجب وإدانة وصورةٍ جديدة ستضاف لقاموس التعذيب لعل بطلها يكون أنتَ نفسكَ يا نضال؟ أو هذا الشيخ المكلوم في ابنه؟

وحين شاهدت الفيديو الذي تناقلته وسائل الإعلام وأنا في المستشفى مصابا في قدمي، كان الجميع يهنئوني على سلامتي، وتساءلت أين أنا، ثم تساءلت أين نضال، ورأيت في الفيديو وهو يصرخ فيّ اذهب، ورأيت الكاميرا تهتز بين يديه وتنخفض وتظهر أحذية الأمريكان العسكرية، وصوت نباح كلاب، وصوت سباب بالإنجليزية وأحدهم يصرخ فيه أطفئ الكاميرا وآخر يقول – غير مدركٍ أن البث كان مباشرًا – أحضر الشريط أحضر الشريط، قبل أن تسقط الكاميرا على الأرض ويدوي صوت طلقات نارية ربما واحدةً منها هي التي أصابتني قبل أن يسود الظلام.

انهمرت الاتصالات على غرفتي في المستشفى من كل مكان في العالم، وانهالت عليّ عروض العمل كمراسل حر لعدة قنوات كبيرة أجنبية وعربية. ولم أكن قد أفقت بعد بالكامل، حين جاء الطبيب وقال لي مبتسما وهو يقيس لي الضغط: حمدا لله على سلامتك يا بطل! سألته عما حدث، فقال: نحن الذين نريد أن نسألك هذا

السؤال، السائق الذي أحضرك يقول إنه تركك أنتَ وصديقك على بعد كيلومترين من سجن أبي غريب، خوفا من مرمى النيران، وشعر أنه يخونكم هكذا، فاقترب قليلًا حين سمع صوت الإنذار ورآك تركض مصابا فوضعك في السيارة قبل أن تفقد وعيك وأحضرك إلى هنا، ألا تذكر كل ذلك؟

ولم أتذكر شيء، وقلت إذًا الله لم يتخلَّ عني! عرفتُ أنكَ ساعتها من أنقذني، لكني تساءلت، لماذا لم تنقذ نضال أيضًا؟ لماذا تركتهم يأخذونه مع الشيخ المسكين؟ وهل سيجعلون الشيخ فعلًا ينكح ابنه؟ يا لقسوة هذا العالم الذي صنعتْ!

يا الله لماذا خلقت كل هذا الشر؟

أنا كذابٌ خائنٌ حين تركتُ نضال. كل الناس تهنئني على بطولتي، تهنئني على ديوان الشعر العظيم، الذي تعاقدت عليه مع دار نشرٍ كبيرة! وأين كانت تلك الدار؟ أم أن شِعري صار ذا قيمةٍ فجأة؟ كلامي لم يتغير لكنّي فقط تحولت من نادر الشاعر إلى نادر الشاعر البطل! ها أرأيتَ يا الله ماذا يفعل البشر؟ يحبون الزيف! يحبون الكذب! وأنا وأنتَ نعرف الحقيقة، أنا لستُ بطلا، أنا كنت خائفا فهربت، أما نضال فقد وقف لأجل الحقيقة، نضال هو البطل الحقيقي هو الذي يستحق أن تأتيه عروض العمل مع كل هذه القنوات كمصور حر، نضال هو الإنسان الحقيقي الذي قرر أن يقف ممسكا بخرطوم ماءٍ مواجهًا مؤخرة العالم لينظفها من الخراء! أما أنا؟ أنا أضرب رأسي في الجدار لأوهم فتاةً أحبها بأني بطل! بل لعلي أكذب في حبها أيضًا! أي بطولةٍ زائفة تلك التي نحياها! أي كذبةٍ تلك التي نعيشها! إننا نكذب على أنفسنا، نصنع كذبة كبيرة نملأ بها حياتنا الخاوية ونصدقها حد أننا نعيش فيها، وحين تصدمنا الحقيقة، حين تطرق على رؤوسنا بمطارقها الصلبة، نرتعب، ونتيه ما بين الحقيقةِ والوهم، ونظل هكذا مشتتين لا نعرف أين هي الحقيقة، رغم أننا نحن من ضيعناها منذ البداية. واليوم بعد كل هذه السنين: ما الحقيقة وما الكذب؟ هل كان حب ليلى كذب؟ هل كان حب ندى كذب؟ هل كان الحب كذب؟ هل كان الشعر كذب؟ هل كل هذه الكلمات المرصوصة فوق بعضها جميلة أفاقة مغوية شبقة في ديوانٍ تصدره دار نشر كبيرة كذب؟ وهل أنا نادر فعلًا أم هذا أيضًا محض كذب؟

إني بائسٌ وكل يوم تأتيني الكوابيس فأحلم بنضال والكلاب تنهشه، أو أراه وهو يُصعق معلقا فوق صندوق رفيع كستار جبار المعتقل صاحب الصورة الأشهر في سجن أبي غريب. وأسائل نفسي: ماذا قد تغير في العالم بتضحيتك هذه لأجل الحقيقة يا نضال؟ فقط صار جبانٌ مثلي بطلا! أخرج للناس في التلفزيون الإعلامي المناضل نادر فوده، فأصدح في آذانهم بالشعر وبالكلام الناري، وأنادي بالحرية وبالحقيقة وأنادي بكَ يا نضال! كلنا نضال! كلنا نضال! لكن ما الذي قد تغير فعلًا؟ وبعد كل هذه الأيام ماذا حدث فعلًا؟ قضايا رُفعت وشكاوى قدمها سجناء ممن تعرضوا للتعذيب، بمساعدة منظمة (CACI) الحقوقية، فرفضها القضاء الأمريكي، بالتحديد القاضي الأمريكي: جيرالد بروس لي، بحجة أن موضوع القضية حدث خارج الحدود الأمريكية، وبذلك حسب وجهة نظره لا يكون لهم الحق في رفع القضية في محاكم أمريكا! وماذا بعد التحقيقات الشاملة التي أجرتها الحكومة الأمريكية بعد انتشار الصور المشينة؟ وبعد معرفة حوادث الاغتصاب واللواط

والانتهاكات النفسية والجسدية والجنسية التي وصلت للقتل تجاه المعتقلين؟ ماذا بعد اتهام بعض أفراد الشرطة العسكرية من الرتب الصغيرة أمثال الرقيب مايكل سميث المشرف على الكلب في التحقيق؟ الرقيب سميث مثلًا حوكم بالسجن لثماني سنوات ثم خففت لاحقا إلى ثماني شهور! وحتى هذه اللحظة التي أكتب لكَ فيها الرسالة يا رب، أعلى رتبة عسكرية تعرضت لحكم هو النقيب شوان مارتن وحوكم بالحبس خمسةٍ وأربعين يومًا وغرامة إثني عشر ألف دولار فقط! وحقوق الإنسان والعدالة والمساواة و.. و.. و... !! كذب! كذب! كذب! كذب! كذب! ماذا تغير فعلًا؟ لا شيء! كلنا نضال! كلنا نضال! لا لسنا كلنا نضال! لسنا كلنا أحدًا! كل واحد هو واحد بذاته وهو وحده! كلنا نضال؟ لا لا لا أنتَ هناك وحدكَ، وحدَكَ تتعذب، وحدكَ تموت، وأنا هنا أنال كل البطولة. إننا نكذب، ندعي أننا نشعر بهؤلاء المعذبين لكننا في الحقيقة لا نشعر بشيء، إننا نرفل في النعيم، في الفنادق ذات النجوم العديدة، ويحاورنا نساءٌ جميلات بكل لغات العالم، وينهمر علينا المال كالمطر، نصرخ في وجه الناس وفي وجه أنفسنا: كلنا نضال! كلنا نضال! كي فقط نريح ضمائرنا كأننا نبرر لأنفسنا، نكذب على أنفسنا: لم نخسر القضية، لم نبع القضية، نحن نناضل من أجل الحقيقة. أي نضال ذلك الذي نفعله ونحن نرفل في النعيم؟! أي نضال ذلك الذي نصرخ به، ونحن ننام على أسرةٍ من ريش النعام، وأنتَ يا نضال لا تنام؟ ثم أقول لنفسي: وهل عليّ إذًا أن أذهب إلى سجن أبي غريب وأرفع لافتة أقول فيها: أريد صديقي؟ هل هكذا يكون النضال لأجل الحقيقة؟ هل حين يتم اعتقالي فقط أصير بطلا حقيقيا، ويتراءى لي النور فيبدد كل عتمة الصدر والنفس؟ وماذا قد يتغير في العالم إن فعلتُ ذلك؟ يا نضال هل عرفت أن ستار جبار صاحب الصورة الأشهر معتقلٌ بتهمة سرقة السيارات وليس بمقاومة الاحتلال؟ القضية ليست في القضية! كل ما هنالك أن ثمة أناس جبلوا على هذا الشر، فهل الشر الأصل يا صديقي أم الخير؟ وأين الخير في هذا العالم المليء بالكذب والخراء؟ المثخنون بالجراح في الحروب يسمون جراحهم دائمًا تفاهة، فالمرء إذا لم يخدع نفسه لا يستطيع العيش على الأرض! صدقت يا إيفان تورغينيف. صدقت. إننا نعيش في مرحاضٍ كبير وعلينا أن نكذب كل يوم مخدرين أنفسنا كي لا نفيق فتقتلنا الرائحة!

يقول أحمد مطر: كفرتُ بالشعر الذي لا يُوقف الظلم ولا يُحرك الضمائر! وما الشعر إلا كذب؟ كذبٌ يا مطر! وهل رُزقنا الشعر إلا لنبتلي؟ وفي برنامجي الجديد أبدًا كل حلقة بجزءٍ من قصيدة لأمل دنقل، وكأن كتاب الأعمال الكاملة لا يزال معي! وقصيدة غدًا ستكون:

كنتُ في كَرْبلاءْ

قال لي الشيخُ إن الحُسينْ

ماتَ من أجلِ جرعةِ ماءْ!

وتساءلتُ

كيف السيوفُ استباحتْ بني الأكرمينْ

فأجابَ الذي بصَّرتّه السماءْ:

إنه الذهبُ المتلألئُ في كلِّ عينْ.

إن تكُن كلماتُ الحسينْ..

وسُيوفُ الحسينْ..

وجَلالُ الحسينْ..

سَقَطَتْ دون أن تنقذ الحق من ذهبِ الأمراءْ؟

أفتقدرُ أن تنقذ الحقَّ ثرثرةُ الشعراءْ؟

فغدًا الاثنين سأذهب لتغطية طقوس إحياء ذكرى عاشوراء عند الشيعة، يعذبون أنفسهم كل عام ويشجون رؤوسهم، ويلطمون وجوههم، ويقطعون لحمهم بسيوفٍ وخناجر وسلاسًل ملتهبة، يحاولون التعبيرِ عن الندم لذنبٍ اقترفه أجدادهم حين قتلوا الحسين، لعل هؤلاء قد أدركوا الحقيقة فعلًا؛ ألسنا هنا، جميعًا، جئنا هذه الدنيا لنكفر عن ذنبٍ لم نفعله، ارتكبه أبونا؟

كلنا نضال! كلنا نضال! كلنا الحسين! كلنا الحسين!

كلنا مسحوقون! كلنا دُمى بأيدي مخاوفنا وأوهامنا، نُسحق ما بين واقعنا وبين أحلامنا، وكأننا لنا أصلًا حق الاختيار! هل لنا حق الاختيار؟ أم نحن مجرد دُمى في منظومةٍ عبثيةٍ لا معنى لها! هل حقًا لنا حق الاختيار؟ فلماذا لم نختَر قبل المجيء للحياة؟

يا الله لماذا جعلتَ الحياة بهذه القسوة؟

أريد أن أنام يا رب! ألا ترحم صديقك من هذه الكوابيس؟ ألا تخلصه من كل هذا العذاب؟

نادر

الأحد تاسوعاء محرم

28 يناير 2007

بغداد "

كل شرفاء العالم

وتتركني يا نادر، هكذا، بعدما هربت من كل الدنيا إليكَ، وقررت أن أكتشف بكَ ذاتي، أن أهزم خوفي، وأن أحارب، وأن أغير العالم.. وأخبركَ عن زوج أختي، فتقول لي: اغضبي، ثوري! وأقول لكَ عن محمد جمعة، فتصرخ فيّ: ثوري، اغضبي! وأنا سمعتُ كلماتك، فغضبتُ في وجهكَ أنتَ! فلماذا غضبتَ أنتَ؟ وتقدم طلبا للرحيل، وكأنكَ كنتَ هنا أصلا! وكأن الرحيل يحتاج لطلب! أنتَ رحلتَ منذ زمن يا نادر، ربما منذ اليوم الذي جئتك أحمل حقيبتي الوحيدة التي فيها كل حياتي،

وقفزت في حضنك أبكي، أنتحب، وأنتَ واقف أشعث الوجه، مهلهل الهيئة، وحين أنتبه أسألك: ما بك؟ فتقول في لا وعي: لا شيء كنتُ أكتب! ذلك اليوم الذي أشاهده الآن كأنه فيلم في سينما رخيصة بالأبيض والأسود: وأنا أجول في شقتك، مرتدية قميص بيتٍ يظهر في الفيلم رماديا، فأرتبها هنا وهناك، وأنسق الأزهار في المزهرية، وأدندن لفيروز: إهديتني وردة، فرجيتها لصحابي، خبيتها في كتابي، زرعتها ع المخدة، واهديتك مزهرية لكن بتداريها، وأنسى دائمًا الجملة التي تليها فأغمغم ضاحكةً ثم أكمل: فضاعت الهدية..

وبعد ستة وعشرين شهرًا من رحيلكَ يقول لي: أتيتك بهدية. فأقول: لا أريد منكَ شيئًا. فيقول: ألا تعرفين الهدية أولا؟ فأكرر: حتى لو كانت قطعة من السحاب لا أريد منكَ شيئًا. يقول: أنا الحقيقة لا أعرف لما تتعاملين معي هكذا! أنا لم أعدك بشيء وأهرب منكِ إلى العراق! وأنا لم أطلب منكِ أن تهربي من أهلكِ لأجلي، أنا جئتكِ من الباب بكل احترام، وها أنا أبحث لكِ عن شيء تستحقينه، لقد حدثت المارشال بشأنك وقرر أن تكوني المذيعة الوحيدة التي ستجري معه الحوار خلال أسابيع.. ماذا؟! نعم أقول لكِ! هذه هي هديتي! لكن هديتي لا تُقبل وحدها! لكن لن نتحدث في ذلك الآن، المهم أن المارشال لديه شرط...

شرطٌ واحد يا ندى لكي تسكني معي. فيصيبني ذلك بإهانة لا أعرف لها سببا. هل تتشرط عليّ يا نادر وأنا الذي جئتك وحيدة هاربة من كل الدنيا؟ ونسيته، نسيتُ شرطك الذي لم يكن سوى كلاما كذبا على كل حال ككل كلامكَ لي. وتتركني لمن؟ لمحمد جمعة كي يخبرني أنك طلبت نقلك إلى العراق، لمحمد جمعة ليقول لي إنك سافرت إلى العراق مراسلا.. وأكذبه، وأكذب عيني التي ترِاك على شاشة التلفزيون، وأسمعه يقول لي إنه على استعداد أن يبدأ معي صفحةً جديدة، ولا يهتم بما حدث بيني وبينك ولن يحاسبني إلا منذ اللحظة التي سنكون فيها معًا، أنا وهو! أقول له: اتفوو! وأغلق الهاتف في وجهه. أتأمل وجهكَ الشاحب، وجسدك الذي نحل، وفي اليوم الموالي، أسمع القناة كلها تسألني عنكَ، كيف سافر إلى العراق مشيا؟ كيف سافر ركضا؟ وأسمع أسئلتهم الخرساء المنسابة من أعينهم: هل هرب منكِ يا ندى؟ ماذا حدث بينكما ليهرب؟ وأصرخ: الناس الناس الناس! الموتى الموتى الموتى! وأنا التي كنتُ أبحث عنكَ أسبوعا داخل ذاتي كالمحمومة البلهاء، أنتظركَ في بيتك، وأقول سيعود، إن ليلى الماضي الذي لا يريد أن ينساه لكنه سيحسم قراراته مع نفسه وسيعود، ألم يكن ذلك شرطك يا نادر؟ شرطك الذي كذبت وقلت إني نسيته؟ أنكَ حين ترغب في البقاء وحيدًا يجب عليّ أن أتركك لذاتك، أتركك لقوقعتك، وألا أقحم نفسي؟ وتركتك يا نادر، تركتك وأنا لا أعرف أين أنتَ، ولا أين أنا، وحيدة في شقتك، غريبة في شقتك، تضيق بي كأنها تلفظني، فأقوم وأفتح الباب وأقول سأراه واقفا خلف الباب، ثم لا أجد سوى الخواء، وأصوات الفئران تخشخش في المواسير، وأشعر بأيدٍ خفية تخرج من شقتك وتدفعني خارجها تلفظني، لكني لا أشم بالخارج إلا البرد والعراء، فأرتمي للداخل مسرعة، والغربة تمزقني، أغترب داخلي، ما بيني وبين نفسي، كأننا غريبين نركب جوار بعضنا حسب أرقام تذاكرنا في قطار ذهابٍ فقط بلا عودة. راكبين سمجين لا يتبادلان

أطراف الحديث وينافسان بعضهما بصمتٍ على المسند الوحيد في منتصف الكرسيين غير مدركين أن القطار سينقلب حتما إن فاز أحدهما بالمسند، وأنه كتب عليهما الصراع عليه للأبد! وأبكي، وأنا أسمع صدى الكلمة الممطوطة: ليلى يملأ جنبات شقتك، أبكي أبكي أبكي، وكان لا بُد أن أضحك، نعم، كان لا بُد أن أضحك وأنا أرى الجدار الذي شججت رأسك فيه كي تقنعني بأنك بطل، كان لا بُد أن أضحك وأنا أرى الكذبة جلية متجسدة عمودًا صخريا منتصبا يشج رؤوسنا. لكني ضحكت حين رأيتك تملأ شاشات التلفزيون وتصرخ هيا نهرب يا نضال، ضحكت وقلبي يدق بعنف والدمع يفر من عيني، وضحكت وأنا أسمعك تصرخ: كلنا نضال! كلنا نضال! وأتذكر كلماتك: نضال صديق حقيقي وابن حلال. وأضحك وأنا أسمعك ترتل بهيبة الشعراء والهواء يطير شعرك الخفيف فوق جمجمتك، نحيلا كأن هموم العالم تنخرك من الداخل:

لا تُصالحْ!

.. ولو منحوكَ الذهبْ!

أتُرى حين أفقأ عينيكَ،

ثم أثبِّتُ جوهرتيْن مكانهما..

هل تَرىَ..؟

هي أشياءُ لا تشترى

وأشتري ديوانكَ الذي نشرته دار نشر كبيرة، وأضحك على الإهداء: إلى كل شرفاء العالم الذين لم ينتحروا بعد، ثم بخطٍ أصغر: هذا إن كان باقيًا في هذا العالم شرف. وأضحك. أضحك. أضحك. لا بُد أن أضحك. كلنا فاسدون، كلنا كذابون، كلنا فاسدون، كلنا كذابون، كلنا محمد جمعة. وصوتك يصدح:

تلك الطمأنينةُ الأبديةُ بينكما:

أنّ سيفانِ سيفَك..

صوتانِ صوتَكَ..

أنكَ إن متَّ:

للبيت ربٌّ

وللطفل أبْ!

وأشاهدك، وأنتَ تصرخ: كلنا نضال! كلنا نضال! وأضحك، والدمع يفر من عيني أضحك، وأنا وحيدة في شقتك التي تركتها وحيدة مثلي، غريبة مثلي، ولكني شكرتك، فلم أكن أعرف غير هنا لأكون فيه، ولم أكن لأحتمل أن أعود إليهم،

إنها الحربُ!

قد تثقلُ القِلبَ..

لكن خلفك عار العرب.

لا تصالح..

ولا تتوخ الهرب!

ولماذا الهرب؟ لماذا لا أعود؟ نعم لماذا لا أعود؟ كلنا فاسدون، كلنا كذابون، فما الفرق؟

كيف تنظرُ في عيني امرأةٍ..

أنتَ تعرف أنك لا تستطيع حمايتها؟

كيف تصبح فارسها في الغرام؟

كيف يا نادر؟ وأتأمل عينيكِ، وأنا أراكَ وأنتَ تقدم برنامجك الخاص (سري جدًّا) من قلب العراق، وأنتَ تقول إن البرنامج سيتتبع أشياء سرية لا يجوز أن يعرفها أحد، وأنتَ تتجول هنا وهناك، وتقول كلامًا ناريًا يليق بشاعرٍ نشرت له ديوانه دار نشر كبيرة، يليق ببطلٍ يصرخ: كلنا نضال، يليق بمراسلٍ في قلب الحرب، يليق بهاربٍ! يليق بهارب! يليق بكاذب! ما الذي يفعله الحب المهزوم فينا؟ إنه يحولنا وحوشًا ثم في النهاية يجعلنا نقتل أنفسنا! لا نحتمل حقيقة أننا صرنا وحوشا لأجل الحب. وكنتُ أنا الضحية! لا لستُ ضحية! أنا وحش! أنا فاسدة! فاسدة مثل محمد جمعة بالضبط! فلماذا أقاوم هذه الفرصة التي لن تأتي ثانيةً أبدًا؟ لماذا أقاوم لذة النصر حين تراني يا نادر أحاور المارشال في حديثٍ حصري لن يفعله أحد غيري؟

حوارٌ جانبي ٢

- في خدمتك يا فخامة المارشال.

- أنت تفهم يا محمد جمعة!

- هاها شكرًا لفخامتك.

- منذ هذه البنت مديحة وأنا أقول إنك تفهم!

- هل أعجبتكم ندى؟

- نعم، رأيتها اليوم في النشرة، لكن لماذا هي عابسة هكذا؟ ألم تُعرِّضها لامتحانات الولاء؟

- ليس بعد فخامتك، إنها تحجر دماغها قليلًا، لكن كل شيء يلين حتى الحجر ابتغاء مرضات معاليكم!

- تمام، أريد أن ينتهي ذلك في أسرع وقت هل هذا مفهوم؟

- مفهوم سعادتك!

..... لماذا إذا ما تهيأتُ للنومِ، يأتي الكمان؟

فأصغي له آتيًا من مكانٍ بعيد
فتصمتُ همهمةُ الريح خلف الشبابيك
نبض الوسادة في أذني
تتراجع دقاتُ قلبي
وأرحلُ في مدنٍ لم أزرها
شوارعها فضةٌ وبناياتها من خيوطِ الأشعةِ
ألقى التي واعدتني على ضفةِ النهرِ
واقفةً
وعلى كتفيها يحط اليمام الغريب
ومن راحتيها يغط الحمام
أحبكِ
صار الكمانُ
كعوبَ بنادقْ
وصارَ
يمامُ الحدائقْ
قنابلَ
تسقطُ في كلِّ آن
وغاب الكمان
وغاب الكمان
شجوية – أمل دنقل
الدم
- ماذا تفعلين؟
- هل ستخلعين حجابك؟
- هل ستبيعين مبادئك؟
- والله الذي تؤمنين به؟
- اخرسوا!
- لا لن نخرس!

- نعم لن نخرس.

- لن نخرس..

- اتركوني في حالي.

- يضايقك أن نواجهك بالحقيقة!

- أنتِ تخونين مبادئك!

- نحن نقول الحقيقة.

- إن كانت الحقيقة تضايقك فهذه مشكلتك لا مشكلتنا.

- أنا لا أرتكب جريمة!

- بل تفعلين، تبيعين كل الدم!

- أنتم تهولون الأمور، أنا سأكون مذيعة ناجحة ماذا يضايقكم في ذلك؟

- أنتِ تعرفين أنكِ كاذبة!

- طوال عمري وأنا لا أعرف ماذا أريد، لكنه الآن واضح أمامي.

- كذب!

- كذب!

- أنتِ تعرفين أنكِ كاذبة!

- أنا أعرف أني وحيدة!

- وما دخل هذا بذاك؟

- هل تبيعين مبادئك لأن من تحبيه قد خانك؟

- أنا لا أبيع شيئًا، أنا أريد أن أنجح.

- أي نجاحٍ في ذلك؟

- هذه فرصة أتتني فلماذا أرفضها؟

- هذا ليس نجاحًا!

- أنا لن أخون مبادئي في شيء إذا قبلتها.

- أنتِ تعرفين أنكِ كاذبة!

- وما دخلكم إن كنتُ أعرف أو لا أعرف؟

- تقول وما دخلنا!

- نعم أنا أعرف وسأفعل ما دخلكم يا أولاد الكلب!

- نحن ميراثكِ من أبيكِ!

- لن نسمح لكِ!

- نعم لن نسمح!

- لن نسمح أبدًا.

- حاولوا منعي إذًا.

وقفت أمام المرآة تعدل خصلات شعرها وترسم كحل عينيها، واصطفوا هم صفوفا عريضة، عجائز ورجالا ونساءً وأطفال وبهائم ملطخين بالدم، يحملون أطرافهم الممزقة في أيديهم، لمحتهم في المرآة وهي تهم بوضع أحمر الشفاه، فالتفتت..

كانت عيونهم تلمع بالتصميم، وتشابكت أيديهم في صفوف متراصة، يحولون بينها وبين باب الغرفة..

انتصبت كرمح، وأخذت شهيقا عميقا وكتمته لحظةً، واشتد تقاربهم وتشابكهم وهم يدركون بحس الموتى اقترابَ الموتِ..

انفرجت شفتاها، واهتزت أحبالها الصوتية، واضطربت معدتها وخفق قلبها، وانسحبت الصرخة من ركبتيها، وارتفعت ارتفعت حتى ارتقت ووصلت إلى شفتيها، فانطلقت آسرة مدوية عظيمة الهيبة، فتدافعت كقنبلة نووية وتماوجت موجاتها فحطمت الزجاج ومزقت الآذان وأذبلت الزروع وسَقَّطتِ الطيرَ وذبِّحت الحيوانَ.. وقتلتِ الموتى.

ثم تقدمت خطوةً إلى صفوف القتلى البائسين الملقون على أرضية غرفتها ممزقي الأجساد، وانحنت إلى بقعة دم ومستها بسبابتها فاحمرت عقلتها، رفعتها إلى عينيها وكاد الدمع يترقرق في عينيها وجاءتها صورة أبيها لكنها مزقتها والتفتت إلى المرآة وسكنتْ..

لم يمر كثيرٌ حتى جف دمع عينيها الذي لم ينهمر، ورفعت إصبعها المبلل بالدم ومسحت به شفتيها فاحمرتا، فضمتهما وفرجتهما كأنها تثبت أحمر الشفاه، وقالت: هكذا أفضل.

ثم ابتسمتْ.

... ...

دخلتُ الأستوديو، جلستُ في مكتبي، والموتى في رأسي صامتون، كأنهم قد ماتوا! جاء الإعداد أخبرني بأن عليّ الاستعداد، خرجت أسير في الطرقة المؤدية إلى غرفة التصوير، وعيونهم كلهم تأكلني، ووقفتْ أمام المرآة أتأمل الشلال الأسود البريّ كحصان متوحش غجري يرفض أن يروضه أحد، لم أكن أشعر بعري، كما تخيلتْ أني سأشعر حين قررت خلع الحجاب، وجاءت عاملة الماكياج وبان صمتها من المفاجأة، فأنا كنت جميلة فعلًا، لدرجة أني نفسي اندهشت لذلك، وقلت لنفسي ولمَ لا؟ سيرى أي جمالٍ خسر!

وجاءتني بالأخبار وناولتني إياها بحذر، فامتلأت أكثر بندى الجديدة، وقلت لها إني لا أريد أن أقرأها الآن وأني سأقرؤها على الهواء مباشرة، كانت الثقة تملأني ولا أريد أن أبددها بقراءة الأخبار..

بدوا حولي مضطربين مجانين، وضحكت، ضحكت بصوتٍ عالٍ فازداد توترهم، يا الله لو كنتُ أعرف أني بهذا الجمال! وجاءني الهاتف فأجبت بهدوء، فقال محمد جمعة محاولا أن يبدو هادئا وأنا أشعر بتوتراته بين ثنايا الكلمات، وهو يشعر بدنو اللحظة التي يتمناها، كان ينتظر أن أقول فقط شيئًا مضحكا ليظل يضحك بقوة، لكني لم أضحك، فذكرني بشرط المارشال: يريد أن يراكِ تقرئين خبر مذبحة وأنتِ مبتسمة ابتسامة جذابة!

وجاء صوت المخرج فعدلت من هندامي، وبدأت النشرة وأنا أبتسم ابتسامةً واسعة لم أبتسمها منذ زمنٍ بعيد سحيق ميت، وقلت:

أعزائي المتابعين، ننقل إليكم نشرة أخبار السادسة، ونبدأها بأهم الأخبار:

(وتعمدت أن أعدل من خصلة شعري وأنا أزيد ابتسامتي من أنوثتي)

تفجيرٌ طائفيٌ جديدٌ في كربلاء بالعراق أثناء احتفالات الشيعة بيوم عاشوراء، وقد كشفت التحقيقات الأولية أن التفجير نتج عن هجوم انتحاري يحمل حزامًا ناسفا قد فجر نفسه وسط الاحتفالات، وقد راح ضحية التفجير أكثر من عشرين قتيلا، من بينهم الإعلامي اللامع الزميل نادر فوده الذي كان يغطي اليوم و....

ناد.. نادر.. نادر فوده!

وشهقتُ فجأة وارتفعت يدي لوجهي تسد صرخة كادت تخرج، وعيني تروح حولي في كل مكانٍ تبحث عن شيءٍ لا أدريه. وساد الصمتُ في الأستوديو! لهذا إذًا كانوا يتأملونني طوال الوقت! حتى بعد مرور هذه السنين لم ينسوا! كان المصور مرتبكًا والمخرج أيضًا، فذهب الكادر بعيدًا وترقرق الدمع في عيني لحظةً وأنا أتأمل مرأى الأشلاء على الشاشة التي أخرجوا منها هويته الصحفية والتي كانت صورته فيها ملطخة بالدم، وتذكرت وقفتي أمام المرآة وحاولت تذكر صورة أبي لكني لم أفلح... وكان لا بُد أن أضحك!

ضحكت بهستريا ودمع تساقط على وجنتيّ..

أضحك..

أضحك..

أضحك..

أضحك..

أضحك..

وحين عاد الكادر إليّ كنتُ لا أزال أبتسم وشفتاي ملطختان بالدموع والدم.

مسرحية

أشرت على موسيقى Audiomachine – Kill ‘em all فاضطرم الصخب، وبدأ العرض الأخير:

نور يمسك بقايا كتابٍ احترق ويقف فوق الكرسي الصغير ويلوح بيده، يبدو على وجهه أثار اللكم والضرب والكدمات الزرقاء، ويظهر كذلك خيوط حمراء فوق ظهره الذي تمزق عنه قميصه السمني وصار أسمالا بأكمام متهرئة وبنطلونه نزق من قماش مهلهل. كان المارشال والواقفون في الصناديق الأربعة ثابتون كتماثيل من شمع، على وجوههم ابتسامات مخيفة، كدمى وحشية تنطق عيونها بالشر. الجند يتحركون دون أن يحركهم أحد على يسار المسرح، في خطوةٍ منضبطة كأنهم يمشون في المكان دون أن يتقدموا بأي خطوة. والجوقة كلها، دون أن يحركهم أحد، تلتفت التفاتةً واحدة، البرتقالية والصفراء والخضراء والزرقاء، واندفعوا يسيرون كالموتي الأحياء، نحو نور الذي وقف صارخا فوق الكرسي الصغير. يُغرق الظلام خلفية المسرح فلا يعد يظهر المربعات الخشبية الأربعة أو المارشال. وتتكوم الجوقة حول نور ويحملوه بين أيديهم وهو لا يقاومهم. حملوه كجثة في جنازتها الأخيرة، كان يقرأ شيئًا من الكتاب صارخا، وهم يحملونه ببطء ورتابة وأوقعوه في منتصف دائرة كبيرة، فانتصب كرمح، وأخذ يرفع يده ويشير بسبابته وهو لا يزال يقرأ، وبدأوا هم يدورون حوله رويدًا وهم يشعلون أعواد كبريتٍ صغيرة ثم يلقونها عليه، واحدًا تلو الآخر، وجاء جنديان من بعيد يحملان سطلا كبيرًا ثم تقدموا من الجمع الدائر ككوكب في مداره الأبدي، فأفسح لهم الجمع ممرًا و....

إظلام..

(تشتعل موسيقى Audiomachine – Quantum)

في إضاءةٍ خافتة كأنهم بتصوير سينمائي على أقل سرعة، يتقدم الجنديان فتفسح لهما الجوقة التي تدور الآن ببطء، ويرتقيان كرسيين صغيرين، ثم يرفعان السطل، ويقلبانه فيندلق منه السولار فوق نور كمطر انهمر من فوهة سحابة فوقه هو، تترنح القطرات هنا وهناك، وتتخلل الرائحة كل المسرح، وتطلق الجوقة أصواتٍ همجية وهي تلقي المزيد من أعواد الكبريت فتشتعل النار في حلقات صغيرة، ثم تتأجج أكثر وقد شمت رائحة البنزين، ونور واقفٌ يضم كتابه لصدره كرضيع، يحاول أن يحميه، والجوقة تلف حوله والجنديان واقفان بالكاد فوق الكرسيين الصغيرين يلوحان بسلاحهما، والنيران تشتعل أكثر فأكثر فأكثر فأكثر...

إظلام..

(تشتعل موسيقى Audiomachine – The Truth)

تضيء الإضاءة قوية فجأة، ويظهر في منتصف المسرح، جسدًا متفحما لرجل يحتضن كتابا يشبه تمثالا لرجل يحتضن طفلا، وتخفت الإضاءة تدريجيا، ويتحرك الجند ليلتفوا حول الجسد المحترق، ثم ينهشونه بأيديهم، ويقطعونه ويأكلون منه، أما الجوقة فيتحركون في كل مكان، يخلعون رؤوسهم من فوق أكتافهم، ويفتحون

جماجمهم، يخرجون منها أمخاخهم، ويعلقونها فوق أحبال ممتدة على جانب خشبة المسرح بمشابك، والإضاءة تخفت تمامًا ولا يبقى سوى بؤرتي ضوءٍ: الأولى على الجسد المحترق وأيادٍ لا يظهر أصحابها تمتد لتنهش منه، والأخرى على الأمخاخ المنشورة فوق الحبال..

وتخفت الموسيقى وصوتٌ يمتزج بها يبدأ في الصعود تدريجيا..

بلوب..

بلوب..

بلوب..

صوت قطرات الماء التي تسقط من الأمخاخ التي نشرها أصحابها لتجف من الغسيل.

إظلام.

تحرك المارشال وكنتُ أنا جالسًا ألهث، وسمعتُ صوت خطواته وهو يقول:

- هذا خراء غير مقبول، غير مقبول على الإطلاق!

قلتُ من بين لهاثي: ماذا تقصد؟

قال وهو يعطيني ظهره ويتأمل المسرح بعد انتهاء المسرحية، متأبطًا صولجانه العسكري، وواضعا كفه الأيسر فوق الأيمن فوق مؤخرته، كأنه يتأمل خطة حرب: لماذا تعتبرون الطيبة ضعفا؟ أنتم يا معشر المثقفين تحسبون أنكم أفضل من الناس، وأنكم تملكون الحقيقة في حين أنكم في الحقيقة لا شيء! لماذا لم أسمع كلام زميلي جوبلز؟

- أي كلام؟

- كلما سمعت كلمة ثقافة تحسستُ مسدسي! لماذا لم أتحسس مسدسي وتعاملت معكَ بهذا الأسلوب؟ يبدو أنك تحتاج لأن تعرف حجمك الحقيقي!

تجاهلته وأنا أبحث عن الأوراق لأكتب آخر شيءٍ في الرواية، وسمعته يقول: ألا يكفي أني تجاوزت عن أنك تظهرني بمظهر الأهبل العبيط، ولا تجعل لي احترامي كأي مارشال في رواية، حتى جنرال نصر الله كان ينال احترامًا حقيقيا رغم أنه أقل مني رتبةً! تجعلني أبدو كرئيس لمكتب أمن في برج الشيماء! يكلمني محمد جمعة على التليفون كأنني صديقه، ونتحدث عن خادمة وعن مذيعات! واقف كمايسترو أبله أمام مسرح من العرائس، طوال الرواية حتى لم تحضر لي كرسيا..

قلت وأنا أبحث في أوراقي: بل جعلتك تجلس مرةً على كرسي ضخم كالعرش.

أكمل غير عابئ بكلامي: لا يوجد لي طقم حراسة مثلا، ولا لي مكتب مثلًا حين أرغب في أحد أطلبه أنا فيذهب رجالي لإحضاره، أو مثلًا مثل جنرال نصر الله –

الذي هو أقل مني رتبة – أذهب إليهم في مقر الأمن الوطني بعدما يكونوا عرفوا حجم أنفسهم، مثل أحمد الصافي وطاهر الصديق! لكن يبدو أنني دللتك فعلًا!

كنت قد وجدت الأوراق حين التفتَ لي تتوهج عيناه بغضب لا حد له: ثم في النهاية تجعلني دمية؟

ضحكتُ بصوتٍ عالٍ جدًّا وقلت: هذا إذًا ما ضايق سعادة المارشال! لكن هذه هي الحقيقة أنتَ فعلًا دمية في أيديهم!

قال بصوتٍ كهزيم الرعد أفاقت له الدمى على المسرح: أنا لستُ دمية في يد أحد!

جلجلت ضحكتي وأنا أقول: بل أنتم جميعًا، كلكم، دُمى في يدي أنا، أحرككم كيفما أشاء، وأصنع لكم خطوطا كما أشاء، هذه روايتي وأنتم عرائس في يدي أحركها كيفما أشاء كي تكتمل القصة!

ظلت نظرته غاضبة ثم ضحك هو الآخر ورفع حاجبيه البرتقاليين وقال ساخرًا: أحقًّا؟

قلتُ: نعم حقًّا، والآن دعني أكتب آخر كلمات الرواية.

قال: أنتَ لن تكتب شيئًا بعد الآن!

قلتُ: ماذا ستفعل؟

ورأيتَ الجوقة في مناماتهم، والجند بكامل عتادهم، يركضون من فوق خشبة المسرح نحوي، فقلتُ له: هل تحسب إني سأصمت؟ إن لم أكتبها سأقولها، سأصرخ بها..

وأخذت أصيح بكل ما فيّ من قوة********:

"(إدوارد جورج رودي) مات اليوم، لقد كان رئيس مجلس إدارة أنظمة الإرسال، الويل لنا نحن في مأزق كبير"

والجوقة والجند يصلون لعندي، ويمسكون أوراقي ويمزقونها،

"إذًا رجل ثري له شعر أبيض مات، ما علاقة ذلك بسعر الأرز صحيح؟ ولماذا هذا ويلٌ علينا؟"

والمارشال يقف متأملا ويضحك: حتى آخر كلماتك ستكون منقولة يا سيد ميسرة؟ يا للأسى!

"لأنكم يا شعب.. و62 مليون أمريكي آخرين ينصتون لي الآن.. لأنه أقل من 3% منكم يقرؤون الكتب، لأنه أقل من 15% يقرؤون الصحف، لأن الحقيقة الوحيدة التي تعرفونها هي ما تتلقونها عبر جهاز التلفزيون"

يتكالبون على حملي، ثم يرفعونني كجثةٍ، ملقً على ظهري فوق أكتافهم، وهم يسيرون بخطى ثابتة نحو خشبة المسرح، ولا أزال أصرخ:

"الآن يوجد جيل كامل لا يعرف شيئًا لا يخرج من هذا الجهاز! هذا الجهاز هو الإنجيل، الإلهام المطلق، هذا الجهاز يمكنه صناعة أو تدمير الرؤساء الباباوات رؤساء الوزارات"

نصل إلى الخشبة، فيرمونني في منتصف الحلقة، فأقوم منتصبًا:

"هذا الجهاز قوة لعينة هائلة في العالم اللعين كله، الويل لنا إن وقعت في أيدي أناس خطأ، ولهذا الويل لنا لأن (إدوارد جورج) مات، لأن هذه الشبكة الآن في أيدي سي. سي. إيه. مؤسسة الاتصالات الأمريكية"

تدور الجوقة حولي، والمارشال يصرخ كي يغلب صوته صوتي: تجعلني دمية؟ بل أنتَ الدمية، أنتَ دمية في يدي، أنا حقيقتك، أنا أفكارك ووهمك ومخاوفك، أنتَ دمية في يد روايتك، دمية في يد الكتابة، أنتَ دمية! هل تسمع يا فاشل؟ أنتَ دمية!

"يوجد رئيس جديد لمجلس الإدارة رجل اسمه (فرانك هاكيت)، جالسٌ بمكتب (رودي) بالطابق العشرين، وعندما تتحكم أكبر 12 شركة في العالم، بأغرب دعاية لعينة، في هذا العالم اللعين كله..

فمن يدري أي هراء سيُبث على هذه الشبكة على إنه الحقيقة!"

يأتي الجند بأوراقي التي مزقوها ويلقونها فوقي وجواري، والجوقة تشعل أعواد كبريتٍ وتلقيها فوقي، والمارشال يصدح: أنتَ لن تغير شيء، كلماتكَ هذه ستضيع هباءً منثورًا، أنتَ فقط باحث عن الشهرة، عن النجاح، لكن في حقيقة الأمر أنتَ لا شيء! لن يسمعك أحد!

"لذا لتسمعوا لي، اسمعوني! التلفزيون ليس الحقيقة، التلفزيون منتزه ترفيهي لعين، التلفزيون سيرك، مهرجان فرقة جوالة من البهلوانيين، رواة قصة وراقصين ومغنيين ومشعوذين وأصحاب نزوات ومدربي أسود ولاعبي كرة القدم... نحن في مهنة مملة وقاتلة!"

وأراهم محمد جمعة ومديحة وسنقر ومرعي يصفقون ويأكلون الفيشار، ونادر يقف بعيدًا شريدًا تائهًا يتلفت حوله، وأفكر: من مات في الحقيقة مات على الورق. وندى تتجلى في فستان وتقول لي غاضبة: لماذا صورتني بهذه الشخصية المهزوزة؟ يضحك المارشال ويقول مغلولا: لأنه كاتب فاشل ومعقد من النساء. ثم يعطي الإشارة لجنده، والجوقة لا تزال تدور حولي، تدور، تدور، تدور، تدور،

"لذا إذا أردتم الحقيقة، توجهوا للرب، توجهوا إلى معلميكم، توجهوا لأنفسكم! لأن ذلك هو المكان الوحيد الذي ستعثرون فيه على أي حقيقة فعلية"

ويجيء الجنديان بسطل البنزين ويرفعانه،

"ولكن يا رجل، لن تحصلوا على أي حقيقةٍ منا، سنخبركم بأي شيء تريدون سماعه، سنكذب عليكم

سنخبركم بأن (كوجاك) دائمًا يقبض على القاتل، ولا أحد يصاب بالسرطان في منزل (آرشي بانكر)، ومهما كانت المشاكل التي يواجهها البطل، لا تقلق! لتنظر لساعتك فقط، فعند انتهاء الساعة سيفوز!"

وأسمع المارشال رغم صراخي: لن يصدقك أحد! لن يصدقك أحد! وأفكر: الكاتب لا يُهزم إلا من داخله! الكاتب لا يُهزم إلا من داخله..

"سنخبركم بأي خراء تريدون سماعه! إننا نتعامل مع الأوهام، لا شيء منها حقيقي، لكن أنتم يا ناس تجلسون هناك يومًا بعد يوم، ليلة بعد ليلة، كل الأعمار والألوان والعقائد، نحن كل ما تعرفوه، بدأتم تصدقون الأوهام التي نقدمها، بدأتم تظنون أن الجهاز واقع وأن حياتكم هي الخيال"

ينهمر فوقي البنزين وأشعل برائحته الخانقة تضربني والجوقة يطلقون صيحاتٍ همجية والمارشال يصيح: أنتَ مجرد دمية! أنتَ مجرد دمية في يد أفكارك تلهو بها كما تشاء! وأنوح في داخلي: الكاتب لا يُهزم، الكاتب لا يُهزم، وأزداد صراخا والنار تشتعل فيّ:

" تفعلون كل ما يقوله الجهاز لكم! تلبسون مثل الجهاز، تأكلون مثل الجهاز، تنشئون أطفالكم مثل الجهاز، أنتم حتى تفكرون كالجهاز.. هذا جنون أيها المجانين!"

وأرى النار تحرقني، وأشعر بسوط اللهيب يطال عيني، لكني لا أشعر بالألم،

"باسم الرب أنتم الشيء الحقيقي يا قوم! نحن الخيال! لذا أغلق التلفزيون، أغلقه الآن، أغلقه الآن حالا واتركه مغلق! أغلقوه في وسط تلك العبارة التي أقولها لكم الآن!"

وأرى أطراف حبالٍ تخرج من يدي ورأسي ورجليّ وهي تذوب من النار، وأشعر بالحرية، فأود لو أضحك فرحًا، لكني أصرخ صرختي الأخيرة:

"أغلقوه!"

ثم أسقط.

****** : أحد أقوال الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه.

******* : الكلام القادم ما بين علامتي التنصيص هو من فيلم Network إنتاج: 1976، إخراج: سيدني لومت، وجاءت هذه الكلمات في الفيلم على لسان المذيع: هوارد بيل الذي قام بتجسيده الممثل: بيتر فينش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالوا عن الرواية

"إنه كاتب مجنون ومريض بل وكافر أيضًا؛ ويحاول أن ينشر إلحادَه على لساني، ناهيك عن كذبه اللامتناهي، وعن افتراءاته وقذفه وإشاراته لعلاقات محرمة بين إعلاميين مرموقين، إلا أنه، علاوةً على ذلك، يجب محاكمته بتهمة ازدراء الأديان وإهانة الذات الإلهية."

الإعلامي الكبير نادر فوده

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"أنا لا أصدق كيف يُسمح لمثل هذا الكاتب أن يكتبوا، وأن ينشروا، وأن يسبوا هكذا أعراض أناس شرفاء، ثم في النهاية ينادون بحرية التعبير والرأي! إنني وزوجي الأستاذ محمد جمعة سنقاضيه، وسنجعله عبرةً لكل من هم مثله، من تسول لهم أنفسهم أن يخوضوا في أعراض الناس دون وازعٍ أو ضمير."

الإعلامية ندى أحمد علي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"أعرف نوعية هذا الشاب الباحث عن الشهرة بأية وسيلة، ولأنه ضعيف الموهبة ركيك الأسلوب، ولا يجد سوى رمي المشاهير بالسباب، فيظهر غضبهم ويهاجمونه فيشتهر وتباع روايته و.... إلخ إلخ.. لكنه أخطأ هذه المرة في اختيار من يسبهم! لكني لن أصنع منه بطلا ولن أحقق له مسعاه رغم طعنه في شرفي وشرف زوجتي وحمي؛ وسأترك الأمر للقضاء الشريف ليبحث في أمر هذه المبالغ الطائلة التي يأخذها كجوائز بلا قيمة أدبية حقيقية، بل هي تمويل من بلادٍ يهمها وجود من هم مثله، ونحن لن نمنح لهم الفرصة، فالكلاب تنبح والقافلة تسير."

الإعلامي الكبير محمد جمعة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"هكذا دائمًا هو الحال؛ أنتَ لن ترضي كل الناس، تصنع لهم ديمقراطية وتترك لهم حرية التعبير، فيتبجحون في وجهك! هكذا دائمًا الشجرة المثمرة يقذفها الناس بالحجارة. إن هؤلاء الحقودين هم الثمرة الفاسدة التي أنتجتها شجرتنا الأم، بلادنا العظيمة، وهؤلاء الملاعين سنطاردهم حتى نجتثهم من فوق الأرض، ساعتها ستصير بلادنا أجمل!

فهلموا! قوموا لتنظيف بلادكم من هؤلاء الملاعين، قوموا واجعلوا أجسادهم سمادًا للأرض، ودماءهم ماءً للشرب، اجعلوا جماجمهم سُلمًا نرتقيه لنهضة بلدنا العظيم!"

المارشال م. ا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على هامش الرواية

استعنت بكثير من العناوين، أعتقد أن ذكرها جزء لا ينفصل عن النص الروائي، فالرواية من الخيال، لكن ذلك لا يمنع أن فيها أشياء حقيقية:

الكتب:

أحمد منصور، قصة سقوط بغداد (بيروت – القاهرة: دار ابن حزم، الدار العربية للعلوم، ط6، 2004)

أحمد منصور، معركة الفلوجة: هزيمة أمريكا في العراق (بيروت: دار الكتاب العربي، 2007)

السيد عبد الرازق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث (ثلاثة مجلدات، بيروت: الرافدين للطباعة والنشر، ط7، 2008) (صدرت الطبعة الأولى منه بعد الحرب العالمية الثانية) (اطلعت فقط على بعض الأجزاء التي ارتأيتها مهمة ما بين المجلدات الثلاثة ولم أقرأه كاملا)

بول بريمر، عام قضيته في العراق: النضال لبناء غد مرجو، ترجمة: عمر الأيوبي (بيروت: دار الكتاب العربي، 2006)

جمان مكي كبة، شاهد عيان: ذكريات الحياة في عراق صدام حسين، ترجمة: معينة نايف الغنام (بغداد: شركة الوراق للنشر 2009) (نشر العمل للمرة الأولى باللغة الإنجليزية في أمريكا في بدايات 2003 قبل الغزو بوقت قليل)

عامر الكبيسي، الشاهد والمشهود (بغداد: نسخة إلكترونية نشرها الكاتب على صفحته على Twitter)

د. علي الوردي، شخصية الفرد العراقي (ط2 لندن: شركة الوراق للنشر 2007) (نشر العمل الأصلي عام 1951 في بغداد)

كوركيس عواد – يعقوب سركيس، أصول أسماء مدن وقرى عراقية (بغداد: شركة الوراق للنشر 2009) (الطبعة الأولى كما فهمت ظهرت في مجلة سومر عدد 17 لعام 1961م)

البحوث :

إستبرق فؤاد وهيب، المعالجة الإعلامية للاحتلال الأمريكي للعراق: تحليل مضمون مجلة نيوزويك – النسخة العربية (رسالة ماجستير في الإعلام تحت إشراف: أ. د. حميدة مهدي سميسم، مقدمة إلى كلية الإعلام بجامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا، نوفمبر 2009) (نسخة إلكترونية)

أ. م. د. هاشم أحمد نغيمش (كلية الآداب – جامعة الأنبار)، واقع الصحافة العراقية بعد أحداث 2003 (العدد الخامس والخمسون من مجلة ديالي 2012) (نسخة

إلكترونية)

الإعلام المنشود: كيف نفهمه؟ وما هي شروطه؟ (المجلة العلمية الصادرة عن جامعة لاهاي العالمية للصحافة والإعلام، 2009) (نسخة إلكترونية)

د. فاضل البدراني (أستاذ الصحافة والإعلام في قسم الإعلام بكلية الآداب – الجامعة الإسلامية ببغداد)، الصحافة العراقية: أنماطها واتجاهاتها ومخاطرها قبل الاحتلال وبعده (المجلة العلمية الصادرة عن جامعة لاهاي العالمية للصحافة والإعلام، 2009) (نسخة إلكترونية)

أ. د. جمال السامرائي (رئيس جامعة لاهاي العالمية للصحافة والإعلام كما في هذا العدد)، الإعلام التنموي: نبل الأهداف.. وتعثر النتائج (المجلة العلمية الصادرة عن جامعة لاهاي العالمية للصحافة والإعلام، 2009) (نسخة إلكترونية)

وبعض المباحث الأخرى التي تضمنتها المجلة وغيرها.

شهادات:

استعنت بكثير من فيديوهات اليوتيوب التي تؤرخ لهذه المرحلة وبعض الأفلام الوثائقية عن الغزو الأمريكي للعراق. كذلك فيديوهات لصدام حسين والرصاف وجورج بوش ووزير دفاعه رامسفيلد وغيرهم. وبعض الأغاني الوطنية العراقية التي استطعت الوصول إليها. وموقع للصحافة العالمية توصلت من خلاله لبعض الأعداد القديمة للجرائد الأمريكية والعربية إبان فترة الاحتلال واطلعت على عناوينها.

بعض الشهادات التي كتبها عراقيون على مواقع الإنترنت المختلفة عن واقع الاحتلال. وبعض الأوراق التوثيقية المهمة مثل: رسالة الشيخ أبي أسامة العتيبي للقيادة في خراسان (يقصد قيادة تنظيم القاعدة) أرسلها وهو قاضي "دولة الإسلام في العراق" قبل أن يفارقهم، وتحدث فيها عن بناء منبر المهدي. ساعدني في الوصول إليها الصديق الروائي والباحث في شئون الأقليات/محمد السيد، الذين أدين له في هذه النقطة بما أمدني من غزارة علمه. هذا إلى جانب صفحات ويكيبيديا بطبيعة الحال، وصور سجن أبي غريب، وما يكمن من كل ذلك في الذاكرة وقد عايشته حتى ولو لم أكن وقتها بالنضج الكافي لأدركه، إلا أن تأثيره داخلي لا يزال نافذًا حقيقيًّا.

فيديو اغتصاب العراقية في القسم الثالث حقيقي للأسف وموجود على الإنترنت، والشهادة المذكورة على لسان فاضل المكتوبة بالخط المائل في الفصلين: 2و3 في قسم: الكراهية، نقلتها – مع قليل جدًّا من التصرف – عن الصديق السوري: فاضل الخطيب بعلمِه. والشهادات المذكورة المذيلة بأسماء أصحابها طوال القسم، حقيقية.

هذا، والدم.

م. ا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ميسرة الهادي

روائي مصري من مواليد المنصورة، 1989. حازت روايته "النحت في صخور الألماس" جائزة مجلة دبي الثقافية فرع الرواية دورة 2012/ 2013 المركز الأول. كما صدرت له مجموعة قصصية "أنا لستُ بِكرًا" 2012.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صدر عن دار الربيع العربي

2015

دافنشي- دراسة تحليلية لذكريات طفل، سيجموند فرويد، دراسة

الأوركسترا الليلية، رضا قاسمي، رواية

السهم الزمني، مارتن أميس، رواية مترجمة

برج العذراء، إبراهيم عبد المجيد، رواية

ذاكرة الحكائين، أمير تاج السر، مقالات

أهواك، أشرف الخمايسي، قصص

الصنم، أشرف الخمايسي، رواية

ريمورا، غسان حمدان، رواية

خطايا الآلهة، أدهم العبودي، رواية

L for life, love and in between, Loaiy A. Tageldin, Short stories

2014

طهران..الضوء القاتم، أمير حسن جهلتن، رواية مترجمة

صياد الملائكة، هدرا جرجس، رواية

أبابيل، شريف عبد الهادي، رواية

الطيبيون، أدهم العبودي، رواية

النوم مع الغرباء، بهاء عبد المجيد، رواية

تقتلني أو أكتبها، عبد الصبور بدر، قصص

صف واحد موازي للوجع، ممدوح زيكا، شعر عامية

بنادورا، ميسرة صلاح الدين، مسرحية شعرية

لا شيء لي، محمد رجب، شعر

2013

بريود، محمد متولي، قصص

القاهرة، أحمد بخيت، ملحمة شعرية

آخر أحلام الدانتيل، معتز هاني، نصوص

شفرة فرويد، رامي جان، رواية

الوشم المقدس، شادي المحمودي، شعر

2012

ملك وامرأة وإله، نوال السعدواي، مقالات وقصص

آيات علمانية، عماد نصر ذكري، مقالات

الشوارع الجانبية للميدان، طارق مصطفى، متتالية قصصية

قميص جامعة الدول، أحمد الواصل، قصص

أورارا، فضل ساسي، رواية

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

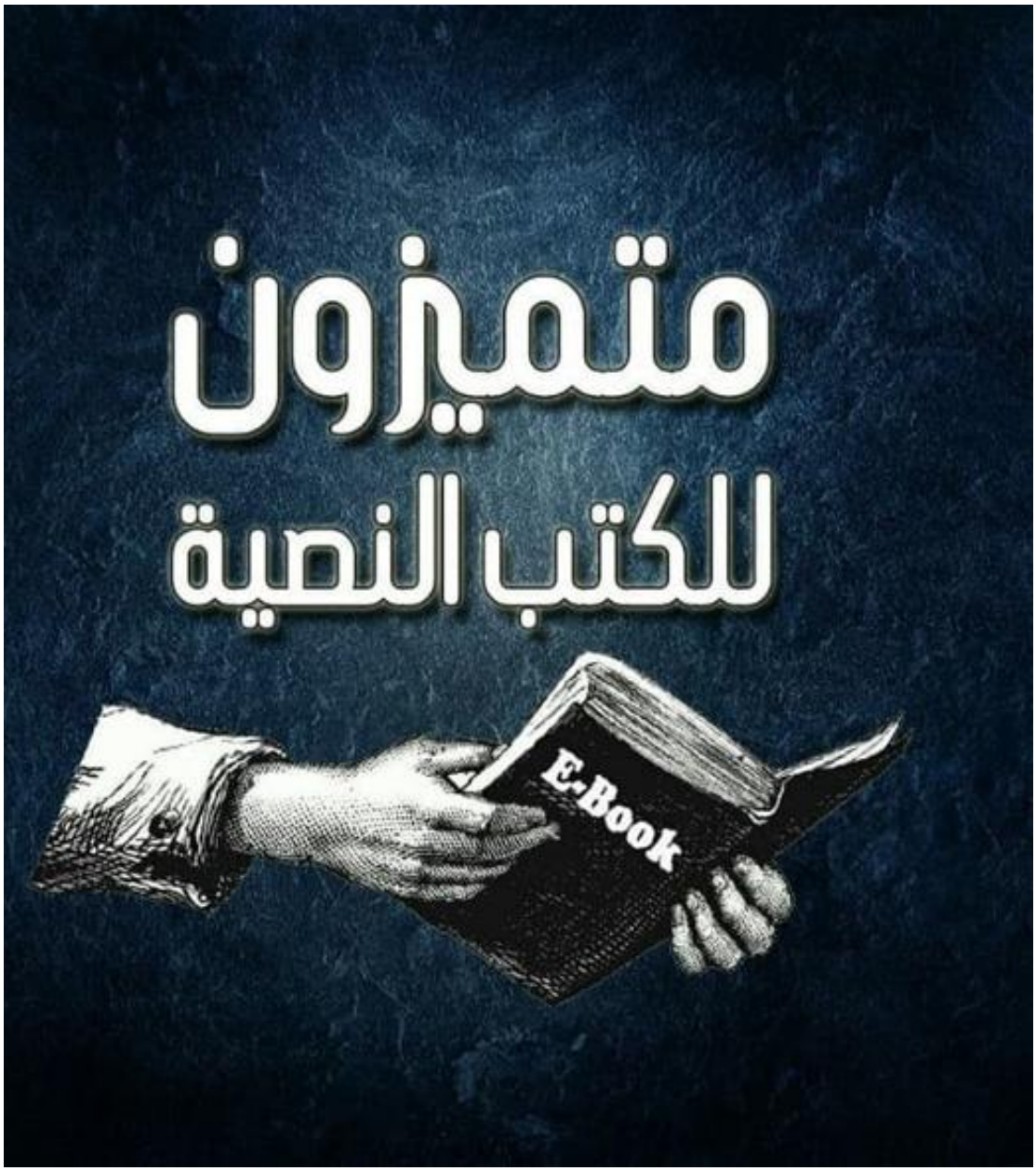
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

إهداء خاص..

القسم الأول الخوف

لا تغادر قبل شروق الشمس

طيف إصبع قوي

رسائل

ينمو معًا؛ ما ينتمي معًا ***

مثاليات سخيفة

لا شيء يُذكر

المارشال لا يعرف كل شيء

ما حدث فوق الكنبة وجوارها

أمومة

ليلة الحناء

القسم الثاني الكراهية

١

٢

القسم الثالث الكذب

الذي أمسك بالمطرقة

قالوا عن الرواية

على هامش الرواية

ميسرة الهادي

صدر عن دار الربيع العربي